محمد جواد مغنية

مِن هُنا وهُناك

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

الطبعـة الاولـى

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

المقدمــة :

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .
وبعـد :

فقد تظن ــ ايها القاريء ــ ان كلمات كتابي هذا لا يجمع شملها جامع الا اسم « من هنا وهناك » وهو ــ كما ترى ــ يشبه ما قيل عن العرب او المسلمين : « اتفقوا على ان لا يتفقوا » .. اجل ، اني كتبت هذه الكلمات في ازمنة مختلفة ، ومناسبات شتى .. وللزمان تأثيره في النظر الى الاشياء ، كما قال ابن العربي من قبل ، واينشتين من بعد ، ثم جمعت شتاتها بين دفتين ، واسميتها « من هنا وهناك » ليوافق الاسم المسمى .

على ان كلمات « من هنا وهناك » تخضع لقانون الترابط ، وان لم نقل بوحدة الوجود .. انها تخضع لفلسفة واحدة ، وتسيطر عليها روح واحدة ، هي حب الله والانسان ، والرغبة في سعادته ، وتقدمه الى الامام .. وبهذا الحب الخالص اطمع ان يغفر لي ربي ما تقدم من ذنبي وما تأخر .

لقد كتبت كثيرا ، وقرأت آكثر مما كتبت ، قرأت بالالوف ، وكتبت بالعشرات ، قرأت الجرائد والمجلات ، والكتب القصار والطوال ، ولا أزال .. وجاءت النتيجة انعكاسا لمقدماتها ، فألفت الكتب القصار

والطوال ، من « الصندويشات » الى الولائم والموائد •• وأيضا كتبت المقالات في المجلات والجرائد ، وجمعت شطرا منها ــ أول ما جمعت ــ في كتاب « مع الشيعة الامامية » طبع سنة ١٩٥٥ ، وأعيد طبعه سنة ٥٦ ، ثم كتبت ونشرت في الصحف ، وجمعت الكثير في كتاب « الاسلام مع الحياة » طبع سنة ١٩٥٩ ، وأعيد طبعه سنة ٦١ ، ثم عدت من جديد الى المقالة والجمع ، وكان هذا الكتاب •

وان سألني سائل : ما بالك تقرأ وتكتب « حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين » ؟ •

اجبته : لو تركت لفاتني الركب ، ومن فاته الركب فهو من الهالكين •• أنا من أهل المعرفة ، هكذا أدعي ، أو هكذا يقال •• ولو مزقت عمري في الاكل والنوم والحديث عن هذا وذاك لكذبت في دعواي على نفسي ، وعلى الله والناس •• ان العالم ، وبخاصة في هذا العصر ، عصر التغيير السريع ، والتطور الهائل هو الذي يواصل السير على طريق المعرفة والعلم ، فاذا أحجم عن طلبه ، لانه بلغ النهاية بزعمه ، فقد انتهى العلم منه ، ولم ينته هو الى شيء منه •

وفهمي هذا للعالم هو الذي خلق فيّ الصبر والاحتمال من أجل العلم وتحصيله ، وأيضا صبري على ما لاقيت في طلبه هو الذي أوحى الي بهذا الفهم ، وجراني على أن أقول : كل من ادعى العلم ، وقطع صلته بالكتاب بعد المدرسة فهو كاذب في دعواه •• ولست أعرف كلمة أصدق من قول الامام أمير المؤمنين (ع) : « اذا أعطيت العلم كلك أعطاك بعضه » • فان كلمة « كلك » تومىء الى الاستمرار في طلبه ليل نهار ، أما قوله : « قيمة كل امرىء ما يحسن » فمعناه أن يتقن معرفة ما يتصدى لمعرفته ويضطلع به ، وليس من شك أن الاتقان يستدعي اعادة النظر والبحث مرات ومرات •

وقد ثبت بالعيان أن من نظر الى مسألة ظهرت له جهة من جهاتها ، فان أعاد النظر استبانت له جهة أهم وأعظم ، فان عاود تكشفت أسرار جديدة .. وهكذا على الدوام ، الى ما لا نهاية .. وتتجلى هذه الحقيقة بأوضح معانيها في كتاب الله المعجز ، فما من آية من آياته الا وتبطن العديد من الوجوه ، وكلما بلغ المفسر منها وجها توارت عنه أوجه ، ومحال أن يستوعبها كاملة وافية .. وعلى سبيل المثال أذكر الآية ١٦٤ من البقرة : « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ــ الى قوله ــ لآيات لقوم يعقلون » . فقد أشرت في تفسيرها الى بعض عجائب السماء والارض ، واستخرجت منها الدليل على وجود الله ، تماما كما فعل غيري من المفسرين ، وتكرر مضمون الآية في سورة آل عمران والنساء والمائدة ، ولم يفتح الله علي بجديد ، حتى بلغت الآية ٤ من الانعام : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ، فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون » . واذا بي أرسم ما يلي :

اختلف المفسرون في تعيين المراد من الآية التي أعرض عنها ، واستهزأ بها المكذبون : هل هي القرآن ، أو غيره من معجزات رسول الله (ص) ، أو أن المراد بها كل ما أتى به من المعجزات ؟ .

وتنبهت ، وأنا أتابع أقوال المفسرين الى أن الآية التي نحن في صدد تفسيرها ، وما جاء في القرآن من أمثالها تتضمن معنى أهم وأجل .. انها تتضمن الدلالة على أن الاسلام يقوم على حرية العقل والرأي ، وانه لا يحق لاحد كائنا من كان أن يطلب من غيره التسليم والاذعان لاقواله تسليما أعمى ومن غير دليل ، حتى خالق الكون جلت كلمته لا يفرض على عباده الايمان به فرضا ومن غير دليل .. انه تعالى يقيم الحجة على ما يقول ، ويطلب من كل عاقل أن ينظر فيها ، ويتدبرها

بامعان ، شأنه في ذلك ، تعالى الله علوا كبيرا ، شأن كل عالم منصف ، وان بعد القياس والشبه بين الخالق والمخلوق .

وأعود الى الحديث عن القراءة والكتابة ، أو عن نفسي على الاصح ، أعود الى هذا الحديث ، وأنا أعلم ان الناس يكرهون من يحدثهم عن نفسه .. ومع ذلك فانهم يحبون الحديث عن أنفسهم ، بل ويتحدثون كثيرا عنها .. وهنا محل الغرابة .. على أن من تكلم عن نفسه فقد تكلم عن غيره أيضا ، وعلى الاقل يعطي صورة من صور الحياة ، وعلى أية حال فلست أرى بأسا بحديث الانسان عن نفسه ، على شريطة أن يتقي الله في حديثه ، ولا يدعي ما ليس فيه .. وعلى هذا الشرط أحدث : ان ما من يوم يمر علي ، لا أقرأ فيه ، ولا أكتب الا أحسست بوخز الضمير وتأنيبه ، أو كأن ينبوعا كان في داخلي فجف ماؤه ونضب .. وأنا على وفاق تام مع ضميري ونفسي يوم أقرأ وأكتب .. وفي تصوري أن كل من شغل وقته بشاغل ، أي شاغل ، ولو بقراءة « من هنا وهناك » فانه يشعر بالغبطة وراحة الضمير .

بقيت كلمة أختم بها هذه المقدمة ، وهي أني أبقيت الكلمات المجموعة في هذا الكتاب على ما كانت ، فلم أرجع اليها بالتقليم والتطعيم .. لا ثقة مني بصوابها ، ولا لكي يعرف القاريء المراحل التي مر بها تفكيري وأسلوبي ، وانما هي قضية التفسير الكاشف .. والله سبحانه المسئول أن يجد القاريء في هذه الصفحات فائدة ومتعة . وهو جل ثناؤه يهدي الى سواء السبيل ، وصلى الله على محمد وآله الطيبين .

الديــن والانسان

معنــى الديــن

ان للفظ الدين معاني شتى ، منها الحق ، قال تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » أي في حق الله جل وعلا .

ومن معاني الدين الطاعة والخضوع ، كالقول المشهور :

الدين لله ، والوطن للجميع . أي أن الخضوع والطاعة لا تجوز ولن تجوز الا لله وحده . وان الخوف يجب أن يكون من الله لا مــن سواه ، وان على كل انسان أن يعبد الله ، ولا يحق لاحد ، أو سلطة أن تمنعه وتصده عن عبادة خالقه.

ومن معاني الدين الطريقة ، كقوله تعالى :«لكم دينكم ولي دين». وقول الامام علي بن أبي طالب (ع) : العلم دين يدان به ، وقول القائل : « هذا ديني وديدني » ، أي طريقتي .

ومنها الاحكام والتعاليم والوصايا التي توجه الانسان في سلوكه وفقا لمشيئة الله ، كقوله تقدست كلماته : « ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » .. ومثل قول القائل : هذا عالم من علماء الدين . أي عارف بأحكامه ومسائله .

المعنــى الشائــع

والمعنى الشائع الذائع لكلمة الدين في تاريخ البشرية ، وعلــى

ألسنة المتكلمين ، وأقلام الكاتبين هو الالتزام والانقياد ، والالتزام حالة نفسية ، وشعور صرف لا تعرفه الحيوانات مع أنها ذات مشاعر كثيرة ... ولهذا الشعور الخاص سلطان قوي على الحركات ، ودور عظيم في تاريخ الامم .. فلقد ساقها الى الحضارات ، والى العديد من الحوادث ، بحيث يصح الرجوع الى الدين في تفسير الكثير من العادات الجارية ، والروايات المأثورة ، والآثار الخالدة .. ومن هنا كان للأمة الشهيرة المتدينة تاريخها الديني ، كما أن لها تاريخها السياسي والعلمي مع العلم بأن هذه العناصر في واقعها متشابكة متكاملة يرتبط بعضها ببعض ، وان بدت للعيان في ثوب الانفراد والاستقلال .

والدين بهذا المعنى مفهوم كلي ، وقاسم مشترك ، يشمل الاديان بكاملها من غير استثناء ، بل يشمل الالتزام والايمان بمبدأ من المبادىء نظريا أو خلقيا ، لا الهيا سماويا .

عنــد العــرف

هذا ، ولكن المألوف المعروف بين الناس قديما وحديثا أنهم لا يسمون كل انقياد دينا وتدينا .. فان انقياد الولد لوالده ، والمرءوس لرئيسه ، والايمان بمبدأ معين ، كل أولاء وما اليها ليست من الدين في شيء عند العرف ، وانما الدين عندهم وفي مفهومهم هو الانقياد والالتزام بالشيء على أنه مفروض من قوة عليا تكمن وراء هذا الكون تحاسب وتعاقب المسيء على اساءته ، وتثيب المحسن على احسانه .

الهدف مــن الدين

وليس الهدف والغاية من الاديان السماوية أن تؤمن بوجود الله وكفى ، وأن نسبح باسمه في المعابد ليس الا ، وأن نعتقد أنه الخالق الرازق ، وان له ملائكة وكتبا ورسلا فقط .. بل لا بد مع هذا الاعتقاد

أن نؤمن بالانسان وحقوق الانسان ، لان حب الله ، وحب الناس متكاملان يملأ بعضهما بعضا ، والاعتداء على حرمة الانسان اعتداء على حرمة الله بالذات ، قال الرسول الاعظم (ص) : « حرمة المؤمن من حرمة الكعبة » الا اذا اعتدى هو على حرمة غيره ، وعندها يأتي سلطان الحق الذي يعلو على كل شيء ، ولا يعلو عليه شيء .. وكاذب خداع من يدعي حب الله والايمان به ، ثم يعتدي على أخيه الانسان ، وكرامته .

ان أي عمل لا يتجاوب مع مصلحة الانسان ، وتحرره من الجهل والفقر فما هو من الدين في شيء ، وان أي عمل يستهدف شرف الانسان وسعادته فهو من الدين في الصميم ، يباركه الله وملائكته ورسله ، ومن قرأ تاريخ الانبياء في الكتب السماوية وغيرها من عهد نوح الى عهد محمد (ص) لا يجد الا ثورات انسانية من أجل تحرر الانسان من العبودية والاستغلال والتأكيد على كرامته وانسانيته .

ومن هنا كتب البقاء والخلود لمبادىء الاديان الالهية ما بقي للانسان أثر ، ولن تمحى تعاليم الاديان من سفر الوجود الا اذا سيطر الشر على الخير ، والظلم على العدل ، والجهل على العلم ، فحيث ما يكون الصدق والاخلاص والعمل الصالح المنتج يكون الله ، ويكون القرآن والتورات والانجيل ؛ وحيث ما يكون الظلم والنفاق يكون الشيطان والفساد .

ان الشيطان يدخل الجامع والكنيسة ، ويركع ويسجد فيهما ويسبح ويقدس مع المرائين الانتهازيين الذين يلبسون مسوح الدين خداعا ونفاقا ، وينحرفون به عن قصده ، ويفتعلون له تفسيرات تبرر ظلم الظالمين ، واستغلال المستغلين .. وان الله مع المخلصين الذين يعملون لخير البشر واسعاده ، وبث المحبة والاخاء بين افراده .. وان الله مع كل انسان يمنح الحياة القدرة على البقاء والنمو اينما كان ويكون ، قال

أحد العظماء : افتح عينيك ، وانظر لترى الله هاهنا •

انه هناك حيث الفلاح يحرث الارض العاتية ، وعلى طول الطريق، حيث كاسر الحجارة يجتهد في تسويتها •• انه معهما بثيابهما المعفرة ، تحت أشعة الشمس ، ووابل المطر ، أنضي معطفك النقي ، واهبط مثلهما أيضا حيث يعملان•• اذهب والزم جانب الله في جهدك وعرق جبينك•••

الاســلام

تكلمنا ــ فيما تقدم ــ عن الهدف الاساسي من الدين على وجه العموم ، وبالاصح عمـا يجب أن يهدف اليه الدين بمعناه الصحيح ، تكلمنا عن ذلك بوحي من معرفتنا بحقيقة الاسلام ، وبالاخص قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لمـا يحييكم[1] •• فدين الله والرسول هو الدعوة الى أن يحيـا الناس ، كل الناس حياة طيبة يسودها الامن والعدل والخصب •

وعلى هذا ، فكل من دعا الى هذه الحياة فانه يلتقي بدعوته هذه مع دين الله والرسول ، أراد ذلك ، أم لم يرد ، وكل من حارب هــذه الدعوة ، ووضع العراقيل في طريقها فقد حارب ديــن الله والرسول ، أراد ذلك ، أم لم يرد •• ان هذه الآية الكريمة تحدد الاسلام خالصا من كل شائبة ، تماما كما نزل على قلب محمد (ص) ، وان العمل ، أو التخطيط للعمل من أجل خير الناس ، وتدبير معاشهم ، وحل مشاكلهم المادية والمعنوية من كلمة « لا اله الا الله » التي تعني المساواة بين الناس الى تقييم الانسان على أساس العمل والاخلاص ، لا على أساس المال والجاه والنسب ، ومن التكافل الاجتماعي ومسئولية كل راع عن رعيته الى دعوة الامن والسلام ، والتقدم والرخاء ، الى ما لا نهاية •

---

(١) سورة الانفال آية ٢٣ .

موضوع الدين والمحكمة الالهية

موضـــوع الديـــن

سبق أن تكلمنا عن معنى الدين ، وما يستهدفه من كرامة الانسان وسعادته .. والآن نشير الى موضوع الدين ، والى صلته بالاخلاق والتشريع والفلسفة ، والى يوم الحساب .

واذا نظرنا الى موضوع الدين من خلال القضايا التي تعرض لها الاسلام أمكن أن نحصر موضوعه بما يلي :

اولا ـــ من الذي أوجد العالم ؟ وما هي نهايته ومصيره ؟

ثانيا ـــ كيف يجب أن يسلك الانسان في حياته العملية ؟

وماذا ينتظره بعد الموت ؟

وبهذا يتبين أن الدين يلتقي مع الفلسفة في البحث عـــن الخالق وصفاته ، وعن حدوث العالم أو قدمه .. وأيضا يلتقي مع علم الاخلاق والتشريع في البحث عن عمل الانسان ووضع المنهاج السوي الذي يجب أن يسير عليه في سلوكه .. وأيضا يلتقي الدين والاخلاق والتشريع في أن كلا منها يدعمه العقل والضمير والمصالح والمنافع ، غير أن الاخلاق والتشريع يفترقان عن الدين في أنهما لا يتعرضان الى المحكمة الالهية التي تحاسب غدا ، وتثيب وتعاقب ، أما الدين فانه يؤكد هذه المحكمة ، ويوجب الايمان بها .

أما الادلة على وجود هذه المحكمة فتتلخص بما يلي :

١ ــ ان الانسان لم يكن شيئا مذكورا ، فأوجده الله من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم جعلها عظاما ، ثم كسى العظام لحما ، وأقرها في الارحام ما يشاء ، ثم أخرجها انسانا في أحسن تقويم ، ووهبه النطق والعقل صانع المعجزات ، ومن أخرج هذا المخلوق السوي من العدم الى الوجود فأولى ثم أولى أن يقدر على اعادته ثانية ، لان من استطاع أن يبني ناطحات السحاب فأجدر به أن يبني كوخا . وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

٢ ــ ان الله سبحانه أمر الانسان بالخير والفضائل ، ونهاه عن الشر والرذائل ، ووعد الطائع بالثواب ، وتوعد العاصي بالعقاب .. وقد رأينا كثيرين يظلمون ويفسدون في الارض ، ثم يموتون ويفارقون هذه الحياة دون أن يصيبهم أي أذى ، فلو لم يكن حساب وعقاب ، ويوم يقتص فيه للمظلوم من الظالم لذهب الحق هدرا ، وكان التكليف عبثا ، ولم يكن أي فرق بين الانبياء والمصلحين وبين الاشرار والمفسدين ، بل كان الطيبون أسوأ حالا ، وأشقى مآلا ، لان أولئك سعدوا وتنعموا في هذه الحياة ، وتحمل هؤلاء من أرزائها المحن والكوارث .. وعليه يكون الشر بلا عقاب ، بل يكون لاهله السمو وعلو الدرجات ، وهذا أفحش الظلم .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .. ولو لم يكن من دليل على الايمان بالله الا أنه يأخذ كل انسان بما كسبت يداه . أن خيرا فخير ، وان شرا فشر ، لو لم يكن الا هذا لكفى .. قال أفلاطون : لو لم يكن لنا معاد نرجو فيه الخيرات لكانت الدنيا فرصة الاشرار ، وكان القرد

أفضل من الانسان •

٣ ـ لقد أودع الله في نفس الانسان من القوى والمشاعر ما سارت به في طريق التقدم والتطور ، حتى بلغ مرتبة ليس فوقها الا الخالق ، أما الحيوانات والحشرات فانها تسير في سبيل واحدة لا تحيد عنها قيد شعرة ، ولو ذهب الانسان بذهاب جسمه هذا ، ولم ينتقل الى حياة ثانية لكان مصيره كمصير النبات والحشرات ، وكان ما أودع فيه من القوى العاقلة المدركة أشبه بشرر تطاير من الزناد ثم ذهب مع الريح •

لقد حلل علماء الطبيعة جسم الانسان في مختبراتهم ، وانتهوا بعد التحليل والتجارب الى أن فيه من الدهن ما يكفي لسبع صابونات ، وفيه من الكربون ما يكفي لسبعة أقلام رصاص ، ومن الفوسفور ما يكفي لـ ١٢٠ عود ثقاب ، ومن الملوحات ما يصلح جرعة للاسهال ، ومن الحديد ما يصنع منه مسمارا متوسط الحجم ، ومن الكلس والجص ما يبيض بيت دجاج ، ومن الكبريت ما يطهر جلد كلب من البراغيث •

أهذا هـو الانسان الذي سخر الارض والشمس والقمـر في مصلحته ، وحاول أن يترك المريخ يسير وراءه وفي خدمته ؟ •• أهذا هو الانسان الذي تعلم البيان ، ونسج منه الدموع والسحر والالحان ؟ أهذا هو الانسان الذي رسم بريشته الصغيرة الحقيرة الكون بما فيه من حقائق وكفاح ، وأفراح وأتراح ؟ •• أهذا هو الانسان العجيب الذي وسع عقله كل شيء ، وما وسعه شيء الا خالقه ؟ ••

ليس الانسان انسانا ببدنه وهيكله ، فاذا قال أنا فانما يشير الى فكره وعقله ، وما هـذا الجسم الا نافذة يطل منها على الكائنات ،

ليصوغ آلات وأدوات يعبر بها الى هنائه وسعادته بأسرع من مسيرة الصوت مرات ومرات ، وسيأتي على الانسان يوم يصل فيه الى ما يريد بسرعة الضوء وانتشاره .. ومن يعش ير .

وبالتالي فمن نفى عن نفسه صنعة الابدية والخلود فقد رضي لها أن تكون مع الحشرات .. وأعجب العجائب كلها أن تقول لمن يثبت لك العظمة والخلود ، ويربأ بك عن الحضيض ، أن تقول له : كلا ، وتأبى الا أن تكون كعود ينتهي الى رماد .. « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد » ، صدق الله العظيم ، وصدق رسوله المبلغ الامين .

من هو المتدين ؟

سبق الحديث في الحلقة الاولى عن معنى الدين ، وغايته ، وفي الثانية عن موضوعه وصلتيه بالاخلاق والشريعة والفلسفة ، ونتكلم الآن عـن المتدين • وهو الذي يلتزم بأحكام دينه وتعاليمه ، تماما كالحزبي يلتزم مبادىء حزبه ، والاديب يلتزم فكرة معينة ، ويسخر الادب للدعوة لها ، وشاع اليوم في أوساط الكتاب تقسيم الاديب الى ملتزم وغير ملتزم ، مع العلم بـأن الولاء لفكرة معينة قديم بقـدم الانسان •• ومهما يكن ، فان الذي ينتمي الى الدين ينقسم الى أقسام•

الاول : أن يعيش بنفسه الدين الذي يعتنقه نظريا وعملا ، وينسجم معه في جميع أقواله وأعماله ، وهو رائده ومثله الاعلى لا يتحول عنه قبل أن يتحول عن كيانه ، لانه هو حقيقته وكيانه •• وأوضح صورة للدين متمثلا في هيئة انسان هي شخصية علي بن أبي طالب (ع) وتلميذه عمار بن ياسر الذي خاطب ربه بقوله :

« اللهم انك تعلم لو اني أعلم بأن مرضاتك في أن أضع سيفي هذا في صدري ، ثم أنحني عليه ، حتى يخرج من ظهري لفعلت » •

وهذا النوع من المؤمنين هم الائمة الهداة الذين أقامهم الله علما لعباده ، ومنارا لدينه ، ووسيلة لمرضاته ، وعروة للمتمسكين بطاعته •

النوع الثاني من أقسام المنتمي الى الدين أن يؤمن به قولا ، لا

عملا .. انه يؤمن باله .. ولكن الاله الذي يؤمن به ويعبده هو الذي يقف دائما في جانبه ، ويحقق له أهواءه وأغراضه .. أما الاله الذي لا يستجيب لشهواته ، ولا ينزل عند رغباته ، ويقف في جانب غيره ، أما هذا الاله فانه يجحده ويكفر به .. وهذا الانسان في واقعه لا يعبد الله ، وانما يعبد هواه .. ويريد الله أن يكون عبدا له ، ويأبى أن يكون هو عبدا لله جلت عظمته ، واليه أشارت هذه الآية الكريمة : « أرأيت معائشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون » .

وقال سيد الشهداء الحسين بن علي ، وسبط النبي (ص) :

« الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون » .

والتمحيص بالبلاء أن تصطدم أنانية الانسان ، وحرصه على المكاسب والمنافع الخاصة مع القضايا الانسانية والصالح العام ، فان تغلب الهوى كان عبدا له لا لله ، وان تغلب حب العدل والصالح العام فهو المؤمن المتدين حقا .. هذا هو الامتحان الحاسم ، والحد الفاصل بين من يعبد الله حقا ، وبين من يعبده على حرف .

وهذه الظاهرة ، وهي عبادة الله على حرف يعيشها اليوم أكثر الناس ، أو الكثير منهم ، يجهرون بالدين ، ويرددون أنغامه وألحانه ، وهم في واقعهم وحياتهم منصرفون عنه ، لا يقيسون وزنا الا للمنافع والارباح ومع هذا يبررون اللصوصية والاحتيال بمنطق الشرع والدين .. وكم من متجاهر بالدين ، والدين يلعنه .

النوع الثالث من المنتمي الى الدين وسط بين الاثنين بين الاول

والثاني .. انه يلتزم بالدين نظريا ، ويستوحيه في أكثر أعماله .. ولكن تتغلب عليه نفسه الامارة في بعض الاحيان ، لانه انسان يرضى ويغضب ويحب ويكره ، ويشتهي ما تستدعيه طبيعته وغرائزه ، فتجذبه اليها ، ويقترف الخطيئة لا جحودا لله ، ولا عنادا لاحكامه ، بل لان النفس قد سولت له ، فاستجاب لها ، وهو يستشعر التأنيب من ضميره ، والندم على خيبته ، وبهذا التأنيب والندم تبقى الصلة قائمة بينه وبين خالقه .. والى هذا أشارت الآية الكريمة : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم » .

وليس من شك في أن الله غفور رحيم ، ولكنه شديد العقاب لمن اعتدى على دماء الناس وأموالهم وأعراضهم .. ان الله لن يغفر أبدا للظالم ظلمه الا اذا عفا المظلوم عن حقه ، وكذا من رضي بالظلم ، أو أعان عليه ، فقد جاء في الحديث الشريف : « العامل بالظلم ، والمعين له ، والراضي به شركاء » .

ان الله غفور رحيم ما في ذلك ريب ، ولكن غفرانه جل وعلا لن يكون أبدا على حساب الغير ، كيف ، وهذا أفدح الظلم وأعظمه .. ان الله سبحانه أحرص على حقوق الناس منه على حقوقه ، .. وأحبهم اليه ، وأقربهم لديه أنفعهم الى عباده ، كما جاء في الحديث الشريف .

وبعـد ، فليس معنى المؤمن المتدين أن يكون جامدا متزمتا ، ومتعصبا حاقدا يثير الفتن والتناحرات الطائفية والحزبية ، ان المتدين حقا هو الوادع المتواضع المحب للخير البعيد عن الغي والاضغان ، الصادف عن الاهواء والشنآن ، السالك طريق المحبة والتعاون الذي رسمه وسار عليه ودعا اليه محمد والمسيح .. فلقد وصف الله سبحانه في كتابه العزيز رسوله الاكرم محمد بن عبدالله بقوله :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

وهذه الاوصاف بالذات هي أوصاف السيد المسيح التي نظمها شوقي بقوله :

عيسى سبيلك رحمة ومحبة ... في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا مراء ... هان الضعاف عليه والايتام
يا حامل الآلام عن هذا الورد ... كثرت علينا باسمك الآلام

الدين قديم بقدم الانسان

محال أن يمر الانسان بهذا الكون دون أن يشعر بحقيقته الكبرى، ودون أن يتساءل بينه وبين نفسه عن عظمته في أسراره وخفاياه • كيف صنع ؟ • والى أين ينتهي ؟ محال أن لا يحس ولا يشعر الانسان ، أي انسان بذلك الا اذا كان في طبيعته نقص وخلل •• ان هذا الاحساس والشعور جبلة متأصلة في الانسان ، يبتدىء تاريخها بتاريخه ، من غير فرق بين من آمن بالله ، وبين من أله المادة ، فلا نزاع ولا اختلاف بين الاثنين في أصل الفكرة ووجودها ، وانما النزاع والاختلاف في التعيين والتطبيق : وان السبب الذي أوجد الكون وصنعه : هل هو من نوع المادة ، أو هو فوق المادة والطبيعة ؟

فالاحساس بوجود السبب والموجب لا يحتاج الى دليل ، بل هو بديهة ومحل وفاق على انه غريزة في الانسان •• والدليل ينبغي أن يتجه الى التطبيق والتشخيص . وقد اكتشف علم الآثار كهوف العبادة في العصر الحجري ، وما هذه الكهوف وغيرها من المعابد الا من لواحق حاسة فطرية تتجه تلقائيا الى سر الكون وسببه الاول :

قال رجل للامام جعفر الصادق (ع) : أذكر لي دليلا على اثبات الخالق •

فقال له : أخبرني عن حرفتك •

قال : أنا رجل أتجر في البحر •

فقال له الامام : لو ركبت البحر ، فانكسرت السفينة ، وبقيت على لوح واحد من ألواحها ، وجاءت الرياح العاصفة : فهل تجد في قلبك تضرعا ودعاء ؟

قال الرجل : نعم .

فقال الامام : ان الهك هو الذي تضرعت له في ذلك الوقت .

وهذا الدليل كما ترى يعتمد القلب والاحساس مباشرة ودون واسطة .

وقال غاندي : ان الله هو ذاك الذي نحسه ونشعر به في قرارة أنفسنا ، وهو أقرب الينا من حبل الوريد .. ان الله موجود في كل واحد منا .

وقال « لاروس » في كتابه معجم القرن العشرين :

ان الغريزة الدينية مشتركة بين كل الاجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ، وأقربها الى الحياة الحيوانية .. وان الاهتمام بالمعنى الالهي ، وبما فوق الطبيعة هو احدى النزعات العالمية الخالدة للانسان .

وقال « رينان » في كتابه تاريخ الاديان : من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ، وأن تبطل حرية العقل والعلم ، والصناعة ، ولكن محال أن يضمحل التدين ، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر فكر الانسان في المضايق الدنيئة للحياة الارضية .

وأصحاب المذهب المادي يؤمنون بعظمة الكون وبنظامه وانسجامه ، وعجائبه وكواكبه ، وأيضا يؤمنون بسمو العقل وادراكه ، ولكنهم يقولون : ان هذا العقل والادراك في الانسان ، وهذا التنظيم والهندسة كل ذلك من افراز المادة العمياء الصماء ، تماما كما تفرز

المعدة الفضلات والقذارات .. وبديهة أن هذه العقيدة التي يعتنقها الماديون لا تعتمد العلم والتجربة ، ولا أساس لها سوى الوهم والحدس، وعليه تكون المقارنة بين تأليه المادة ، وبين تأليه غيرها مقارنة بين عقيدتين ، لا يمتان الى التجربة والعيان بسبب ، لا مقارنة بين علم يعتمد التجربة ، وعقيدة تعتمد الغيب .

وبهذا يتبين أن رد الماديين على الالهيين هو في واقعه رد على أنفسهم بالذات ، حيث أبطلوا العقيدة بالعقيدة ، والغيب بالغيب ، تماما كمن يبطل الظن بالظن ، ويقول : أنا لا أصدق فلانا فيما يقول ، لاني أظن أنه يعتمد على الظن الذي لا يغني عن الحق شيئا .

ولا أعرف أحدا أبطل أقوال الماديين بأقوى من منطق الاديب الفرنسي الشهير جان بول سارتر ، فقد رد عليهم ، وجعلهم أضحوكة لكل قارىء في أكثر مؤلفاته ، ومنها كتاب « المذهب المادي والثورة » نقتطف منه الجمل التالية ، قال فيما قال :

ان شباب اليوم ليسوا من أمرهم في راحة .. انهم لا يعترفون لانفسهم بما لهم من حق في أن يكونوا شبابا واعيا ، حتى كأن سن الشباب ليست مرحلة من مراحل الحياة ، بل ظاهرة طبقية وطفولة امتدت أكثر مما يجب أن تستد .

انهم يدورون حول أنفسهم وعيونهم مغلقة تماما كبغل الطاحون.. فينكرون وجود الله رجما بالغيب والحدس ، ثم يعترضون على المثالي ، لانه يعتمد الغيب .. ان المادي الذي يدعي أنه على يقين من مبادئه يعتمد في يقينه هذا على نفس الدليل الذي اعتمده المثالي في يقينه ، واستنكره المادي نفسه .

ان الذي يميز المادة عن غيرها انها عمياء صماء عاجزة عن أن تخلق

شيئا بذاتها •• انها مجرد قاطرة ، تحمل على ظهرها حركات ، ولكن هذه الحركات تأتيها دائما من الخارج •• ان المرء حين يقرأ أفكار الماديين يتذكر حكاية الدب الذي أراد أن يخلص صاحبه من ذبابة حطت على أنفه ، وهو نائم ، فحمل صخرة ، وهوى بها على أنف صاحبه ••

ولا أعرف شيئا أكثر ، سخرية من هذا الا قول سارتر نفسه :

ان الماديين ينكرون وجود الله والروح لا لدليل ، ولا لشيء الا لانهم يريدون تحرير الطبقة العاملة من الاستغلال ، وها أنا أعرف أن تحرير العامل أمر حسن وواجب دون أن أكون ماديا •

هل الانسان مسير أو مخير ؟

هل الانسان مسير أو مخير ؟ . وهل الشر والمعصية من الله أو من الانسان ؟

تساؤل يجول في كل خاطر ، وقد تدارس الجواب عنه الفلاسفة وعلماء الاديان منذ القديم ، حتى اليوم ، وانقسموا فيه الى فرق ، حتى أهل الدين الواحد على خلاف فيما بينهم ، فئة تقول : الانسان مغلوب على أمره ، ولا حرية له في تصرفاته . تماما كريشة في مهب الريح ، وترى فئة أخرى حرية الانسان ، وتؤكد مسئوليته في أقواله وأفعاله .

وقبل أن نجيب عن ذلك جوابا مقنعا وحاسما نمهد بما يأتي :

ان الافعال والصفات تنقسم الى نوعين : الاول منها لا يمت الى ارادة الانسان واختياره بصلة من قريب أو بعيد ، مثل الزلازل والامطار ، ومثل أوصاف الجسم من السواد والبياض . والطول والقصر ، وما الى ذلك ، وهذا النوع لا شأن فيه للانسان ، وما هو بمحل البحث والتساؤل .

النوع الثاني : الافعال الارادية التي تصدر عن الانسان بمشيئته ، كاختياره لنوع الطعام ، ولون الثياب ، وهذا النوع هو الذي وقع محلا للتساؤل ، وان الانسان فيه مسير أو مخير ؟

والثابت بالحس والوجدان أن الانسان مخير ، وأن الخير من الله

والانسان معا ، وان الشر من الانسان وحده لا من الله .. واليك هذا المثال :

رجل أعطى ولده دينارا ، وأمره أن يشتري به كتابا ينتفع به ونهاه عن لعب القمار ، لانه ضرر عليه ، فهو باعطائه الدينار لولده قد أعطاه القدرة على شراء الكتاب ، وفي الوقت نفسه أعطاه القدرة على لعب القمار أيضا ، وترك له الخيار في اختيار أحد الامرين ، فاذا اشترى الولد الكتاب ، وترك القمار نسب هذا الشراء الى الوالد ، لانه هو الذي أقدره عليه باعطائه الثمن ، وهو الذي أمره به ، ونسب أيضا شراء الكتاب الى الولد ، لانه ترك القمار مع قدرته عليه ، وآثر شراء الكتاب ، فشراء الكتاب وهو فعل الخير ينسب الى الوالد والولد معا .

أما اذا ترك الولد الكتاب ولعب بالقمار فان القمار ينسب الى الولد وحده ، حيث فعله وهو قادر على تركه ، ولا يجوز بحال أن ينسب الى الوالد ، لانه قد نهى ولده عنه ، ولم يرض به على الاطلاق .

والله سبحانه أعطى الانسان القدرة على الخير والشر معا ، وأمره بالاول ووعده بالثواب عليه ، ونهاه عن الثاني وتوعده بالعقاب على فعله فاذا فعل الانسان الخير ، نسب الى الله سبحانه بالنظر الى أنه هو الذي أعطاه القدرة عليه ومكنه منه وأمره بـه ، وينسب أيضا الى الانسان بالنظر الى أنه اختاره وفضله على فعل الشر ، وكان بامكانه أن يترك الخير ويفعل الشر ، ولكنه فضل طاعة الله على معصيته .

أما اذا فعل الانسان الشر معرضا عن حكم الله ونهيه فان الشر ينسب الى الانسان فقط ، ولا يجوز أن ينسب الى الله اطلاقا ، لان الانسان وان فعل الشر بالقدرة التي منحها الله له الا أن الله نهاه عنه ، ولم يرض بصدوره منه ، فكيف ينسب اليه شيء لم يرض به .. وبهذا

يتبين أن الخير من الله والانسان معا ، أي ينسب اليهما ، أما الشر فلا ينسب الا الى الانسان •

واذا قال قائل : لماذا أعطى الله الانسان القدرة على الشر ما دام لا يريده ، ولا يرضى به ؟

قلنا في جوابه : ان الله أعطى الانسان القدرة على الخير والشر معا ليتثبت له انسانيته ، ولو ألجاه الى الفعل قهرا عنه ، وسلب منه الاختيار لم يتصف الفعل بخير أو شر ، ولا بحق أو باطل ، ولا يبقى مبرر لتمييز الخبيث من الطيب ، ولا للثواب والعقاب ، ولا للذم والمدح ، وبهذا يكون الانسان أسوأ حالا من الحيوان •

وبكلمة أن الظلم من قول الظالم ، والكفر من فعل الكافر ، والفساد من المفسد لا من الله تعالى الذي قال : « ومن يكسب أثما فانما يكسبه على نفسه •• ان الله لا يظلم مثقال ذرة » • ومن أحسن ما قرأته في هذا الباب أن الحجاج بن يوسف أعدى أعداء علي بن أبي طالب حار في مشكلة القضاء والقدر ، ولم يجد لها حلا ، فاختار أربعة من كبار العلماء في عصره ، وهم الحسن البصري ، وعمرو بن عبيد ، وواصل ابن عطاء ، وعامر الشعبي ، وكتب الى كل منهم على حدة أن يذكر له ما عنده من العلم لحل هذه المشكلة العويصة ، وهو يرمي من وراء ذلك أن يبرر مظالمه وآثامه ، ويحمل الله سبحانه المذابح والمجازر التي ارتكبها في شيعة علي بن أبي طالب •• ولكن صدق فيه قوله تعالى : « وما يمكرون الا بأنفسهم ، وما يشعرون » • حيث كتب اليه كل واحد من الاربعة بأن الشر من الانسان ، واستشهد بقول الامام علي (ع) •

وهذا ما كتبه له الحسن البصري : ان من أحسن ما انتهى الينا ما سمعته من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حيث قال : أتظن أن الذي

نهاك دهاك ، انما دهاك أسفلك ، وأعلاك ، والله بريء من ذاك .. والمراد بأعلاه أقواله ، وبأسفله أفعاله .

وكتب اليه عمرو : أحسن ما سمعت في ذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) : لو كان الذنب محتوما كان المذنب في القصاص مظلوما .

وكتب اليه واصل : أحسن ما سمعت في ذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : أيدلك الله على الطريق ، ثم يأخذ عليك المضيق ؟

وكتب اليه الشعبي : أحسن ما جاء في ذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : كل ما استغفرت الله منه فهو منك ، وكل ما حمدت الله عليه فهو منه تعالى .

فكانت أجوبتهم هذه سهاما ترتد من يد الحجاج الى نحره . وسئل الامام الكاظم (ع) عن المعصية : هل هي من الله ، أو من الانسان ؟

فقال : لا تخلو من ثلاث : اما أن تكون من الله ، وليس من الانسان شيء . فليس لله أن يأخذ العبد بما لم يفعل . واما أن تكون من الانسان ومن الله معا ، وليس لاقوى الشريكين أن يعاقب الضعيف على ذنب هما فيه سواء . واما أن تكون المعصية من الانسان وحده ، وليس من الله شيء ، ان شاء عفا ، وان شاء عاقب ، وهذا هو المتعين عقلا وشرعا ، وقد نظم بعض الشعراء هذا المعنى بقوله :

لم تخلو أفعالنا اللاتي نذم بها — احدى ثلاث معان حين نأتيها
إمــا تفــرد بارينـــا بصنعتها — فيسقط اللوم عنا حين ننشيها
أو كان يشركنا فيهــا فيلحقه — ما سوف يلحقنا من لائم فيها
أو لم يكن لالهي في جنايتها — ذنب فما الذنب الا ذنب جانيها

النجف الاشرف

النجف لغز محير .. يدخلها واحد من الناس ، لا يعرف له أصل ولا فرع ، لا مال له ، ولا كفيل من انسان أو نظام ، ولا شغل في تجارة أو مهنة أو غير ذلك ، لا شيء على الاطلاق الا القصد الى طلب العلم .. ثم تمضي الايام واذا بهذا النكرة المعدم علم بين الاعلام .. أليس هذا في ظاهره خارقا للمعتاد ؟ .. ان النجف لا نظير لها في العالم كله — على ما أعتقد — لا نظير لها في وضعها المعقد ، وفي عيش الطالب فيها ، فأول مشكلة تواجه الطالب الغريب هي مشكلة التوافق والانسجام بينه وبين أوضاعها ، فاذا استطاع أن يصبر عليها ، ويلتحم معها أمكن أن يصل الى ما يبتغيه من طلب العلم ، والا فليرجع من حيث أتى .

يستطيع الطالب ، أي طالب ، ودون أن تعرف هويته وحقيقته ، وبلده وأسرته ، يستطيع — على أسوأ الاحتمالات — أن يحصل على الخبز الكافي ، وعلى غرفة صغيرة في المدرسة بالمجان ، وعلى استاذ عارف ناصح ، يخلص في تدريسه وتوجيهه من غير مقابل ، أما كتب الدراسة فيحصل عليها بالاعارة وبسهولة من الطلاب الذين تجاوزوها الى غيرها ، كما يوجد العديد من الكتب الموقوفة لهذه الغاية ، أما التطبيب والدواء فمشاع في العراق للفقراء والاغنياء ، وللمواطنين والغرباء .

شيء آخر يخفف على الطالب الفقير الغريب قسوة العوز ، ويعينه على المضي في الدرس ، وطلب العلم ، وهو أن أهل النجف يقدمون

لامثاله خدمة جليلة ومشكورة .. فالقصاب يعطيه اللحم ، والبقال الارز والسمن ، والبزاز القميص والقفطان ، كل هؤلاء وغيرهم من الباعة يشتري الطالب منهم الضروري لحياته بالدين ، والوفاء على تيسير الكريم الوهاب .. ولولا هذه الخدمة من النجفيين لاستحال على الكثيرين طلب العلم ، ومنهم كاتب هذه الاسطر[1] .

وقد يعجز الطالب عن الوفاء ، ويذهب حق الدائن ، وهو في أشد الحاجة اليه .. وحصل هذا بالفعل ، بل تكرر مرات ومرات .. ومع ذلك بقي النجفيون على سيرتهم الاولى ، بخاصة معنا نحن العامليين ، فان لنا ميزة عند النجفيين على جميع الطلاب المهاجرين ، وما زلت استشعر فضلهم ، وأعترف بجميلهم حامدا شاكرا مؤمنا بأن الكتب التي ألفتها ، والمقالات التي نشرتها ، والخطب التي أذعتها ان هي الا رشحة من رشحات النجف ، وكل من خرجته النجف مدين لها ولاهلها .

وأهل النجف ــ على وجه العموم ــ أذكياء ظرفاء .. لهم حس شعري ، وطبع مرهف ، وسبحية غريبة في سرعتها الى الجواب الناعم اللاسع ، والسخرية الحلوة ، وهــم أكثر الناس تسامحا في تقبلها ، وأشدهم تقديرا للنكت تعبر عن الذكاء ، وصفاء البديهة .

ومن خصائص النجف انها لا تعرف الجديد ، بل لا تريد أن تتعرف عليه لا في مــواد الدراسة ولا في أسلوبها .. فهي هــي منذ مئات السنين .. أجل ، انها تترك الطالب وارادته ، يسلك السبيل التي يريد ، لا تفرض عليه شيئا ، ولا تتدخل في شأن من شئونه .. والسر أن النجف

---

(1) كان هذا أيام زمان ، حين كنت طالبا في النجف ، أما اليوم فالطلاب يقبضون الرواتب الدائمة المنظمة من الرؤساء بالاضافة الى الخبز ، ويأتي الكثير منهم المال والافضال من اكثر من باب ، ويعيش في سعة ورخاء ، ويسكن في ملكه الخاص ، وفيه البراد والسجاد والمكيفات والطيبات .

لا تسيطر عليها جهة سياسية ، ولا هيئة معينة ، ولا شركة تجارية ، لا أحد على الاطلاق ، أما المال فمن المحسنين ، والاغنياء المؤمنين ٠

ومن خصائص النجف ، أو من فضائلها أنها لا تقيم وزنا للشهادات ترسم حبرا على ورق ، وان الوسيلة الوحيدة عندها الى معرفة الكفاءة والفضيلة هي التجربة والآثار المحسوسة الملموسة ، هـي المؤلفات ، والمطارحات العلمية ، ومقارعة الحجة بالحجة ٠٠ وأحسب أن لا يحمل أي نوع من الشهادات أكبر العلماء في النجف ٠

والله سبحانه المسئول أن لا يكون من خصائص النجف الخلط وعدم التمييز بين الناصح والكاشح ٠٠ وأقسم اني ما رأيت منتسبا الى النجف وجامعتها يعوزه الوعي والمعرفة بالدين ، بخاصة بالشريعة الا شعرت بالخسارة ، بل بالكارثة على المذهب والطائفة ، سواء أكان قد تخرج من كلية الفقه ، أو من مسجد الهندي ٠٠٠ ومهما يكن ، فان مثلي الاعلى كان ، وما زال قول الرسول الاعظم لله جل وعز : « ان لم يكن بك غضب علي فلا أبالي » ٠

ومن حسنات النجف التي يجب أن تسجل للحقيقة انها قدمت على مدى ألف عام خدمات جلى للاسلام بعامة ، وللتشيع بخاصة ، ومن هنا كان احترامها البالغ لكل عامل في هذا الميدان ، ولكل من تثق بدينه ، واخلاصه لامته ٠

أما حب الحرية والوطنية فانه يجري في قلب النجفي مع الحياة ، ولا يطيق أي شكل من أشكال الضغط والاستبداد ، وقد ثارت النجف مرات ومرات ، وضحت بالكثير من رجالها وأبنائها دفاعا عن كرامتها وحريتها ٠٠ ويكفي لسقوط أي انسان عن الاعتبار ، وعن كل حق من

حقوق الانسانية ان يهتـم بالعمالة لدولة أجنبية ، أو الميل للسلطة الحاكمة ، حتى ولو لم تثبت اداتنه •

ويتعصب النجفي لوطنه تعصبا أعمى ، ولا يعدل به الدنيا بكاملها ، وقد رأيت الكثيرين من أهل النجف يصطافون في لبنان ، ويطربون لجماله ، ويتغزلون فيه بأشعارهم ، ولكنهم في قرارة نفسهم لا يرون الكون بما فيه شيئا بالقياس الى مسقط رءوسهم ، على الرغم من محنه وآلامه •• وفي الحق أن للنجف سرا يملأ روح ساكنها بنشوة لا يستطيع تفسيرها ، ولا يعرف سببها ، وما رأيت أحدا أقام في النجف ردحا من الوقت الا واحتفظ لها بذكريات حارة ، وحب عميق ، بل وتعصب لها تعصبا أعمى •

ملاحظـــــات

كان فيما مضى عالم يجلس في مكان الصدارة ، فسأله منافس في المهنة عن شيء ؟ • قال العالم : لا أعلم • قال المنافس بزهو : لماذا ، اذن ، تجلس في هذا المكان ؟ • قال العالم : ويلك •• ان هذا المكان لمن يعلم شيئا ، ولا يعلم شيئا ، والذي يعلم كل شيء لا مكان له •

وقال أفلاطون : ان الحق لم يصبه الناس في جميع وجوهه ، ولا أخطاؤه في جميع وجوهه •

وهذه الحقيقة تنطبق على النجف وغير النجف •• وان الكثير من شيوخها وطلابها المخلصين الفاهمين يدركون ذلك ، ويعلمون أن النجف بحاجة الى اصلاح يدفع بعجلتها الى الامام •• وتجاوبا مع هؤلاء أسجل الملاحظات الآتية ، ولو كره الذين يفضلون الثناء الكاذب على كلمة الحق والصدق •

١ ــ ان النجف في حقيقتها وواقعها جامعة اسلامية لا طائفية ، عملت طوال ألف عام على خدمة الاسلام ، ونشر تعاليم القرآن والسنة النبوية ، وصانت شريعته من الجمود ، وتسلل البدع ، وما يثير الشكوك والشبهات ، وأنجبت للاسلام والمسلمين أضخم العقول ، وأغنى الافكار ••ومع هذا كله فان أكثر المسلمين ، أو الكثير منهم يظن أن النجف للشيعة والتشيع فقط ، وانها عاصمة التعصب لطائفة ضد طائفة ، ولمذهب ضد مذهب ••• بل هناك بلدان اسلامية ، ومعاهد دينية لم تسمع باسم النجف على الاطلاق ، أو تسمع باسمها ، ولا تعرف عنها كثيرا ولا قليلا •• والسر هو عزلة النجف ، والتزامها الصمت ، وانطواؤها على نفسها ، وعدم التعبير عنها بأية وسيلة من وسائل الدعاية والنشر ، فلا اذاعة تهتم بشأنها ، ولا صحيفة واسعة الانتشار ، أو بعثات تجوب الاقطار ، تتحدث عنها ، وتكشف عن مهمتها وتعرف الناس بحقيقتها وأعمالها ، مع العلم بأن الدعاية للنجف دعاية للاسلام ، وان الاموال متوفرة أو يمكن أن تتوفر لهذه الغاية[1] •

٢ ــ ليس للرئاسة تخطيط معروف ، ونظام معين يلتزمه رئيس الحوزة والمرجع الاول ، فكل من يتولى الرئاسة له نظام مستقل قائم بنفسه •• وبالاصح النظام هو الخليط من الحواشي والمستشارين ، ومنهم طلاب عيش لا طلاب علم ، ولا دعاة مبدأ •• وهمهم الاول والاخير أن يتسابقوا بين يدي الرئيس ومن خلفه ، ويتظاهروا بالزهد والقداسة لخداعه ، والفوز بثقته التي تملأ جيوبهم ، و « تفرفح » قلوبهم ••

---

(١) من غرائب الصدف اني بعد ان انتهيت من كتابة هذه الكلمات اتصل بي المشرفون على التلفزيون فنال ١١ ، ورغبوا الي ان اسجل ٦ حلقات ، تستغرق الواحدة ١٠ دقائق ، فاشترطت أن يكون لي اختيار الموضوع ، وبعد الموافقة قلت : لا عذر مع هذه الفرصة ، وتحدثت عن النجف الاشرف في حلقة خاصة .

٣ ــ تأتي النجف أموال طائلة من بلدان الشيعة باسم الاخماس والزكوات ، فيستقل الرئيس بالتصرف فيها ، لا يسأله أحد : كم هي ؟ . ولا أين هي ؟ . ولسنا نشك في نزاهته وأمانته ، ولا في مقدرته وكفاءته في القاء الدروس ، وحل المشكلات العلمية ، وصواب الاجوبة عــن المسائل الدينية التي تتوارد عليه ليل نهار ، ولكن العدالة والكفاءة العلمية شيء ، والتنظيم والادارة شيء آخر .. ان الفرق بينهما تماما كالفرق بين السلطة القضائية ، وبين القوى التي تحافظ على الامن .. ان العالم ينشر العلم ، ويغرس في نفوس تلاميذه ملكة الاجتهاد ، ويمرن عقولهم على التمحيص والتحقيق ، أما الادارة والتنظيم ، والاجراءات التـــي تستدعيها الظروف والمناسبات ، وتدعيم الجامعة في الداخل والخارج ، أما هذه وما اليها فيوكل أمرها الى العارفين بها ، والقادرين عليها .. وبديهة أنه لا ترابط بين الاثنين ..

أجل ، ان هذا لا يمنع أبدا أن يختار الرئيس الاكفاء لهذه المهمة ، ينفذونها بدقة وأمانة ، ويقدمون له الحساب عما يقومون به من أعمال ، وينصرف هو للتدريس والفتيا.. حتى ولو كان له الخبرة التامة بالادارة والتنظيم فانه أعجز من أن يقوم بالمهمتين معا : التدريس وادارة الجامعة التي تضم الالوف من الاساتذة والطلاب .

٤ ــ يترك الطالب وشأنه .. يدرس ما يشاء ، ويحضر أية حلقة يشاء .. لا امتحان ولا رقيب ولا شيء على الاطلاق .. ومن هنا كثرت الدعاوي الكاذبة ، والالقاب الفارغة ، وارتدى هذا الثوب من لا يمت اليه بسبب أو نسب .

هذه ملاحظات سريعة أشرت اليها بالمناسبة .. وقد رغب الي أكثر من واحد مـــن أهل الفضل والوعي والاخلاص أن أضع كتابا خاصا أتحدث فيه عن أوضاع النجف ، والسبيل التي تحررها من التقاليد

الموروثة جيلا عن جيل ، وحجتهم بأن مثل هذا الكتاب ان لم يأت أكله في العاجل فسيكون له أحسن الاثر في الآجل .. وسأحاول ، وعلى الله التوفيق ، مع علمي بأن مثل هذا الكتاب يثير ضجة الذين سمموا أهواء النجف ، وعكروا صفوها .. ولكني على المبدأ المعروف ، لا أهتم بالقيل والقال ما دمت على يقين من أمري ، وثقة بأني أخلص تلامذة النجف للنجف ، وأبر أبنائها ، وأقصى امنيتي أن تكون دائما في طليعة الركب .. كيف ولولاها لم أكن شيئا مذكورا .

علـوم النجـف

يخطيء أفحش الخطأ من يظن أن علوم النجف غيبية بحت ، تبتعد بالطالب عن واقع الحياة .. ان النجف تدرس العلوم العربية بشتى فروعها وأقسامها .. وبديهة أن هذه العلوم من الحياة في الصميم ، ولها دورها الفعال في التفاهم بين البلدان والاقطار التي تتكلم بهذه اللغة ، وربط بعضها ببعض .. بالاضافة الى انها الوسيلة الوحيدة الى معرفة التراث الضخم الذي تركه العرب والمسلمون في شتى الميادين .

وأيضا تدرس النجف المنطق والفلسفة وعلم التوحيد ، وفي هذه العلوم يبرز الجهد العقلي بأوضح وأكمل معانيه ، ومن هنا كان اهتمام الجامعات العلمانية والدينية بها على السواء .

أما علم الاصول فانه يتصل بالعلوم العربية ، وبالمنطق والفلسفة أوثق اتصال .. فهو يبحث عن مداليل صيغ الالفاظ وهيئاتها ، كالامر والنهي والعموم ، وما اليه ، يبحث عنها بما هي ، وبصرف النظر عن ورودها في الشرع أو غيره ، كما يبحث عن حكم العقل بقبح الشيء أو حسنه بما هو .. هـذا ، الى أن علم الاصول هو العنصر الهندسي للفقـه .

أما علم الفقه فان به تستخرج الاحكام من مظانها لجميع ما تتطلبه الحياة العامة والخاصة ، ومحال أن ينتظم المجتمع بدون هذا العلم .. ومن هنــا أنشئت له مجالس التشريع ، وخصصت لتدريسه كليات الحقوق والقانون .

وبهذا يتبين أن العلوم النجفية لا غنى عنها بحال ، ولو ابتعدت بالطالب عن الحياة لمــا احتل علماؤها الكبار مكان العظمة في تاريخ الانسـانية .

الامام علــي*

ان قوام الحياة بالحقوق والواجبات ، والحق مـا كان لـك ، والواجب ما كان عليك ، وسعادة الانسانية بتفهم الحقوق والواجبات معا ، والوقوف عند حدودها ، فلا يطالب الانسان بأكثر من حقه ، ولا يقصر في واجبـه •• وتنشأ مشاكل الانسانية مـن جهـل الحقوق والواجبات ، أو تجاهلها ، فما مـن مشكلة اجتماعية ، الا وسببهـا اغتصاب حـق ، أو اهمال واجب •• وبين الحقوق والواجبات تلازم وترابط ، فمن أغفل ما عليه من واجب فقد أسقط ما له من حق •

والواجبات لا تعد واحدا من ثلاثة : واجب لانسان اتجاه نفسه ، وواجبه اتجاه خالقه . وواجبه اتجاه غيره •• والاول واجب شخصي ، والثاني الهي ، والثالث اجتماعي ، وبين هذه الواجبات الثلاثة تشابك وصلات فمن لم يؤد الواجب نحو نفسه فلن يؤديه نحو غيره •

ثم ان الواجب الاجتماعي يتفرع الى شعب وأهمها جميعا العمل في سبيل الصالح العام ، فانه خير الطرق وأفضلها الى الله سبحانه ، قال رسول الله (ص) : خير الناس أنفع الناس للناس ، وشر الناس من تخاف الناس من شره •

ومن أبرز معاني الخير والصالح العام هذا الجامع لانه لله ، لا للعلويين ، وكل ما كان لله فهو للجميع •• أجل ، لقد بناه العلويون من

* تليت في احتفال أقيم بجامع العلويين بمناسبة مولد الامام (ع) .

أموالهم ، ولكن بنوه لله لا تعصبا ضد طائفة من الطوائف ، ولا مضاهاة لجامع أو كنيسة ، ولا تحزبا ضد فئة سياسية أو غير سياسية ، ولا ليتخذ منه حانوتا من يلبس أثواب القديسين ، ويفعل فعل الشياطين ، أسسوه ، وضحوا في سبيله مقتطعين لقمة العيش عن أنفسهم وأطفالهم لا لشيء الا ليذكر فيه اسم الله ، ويجتمع فيه أهل التوحيد على اختلاف أسمائهم ، يعظمون شعائر الله بالصلوات ، وتلاوة القرآن وتعليم الاحكام ، والاحتفال بمن تسترشد الاجيال بسيرتهم ، وتهتدي بنور هدايتهم ، وبالمناداة من على المآذن بكلمة « لا اله الا الله محمد رسول الله » التي نجتمع تحت لوائها ، ونستمسك جميعها بعروتها ، ونلبي دعوتها ، ونعتصم بكتابها وسنتها ، وتجعل منا كتلة واحدة متراصة لا تفرق بين علوي وشيعي وسني ، وتستوجب لكل من هذا وذاك حقا لازما في عنق أخيه ، ومن استخف بهذا الحق فقد استخف بكلمة الاسلام ، ودعوة القرآن .

أيها المسلمون ، أيها الطرابلسيون من سنة وعلوية وشيعة ان هذه الاسماء ما هي الا ألفاظ مترادفة تعبر عن شخص واحد يؤمن ويوقن بلا اله الا الله محمد رسول الله ، ويضحي في سبيل اعلائها وانتشارها والذود عنها بنفسه وماله وأسرته وعياله .. ومن لا يرى في كلمة التوحيد توحيدا وجامعا وأخوة في الدين فما هو من الدين في شيء .. ان من يقول لمن نطق بلا اله الا الله محمد رسول الله وأعلنها من المآذن ، ان من يقول لهذا بلسان الحال ، أو المقال : لست بأخي في الدين فقد اعترف بنفسه على نفسه من حيث يريد أو لا يريد أنه ليس بمسلم ، ولا هو من الاسلام في شيء .

ورب جاهل يقول : أجل ، ولكنهم يقولون : حي على خير العمل .

ونجيب ان حي على خير العمل ترادف الصلاة خير من النوم ، حيث

تعبر كل منهما عن فضل الصلاة وعظمتها .. أجل ، فرق واحد بين الجملتين : هو أن حي على خير العمل تصدق وتنطبق على الصلاة والصوم والزكاة والجهاد في سبيل الله ، تصدق وتنطبق حتى على خطاب فضيلة الشيخ ..

أما الصلاة خير من النوم فانها تصدق على نوم الكسالى والمخنثين، أما نوم علي على فراش رسول الله (ص) ليلة الهجرة فانه خير من ألف صلاة وصلاة .. ولو أن عليا رفض المبيت على الفراش ، وأحيا ليلة الهجرة راكعا وساجدا لما كانت له هذه المنزلة ، ولما كان أهلا بهذا الاحتفال ولا بغيره .. بل ولما كان للصلاة ولا للمساجد والمعابد عين ولا أثر ، ولما عبد الله حق عبادته على الاطلاق ، لان عبادة الله وكلمة لا اله الا الله ترتبط بهجرة محمد وحياته ، وهجرته ترتبط بالمبيت على الفراش ، ومن أجل هذا وحده أقدم على الموت راضيا مختارا .

حين طلب النبي (ص) من الامام المبيت على فراشه لم يفكر بالموت وبالسيوف تتلامع فوق رأسه ، وهو أعزل من كل سلاح ، وانما فكر مهتما بحياة الرسول ، وانجاح رسالته ، وانتصار دعوته فأجابه قائلا : أتسلم أنت يا رسول الله اذا أنا بت على فراشك ؟ قال النبي : أجل ، قال علي : مرحبا بالموت .. وعندها سلمه الودائع ، وكلفه أن يبقى بمكة ، حتى يردها الى أهلها ، ثم يلحق به الى يثرب ..

هذا هو شعار علي في حياته وجميع مواقفه في بدر واحد وخيبر وحنين والاحزاب وغيرها ، هذا هو شعار علي : مرحبا بالموت من أجل محمد ورسالة محمد .. واذا دل المبيت على التضحية والفداء في سبيل الاسلام فانه في الوقت نفسه رمز عميق الدلالة على أن عليا امتداد واستمرار لرسول الله (ص) وعلى الانصهار والوحدة بين الاثنين التي عبر عنها الرسول بقوله : علي مني ، وأنا من علي ، أما اختيار علي لرد

الودائع الى أهلها ففيه دلالة واضحة على أنه أهل لامانة الله وخلافة رسول الله •

وليس مبيت علي وحده يرمز الى هذا الامتداد فان حياته من بدايتها الى نهايتها ترمز وتشير الى أن عليا من محمد ، ومحمدا من علي ، ولد علي يوم الجمعة في الكعبة المشرفة تعبيرا على أنه من هذا البيت في الصميم ، وانــه خلق للذود عنه ، وعــن كتابه ونبيه ، ومــن أعجب المصادفات أن يولد علي يوم الجمعة في بيت الله على هيئة الساجد لله . وأن يستشهد أيضا يوم الجمعة في بيت الله ، وهو ساجد لله •• ان هنالك لسر وأي سر •• انه سر الهي دعامحمدا أن يختار عليا لاخوته بأمر الله من دون أصحابه أجمعين ، كما اختار الله محمدا لرسالته من دون الناس أجمعين •

واذا ولد علي في بيت الله ساجدا لله ، واستشهد في بيت الله ساجدا فان هذا الجامع ، وكل جامع أسس على التقوى لجدير بأن يسمى جامع علي بن أبي طالب ، وأن يحتفل فيه بمولده ، وما الاحتفال بمولد علي الا احتفال بمولد الرسول الاعظم (ص) الذي قال : يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي •

وبعد ، فلن أبلغ الغاية التي قصدت اليها من مولد الامام مهما أطلت الحديث ، فأقف هنا ، وعند هذا الحد . لاعود مرة ثانية الى هذا الجامع مغتبطا شاكرا •

قبل ثلاثة أعوام دعيت الى هنا للكلام عن الامام فلبيت وتكلمت ، ثم وجهت عتابا مرا للسادة العلويين ، لعدم اهتمامهم بايجاد جامع أسوة بمن فعل الخير لوجه الخير •• واذا كان خير القول ما نفع فان الفضل للذين « يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك هداهم الله وأولئك هم أولى الالباب » •

ومن هذا القول الاحسن أو الحسن أن نرجو الرابطة الخيرية الاسلامية العلوية أن تبقع على ما هي من مساندة فضيلة امام الجامع والاخذ بيده ليتابع مهمة الامامة والتدريس ..

ان هذا الجامع ، وكل جامع ان هو الا مجموعة من أحجار لا حياة فيها تشغل خيزا من الارض .. واذا كان لكل شيء روح فان روح الجامع بامامه ومدرسه ، فالجامع بلا امام ليس بشيء ، والشيخ بلا جامع وتدريس ليس بشيء ، وكل منهما جزء متمم للآخر ، وقد اخبرني العلامة الشيخ عبدالله نعمة آن امام الجماعة يقوم بالمهمة الدينية في هذا الجامع ، وان وجوده ينفع المؤمنين ، وان الفضل في بقائه بطرابلس يعود الى الرابطة ، ولولاها لم يستطع صبرا على البقاء .. ولا غرابة فلولاه أيضا لما أتت جهودهم ثمارها . ولما ازدان الجامع بالجمعة والجماعة والتدريس وبث أحكام الله سبحانه .. فشكرا له ولهم .. وكان الله في عون الجميع .

نكبة ـ ٥ ـ حزيران

في سنة ١٣٨٧ هـ دعاني أهـل البحرين لالقاء محاضرات دينية بمناسبة شهر رمضان المبارك ، ومكثت عندهم حوالي ٢٥ يوما ألقيت خلالها عشرين محاضرة ، وكان الشباب يوجهون الي العديد من الاسئلة المتنوعة ، وفي ذات يوم جاءني وفد منهم ، وقالوا : حدثنا عن أسباب نكسة ٥ حزيران من غير الوجهة الدينية .

قلت : لا فرق بين العلم والدين في نظرته الى القوانين والسنن التي تحكم الحياة ، فان مشيئة الله سبحانه في خلقه وعباده تسير على سنن علمية مستقيمة ، وأسباب مطردة ، لا تختلف باختلاف المؤمنين أو الكافرين .. فالعارف بفن السباحة ـ مثلا ـ يعوم ويصل الى شاطيء الامان ، ولو كان كافرا ، والجاهل بالسباحة يرسب ، ويكون عرضة للهلاك ، ولو كان مؤمنا .. ومن زرع حصد ، ومن لم يزرع لم يحصد ، والايمان لا ينبت قمحا ، والكفر لا ينبت شوكا في هذه الحياة. وكذلك من أعد العدة لعدوه واحتاط له ظفر به ، وان كان ملحدا ، اذا لم يكن الطرف الآخر على حذر واستعداد ، ومن تقاعس وأهمل خسر ، وان كان من الاولياء والصديقين ، قال تعالى مخاطبا أصحاب الرسول (ص) بالآية ٤٨ من الانفال : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين » . وقال الامام علي (ع) : « ان هؤلاء ـ يشير الى أصحاب معاوية ـ قد انتصروا باجماعهم على باطلهم، وخذلتم ـ الخطاب لاصحابه ـ بتفرقكم عن حقكم » . اذن ، الحق لا

ينتصر لمجرد انه حق ، والباطل لا يخذل لمجرد انه باطل ، بل هناك سنن في هذه الحياة تسير المجتمع وتتحكم به ، والله سبحانه لا يسقطها ويعطل سيرها ، تماما كما هو شأنه في سنن الطبيعة ، ان الله سبحانه قد خلق الحياة ، وجعل لها قوانين تحكمها ، وتأبى هذه القوانين أن تمطر السماء نصرا على غير العاملين له .

وعليه ، فلا عجب أن تغتال الصهيونية جزءا من أرضنا بمعونة الاستعمار ، ما دمنا في غفلة عنها وعن مقاصد أعوانها متقسمين الى دويلات لا جامع بينها الا لفظ العرب والعربية ..

أجل ، قد تكون الجولة الاولى للباطل ، ولكن العاقبة لمن صبر واتقى ، لان الباطل مهما استمد وتحصن فانه يفقد القوى والصفات التي تؤهله للبقاء والاستمرار . فهو دائما عرضة للزوال .. ففي اية لحظة يجد الحق أنصارا يؤمنون به ، ويضحون من أجله لا يلبث الباطل أن يزول ويضمحل .

والذي يبعث على التفاؤل أن العرب لم يستسلموا للامر الواقع ، بل اتخذوا من المحنة والهزيمة دافعا الى مزيد من الصلابة والتصميم .. لقد ظن الاستعمار أن طول الطريق يضعف العرب ، وان احتلال أرضهم يلجئهم الى الخضوع ، ثم ظهر له أنه خاطيء في ظنه ، وانه لا شيء في حساب العرب الا الصبر والكفاح طويلا كان الطريق أو قصيرا ، يسيرا ، كان أو عسيرا . وكم من هزيمة تحولت الى نصر ، ونصر تحول الى هزيمة ؟ .

وتسأل : قلت : ان مشيئة الله تجري على القوانين والسنن المعروفة، مع أنه سبحانه قد أهلك قوم نوح بالطوفان ، وقوم هود بريح عاتية ، وأمطر أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، وجعل عالي مدائن لوط

سافلها ، لا لشيء الا لمجرد العصيان ومخالفة الحق ، كما جاء في كتابه العزيز .

الجواب : ان الحكمة الالهية اقتضت استثناء تلك الموارد الجزئية الخاصة على يد من سبق من الانبياء ، ولم تتكرر وتطرد في جميع الكفار والعصاة ، فالقياس عليها قياس على الفرد النادر .

سؤال ثان : لماذا لا ينتصر الحق على كل حال ، ما دام الله مريدا له ولاهله ، كارها الباطل وأتباعه ؟ .

الجواب : أولا لو انتصر الحق على كل حال لاتبعه الناس . كل الناس رغبة في النصر لاحبابه ، وكرها بالباطل ، ولتعذر التمييز بين الخبيث الذي يتبع الحق بقصد المنفعة والاتجار ، وبين الطيب الذي يتبع الحق لوجه الحق ، ويتحمل في سبيله المحن والشدائد .

ثانيا : لو سلط الله المحنة على المبطنين أبدا ودائما ، وأبعدها عن المحقين كذلك لبطل التكليف ، والثواب والعقاب ، لان أتباع الحق ، والحال هذه ، يكون بالقهر والغلبة ، لا بالارادة والاختيار .

ان محمدا (ص) خير خلق الله على الاطلاق ، ومع هذا جرح في جبهته بضربة حجر يوم أحد ، وكسرت له سن في فكه الاسفل ، وأصيب بضربة في منكبه الايمن ، وخدشت ركبتاه ، وانشقت شفته السفلى ، وانهزم جيشه ، ولو سأل ربه لجعل أيامه كلها نصرا .. ولكن شاءت ارادة الله أن يمتحن عباده بالسراء والضراء ، بالنصر والهزيمة ، ليتخذوا من المحنة درسا وعظة ، ويعدوا العدة للنصر ، تماما كما فعل خاتم المرسلين .

درس مـن التاريخ :

اوجه الشبه بين معركة الاحزاب ومعركة ٥ يونيو

اذا رجعنا الى تاريخ العرب والمسلمين رأينا أنهم تلقوا هزائم وكوارث أشد وأقسى من محنة ٥ حزيران ، ولكن النصر في النهاية كان لهم على أعدائهم الغزاة ، وهذا هو شأن تاريخ الامم والشعوب ، وليس تاريخ العرب فحسب ، والحرب العالمية الثانية من أبرز الشواهد على ذلك ، وأصدقها .

ونذكر من تاريخنا معركة الاحزاب ، وتكتل المشركين بمعونة اليهود ضد المسلمين ، واعتداءهم على المدينة المنوره سنة ٥ هجرية ، فان هذه المعركة تشبه الى حد بعيد اعتداء اسرائيل بمعونة الاستعمار على الارض العربية يوم ٥ حزيران .

تألبت قبائل العرب بتحريض من اليهود ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألفوا جيشا ضخما سمي بجيش الاحزاب .. وحفر المسلمون ـ باشارة من سلمان الفارسي ـ خندقا يحيط بالمدينة من ناحية الساحل ، وكان هدف الاحزاب القضاء على الدين الجديد ، دين محمد بن عبدالله ، لانه دين العدل والحرية والمساواة ، ودفع الاستعمار باسرائيل الى الاعتداء على بلاد العرب للقضاء على الحركات التحررية ، وارغامهم على التبعية والعبودية .

وأقبلت الاحزاب المتظاهرة في جمعها الغفير بقيادة أبي سفيان ،

لغزو المدينة ، ولما رأوا الخندق عسكروا الى جانبه بعد أن عجزوا عن اقتحامه وتجاوزه •• ورابط المسلمون على الجانب الآخر ، تماما كما عسكر الجيش الاسرائيلي بقيادة موشي ديان على الضفة الشرقية من قناة السويس ، والمصريون على الضفة الغربية منها •

وأخذ المشركون يرمون المسلمون بالسهام والحجارة عبر الخندق ، تشفيا لحقدهم وعجزهم عن اقتحام الخندق ، وأجابهم المسلمون بالمثل •• وهكذا فعلت اسرائيل ، أطلقت مدافعها على النساء والاطفال في بور سعيد والاسماعيلية ، وأسكتتها المدافع المصرية •

وأبعد المسلمون يوم الاحزاب النساء والاطفال عن مرمى نبال المشركين •• وأبعد المصريون أيضا النساء والاطفال عن مدافع الاسرائيليين •

ووهن ضعاف النفوس من المسلمين يوم الاحزاب ، وخارت قواهم، وارتابوا أو كادوا ، بدينهم ونبيهم ، حتى أنزل الله فيهم : « واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » •• وهذا بعينه ما حدث لجماعة من العرب يوم ٥ حزيران ، فانهارت منهم الاعصاب وتزعزع منهم الايمان •

وتندر مرضى القلوب يوم الاحزاب ، وقالوا : كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ، واليوم لا يأمن أحدنا أن يخرج الى الغائط •• وقال أمثال هؤلاء من العرب كنا موعدين بتل أبيب •• واليوم تحتل اسرائيل جزءا كبيرا من أرضنا •

واقتحم « عمرو بن ود » مكانا ضيقا من الخندق ، وتجاوزه الى الضفة التي يرابط فيها المسلمون ، وكان الفارس الاول في جيش الاحزاب وعليه اعتمادهم في النصر ، فقتله الامام علي بن أبي طالب ،

فعادت السكينة الى قلوب المؤمنين ، وفرحوا فرحا عظيما •• واقتحمت « ايلات » المياه الاقليمية ، وهي أقوى مدمرة لاسرائيل ، فحطمتها وأغرقتها الصواريخ المصرية ، فذهبت هيبـة اليهـود ، وارتفعت معنويات العرب • وفرحوا فرحا عظيما • تماما كما فرح المسلمون يوم الاحزاب بقتل عمرو بن ود •

ولما طال الحصار على أبي سفيان وجيشه من غير جدوى ارتحلوا عن المدينة مرغمين وانفك الحصار عن المسلمين ، وهتف الرسول الاعظم يقـول :

« لا اله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الاحزاب وحده •• فلا شيء بعده » •

وستكون نتيجة موشي ديان تماما كنتيجة أبي سفيان لا محالة •• وكل آت قريب •

وبعد •• فان كلا من معركة أبي سفيان يوم الاحزاب ومعركة موشي ديان عن ٥ حزيران كانت معركة ايمان ومبادىء •• وبديهة أن الايمان لا يقضى عليه بالنار والحديد ، ولا وسيلة للانتصار عليه الا بالدعاية وحرب الاعصاب •• ومن هنا تهتم اسرائيل باحتلال نفوسنا أكثر من همها باحتلال أرضنا ، وتخاف من صمودنا أكثر مما تخاف من تسلحنا بالذرة والصاروخ •• وانا مصممون على استرداد حقنا ، مهما كان الثمن •

متى نقرا كتاب :

النجف في ألف عام ؟ *

قلت لصاحبي : آلا تكتب مقالا لمجلة « النجف » وأجرك على الله .

قال : اقترح الموضوع .

قلت : في فلاسفة الشيعة .

قال : الموضوع صعب .

قلت : في المقارنة بين من خرجتهم النجف بالامس ، ومن خرجتهم اليوم .

قال : الموضوع شائك .

قلت : في أعلام المؤلفين الشيعة .

قال : سأحاول .

وعلى هذا تفارقنا . ولكن بقيت أفكر في الموضوع الاول . قلت بيني وبين نفسي : ان في النجف الاشرف علماء في الفلسفة ، كما فيها علماء في الفقه وأصوله ، فلماذا لا يكتبون في هذا الموضوع ؟ ! لماذا لا يثبتون بالارقام للعالم كله أن للمسلمين فلسفة مستقلة عن كل فلسفة ، وانهم مؤسسون لا ناقلون عن اليونان ، وان الفرق بين الفلسفة اليونانية وبين الفلسفة الاسلامية كالفرق بين المركب الشراعي وبين المركب

---

* نشرت في مجلة النجف العراقية عدد ٢٥ شباط ٥٧ .

البخاري ، وكالفرق بين الكوخ وبين ناطحات السحاب .

فهل تتحقق أمنيتي هذه ؟ هل يكلف صاحب مجلة « النجف » الاكفاء ليكتبوا في هذا الموضوع ؟ هل أقرأ في الاعداد المقبلة مقالا أو أكثر بهذا العنوان ؟ .

أما الموضوع الثاني فهو بالحقيقة بحث في تاريخ النجف الاشرف ، وبالاصح في تطورها وتقدمها أو جمودها وتأخرها ولا أخفي القارىء اني منذ سنوات ، وأنا أحاول الكتابة في هذا الموضوع ، ولكني لم أوفق وبالتالي يئست ، وليأسي قصة ، فيها ألف غصة وغصة .

القصـة والغصـة

منذ شهور مضت قرأت كتابا بقطع العرفان يقرب مـن مئتي صفحة ، للاستاذ محمد عبد المنعم خفاجي ، واسم الكتاب « الازهر في ألف عام » وهو المجلد الاول ، واليك بعض مواضيعه .

تأسيس الازهر وبدء حياته الجامعية . قوانين الازهر . الازهر والحركة العلمية . الازهر وتاريخنا القومي . جهاد الازهر .

القوة الشعبية في الازهر .. تحديد اختصاص مشيخة الازهر . بعثا ت الازهر الى أوربا . الاعتراف بشهادة الازهر . الازهر يغذي الثورات ، وما الى ذلك .

أما الغصة فيشاركني فيها الكثير ، ثم أين المصادر لهذه المواضيع ؟ وأين قانون جامعة النجف ، وتحديد اختصاص المرجع الاعلى وأين الدولة أو الجامعة التي تعترف بشهادة النجف ؟ !(١)

ولكن نحن في النجف ندرس قاعدة الميسـور ، وباب الاجزاء ، أي

---

(١) أدخلتها في قانون المحاكم الشرعية في لبنان ، وحصرت التعيين في خريجي النجف بعد أن كان مباحا للجميع .

الاكتفاء بالبدل الاضطراري عن المطلوب الواقعي ، فلماذا لا نطبق ذلك عمليا ؟ ! فنكتب في مجلة النجف نفسها مقالا بعنوان البعثات النجفية الى البلاد الاسلامية ، وأثر النجف في الثورات التحريرية ، واللغة العربية ، والشريعة الاسلامية ، وعن القوة الشعبية للنجف ، ولا أظن أن بلدا في الشرق والغرب يشارك النجف في هذه القوة ، لماذا لا نكتب في الشهادات العلمية وتسامح بعض السادة الاعلام فيها .

قصة ثانية دونها كل غصة

في سنة ١٩٥٤ أعلنت وزارة العدلية في لبنان أنها ستجري امتحانا للمرشحين لمنصب القضاء الجعفري ، ويشترط في المرشح أن يكون حائزا على شهادة الدروس الدينية العليا من جامعة النجف . وتقدم المرشحون بشهاداتهم ، وفيهم الغث والسمين ، ولما اطلع مدير العدلية على بعض الشهادات استغرب الامر ، لانه على علم اليقين من عدم كفاءة بعض المرشحين ، فقال لي في دهشة وذهول : ما هذا ؟ ! ألا ترون معي أنه يجب أن نقرأ « الزيارة المفجعة » ولكن بالرغم من هذه الحجة الدامغة أجبته مكابرا ومغالطا ، نعم مكابرا ومغالطا ، ولكن ما الحيلة ولا سبيل الا المكابرة والمغالطة ، أجبته اني أعرف الكثير من حاملي الشهادات العليا « الدكتوراه والليسانس » المتخرجين من جامعات أوربا وغيرها ، وهم أجهل من أمي ، فلتكن هذه من تلك ، وليكن الاعتماد على الامتحان ، وهل تعين الحكومة قاضيا مدنيا بمجرد الشهادة وبدون امتحان .

قال : أجل ، عند الامتحان يكرم المرء أو يهان .

وبالتالي ، فهل يقدر الله أن نقرأ في القريب العاجل ، وفي مجلة « النجف » بالذات بحوثا تكون مصدرا لمن يريد أن يؤلف كتاب (النجف) في ألف عام ؟ !

حول زعماء الدين والدنيا*

كل منا يريد أن لا تخدعه نفسه ، ولا يجيز لاحد أن يخدعه ، ويود من صميم قلبه أن يكون واقعيا في جميع أموره وشؤونه ... ولكن كيف تتحقق هذه الامنية لمن سيره الجهل والغرور ، والهوى والانانية ولا يرى الا نفسه ومشاكله ، والا همومه وأولاده .

ان السبيل الوحيد الى هـذه الامنية أن ينقد الانسان ذاته ، ويصحح أخطاءه ، وينظر الى الحقيقة والجوهر ، لا الى الشكل والمظهر ، فـلا تخدعه الالقاب والكلمات البراقة ، كسماحة الشيخ ، وسيادة المطران ، وعطوفة الرئيس ودولة الرئيس : وما الى هذه مما تداولتها ألسن المتكلمين ، وأقلام الكاتبين .

لقد تهافت الكثيرون على الالقاب الدينية والزمنية ، وعملوا لها بكل سبيل ، وأدعاها الدخيل قبل الاصيل ، حتى التبست الحقيقة على أهل الظاهر ، ولم يميزوا بين الدعي وغير الدعي ، ولا بين معاوية وعلي ، ولا وسيلة للخلاص من دنس الدخلاء والادعياء الا أن ينتشر الوعي ، ويعرف الناس كل الناس معاني الكلمات التي ينطقونها ، ويسمعونها ، ويحددون مفاهيمها أو تحدد لهم تحديدا صحيحا دقيقا .

وبديهة أن معنى لفظ الشيخ والخوري ، ومـن اليهما يرتبط ارتباطا وثيقا بالدين ، ولا ينفصل عنه بحال ، وعلى أساسه يوصف

---

* ألقيت في حفلة تأبينية للعالم العامل المرحوم الشيخ حبيب ابراهيم .

ويعرف ، والدين كما هو في حقيقته ليس عمة ولا قلنسوة ، ولا صليبا ولا هلالا ، وانما هو قوة عليا منزهة عن الجهل والهوى • تخاطب الانسان ، وتقول له صراحة : ليست المادة كل شيء ، ولا تفرض نفسها على كل شيء •• انها مجرد فصل من كتاب ضل من لا يعرف غيره ، كما ضل من لا يعرفه •• ان وراء هذه المادة العمياء الصماء الحق الذي يعلو على كل شيء ، والخير الذي دونه كل شيء ، والجمال الذي يخشع له كل شيء •

هذا هو الدين كما نزل على الانبياء ، وكما صدع به النقباء حق وخير ليبلغوا به غاية الناس لا غاياتهم ، ويحتجوا بـه للصالح العام لا لشهواتهم •

ومن خلال هذا التعريف تعرف من هو رجل الدين ، وما هي مهمته ووظيفته ؟ •• انه مثال الحق والخير ، والداعي الى الحق والخير باسم الانسانية لا بدافع الطائفية ، ان رجل الدين ذو قلب كبير ، وصدر طاهر سليم لا يعرف الحقد والتعصب ، انه ظل الله في أرضه ، ومنتدب مـن قبله ، ليؤدي الامانة التي عرضها الله على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها ، وحملها من قامر وغامر بلبس هـذا الثوب الشريف ، وحسبه هينا ، وهو عند الله عظيم ، أجل ، انه شريف وعظيم ، لانه رمز لرسالة الله القدسية ، وأقسم لـو أدى هذه الرسالة بأمانة واخلاص لاستسقى الغمام بوجهه ، ونزلت الرحمة من السماء بدعائه ، وارتفع البلاء والوباء من الارض ببركته وأقسم أيضا اني لا أفهم كيف أتنسب الى الدين وأهله ، وهو لا يضرب بسهم في احقاق الحق ، وابطال الباطل •

ان الدين يرضى منك أن لا تكذب ولا تخون ، ولا ترائي •• وأن تفعل الواجبات ، وتدع المحرمات ملتزما ذلك في سرك وعلانيتك •• ولا

يرضى ذلك أبدا من رجل الدين . وانما يطلب منــه أن لا يكذب ، ويحارب الكاذبين ، وأن لا يخون . ويحارب الخائنين . وأن لا يرائي . ويحارب المرائين ، وأن لا يتعصب ، ويحارب المتعصبين ، يطلب منه أن ينظر الى كل شيء من خلال الفطرة الصافية النقية ، والعقل النير النزيه . ولا يقسم الناس على أساس طائفي أو اقليمي أو عنصري . بل على أساس الطيب والخبيث ، والمخلص والخائن ، والمحق والمبطل ، فيبارك الطيب المخلص ، ويبشره . ويخوف الخائن المبطل وينذره . وفي الوقت نفسه يعمل على الالفة والاخوة وجمع الشمل ما استطاع اليه سبيلا .

ونحن اليوم أحوج منا في أي وقت مضى الى الالفة والاخوة الوطنية ، فان ما يحيط بنا من أخطار لا يقاوم الا بالاخلاص ، وجمع القلوب على الاحساس المتحد ، والا بالعمل على صعيد وطني لا طائفي ولا حزبي .. ان الوحدة الوطنية هي الطريق لقوة هذا البلد ، والاحتفاظ بكيانه وتفاعله مع الدول والشعوب تفاعلا سليما مثمرا .

ونحن اذ نقرر هذه الحقيقة لا نقررها نظريا . وكفى ، ولا كشعار نتستر به لمآرب أخرى . بل نقررها كجزء لا يتجزأ من عقيدتنا تنعكس آثارها على أعمالنا ، وفي قلوبنا ، وكل حركة من حركاتنا .

وبعد هذا التمهيد ننتقل الى الحديث عن المرحوم الشيخ حبيب ابراهيم الذي تمتع بالاحترام والتقديس من جميع الفئات أكثر مــن خمسين عاما .. تمتع باحترام الجميع ، لان الجميع رأوا فيه الاخلاص والتجرد للحق والجهاد في سبيله .. لقد لبس الشيخ هذا الثوب عشرات السنين ، ولكن لا ليعيش به ، بل ليعمل برسالته المقدسة ، ويهتدي بهديها منزها عــن الحقد والحسد ، والغرور والكبرياء ، والادعــاء الكاذب ، مجاهدا بنفسه ولسانه وقلمه ، فهذا مسجده ومعهده وهؤلاء تلاميذه في بعلبك ، وهذي المطابع والمحابر والنوادي والمنابر في العراق

وسورية ولبنان تشهد بارشاده وجهاده .. وكفاه شاهدا أنه أول عالم من علماء النجف الاشرف أنشأ مجلة سيارة كان لها أحسن الأثر في العقيدة والاخلاق ، وهي مجلة الهدى .. وظل حتى النفس الاخير ، وعلى ضعفه وشيخوخته مهتما ومنصرفا الى الموعظة والتبشير ، والانذار والتذكير ..

واذا كانت كلمات الشيخ حبيب وعبادته بعيدة عن أسلوب العصر فانها تفيض بالايمان والاخلاص ، والصدق والدفاع عن الحق ، وهذي هـي البلاغة بمعناها الصحيح .. واذا كانت مكتبة الشيخ حبيب لا تتجاوز مجلدات متواضعة في الفقه والاصول والتفسير والاخلاق فان فيها وحي السماء وعلم الانبياء الذي أخرج الناس من الظلمات الى النور ، واذا كان الشيخ حبيب بسيطا في مظهره فانه كان يعرف كيف يغرس في النفوس العقيدة الصحيحة والشعور بالمسئولية ، ولولا صدقه واخلاصه لما كان له هذا الاثر الطيب بين الشباب والشيوخ ، ولا هذا الاحترام والتقدير حيا وميتا .

لقـد كان الشيخ حبيب مؤمنا متشددا في ايمانه ، وانسانا في انسانيته ، وشجاعا جريئا في صراحته ، ورائدا أمينا على دينه ، وعاملا مخلصا ترك آثارا تشهد له عند الله والاجيال أنه من العاملين الخالدين وان الدين قد فقد بموته مناصرا ، قل أن يجد من يماثله ، ويسد مسده ، ولا أبالغ اذا قلت : أنه كان لوحده مدرسة دينية أخلاقية ، وجمعية للمشاريع الخيرية .

وبعد أن أشرت الى معاني الالقاب الدينية أشير بايجاز الى معاني الالقاب الزمنية .. ان فخامة الرئيس تعني ان حامل هذا اللقب يعمل مخلصا لفخامة الوطن وعظمته ، أما عطوفة الرئيس فانها تومىء الى صاحب العطوفة هو للجميع يعطف على الكل عطف الوالد على أولاده

دون تحيز ، أما دولة الرئيس فرمز الى استقلال الوطن وسيادته •

وعلى هذا الاساس ، فكل من عمل لان يكون لبنان بلد الخير والحرية فهو صاحب السماحة والغبطة والفخامة والعطوفة والدولة ، حتى ولو كان راعيا وراء غنمه ، أو فلاحا في حقله ، أو تاجرا في حانوته ، أو موظفا في مكتبه ، أما من يعمل لنفسه وذويه وحواشيه فالله والوطن بريء منه ، و ان ارتقى الى أعلى المناصب ، وأضفى عليه المحاسيب الاوصاف والالقاب ، ونجح في ألف انتخاب وانتخاب •

وبعد ، فان الذين يجب تقديسهم واحترامهم هم حكام العدل ، وعلماء الخير ، ونواب الحقيقة ، هم الذين ناضلوا وثابروا بعزم من أجل الانسان وحياته وتقدمه دينيين كانوا أو زمنيين •• ولو أن زعماء الدين والدنيا عملوا للمبادىء لا للالقاب ، وهدفوا الى صلاح المجتمع واسعاده لضرب كل يده بيد الآخر ، وساروا جميعا جنبا الى جنب للوصول الى هذه الغاية الشريفة ، ولكن يا للاسف طلب الكثير منهم الالقاب والمناصب والثناء الكاذب ، وصدق عليهم قول الشاعر :

فتنــة الناس وقينــا الفتنا ... باطل الحمد ومكذوب الثنا
أيها المصلح مــن أخلاقنا ... أيهــا المصلح الداء هنــا
كلنا يطلب مــا ليس لــه ... كلنــا يطلب ذا حتى أنــا

الشيخ سليمان ظاهر*

هذا الجبل الجائع العطشان الذي اضطهده الاتراك والفرنسيون وأهمله المسؤولون في عهد الاستقلال ، وتركه أهله مهاجرين الى أقصى البلاد في الشرق والغرب فرارا من العوز ، وطلبا للعيش ، هذا الجبل الذي عبر عنه اليعقوبي وياقوت والمدائني وأبو الفداء وابن خلدون وغيرهم من المؤرخين القدامى ، عبروا عنه بجبل عاملة ، وأسماه اليوم من أسماه بجنوب لبنان ، هذا الجبل ليس فيه قصور وناطحات سحاب ، ولا مصانع ومعامل ، ولا ميناء ومراكب ، ولا منابع للبترول وما أشبه ، ولا شيء على أرضه يلفت النظر ، ويثير الانتباه ، ورغم ذلك فهو من أغنى البلاد في الرجال الذين صنعوا التاريخ لقومهم وأمتهم .

وليس من غرضي الآن أن أتكلم عن ماضي هذا الجبل وحاضره ، وعن تاريخه السياسي والثقافي ، وانما غرضي أن أمهد بهذه الاشارة الى كلمة احترام واجلال لرجل ، له في تاريخ هذا الجبل صفحات مشرفة تنتهي بالرقم الاخير لما مضى ، ومنها يبتديء ما يأتي :

ولادتــــه :

ولد المرحوم الشيخ سليمان ظاهر عام ١٨٧٣ في عهد العثمانيين يوم كانت الحكومة بمعزل عن الشعب لا يعنيها من أمر الرعية كثيرا ولا قليلا ، الا حين تفرض الضرائب وتجبيها ، والا حين تسوق الناس

---

* نشرت في جريدة التلغراف عدد ١/٢ سنة ٦١ .

حفاة عراة الى ميدان القتال ، ومع هذا قامت على ربوع جبل عامل معاهد للعلوم والآداب تثقف العقول والارواح ، وتمهد السبل للمواهب والمؤهلات ، وتخرج العلماء والشعراء والمؤلفين .

ومن هؤلاء العالم الشاعر المؤلف الشيخ سليمان ظاهر ، فلقد تلقى علومه في مدارس « قرى جبل عامل » وهي في عهده مدرسة النبطية الفوقا ، ومدرسة النميرية ، ومدرسة الكوثرية ، ومدرسة بنت جبيل ، ومدرسة النبطية التحتا ، وكان من الاساتذة الاول في هذه . ولم يكن للشيخ من مطمح الا العلم والعمل به . ولهذه الغاية درج على الحياة العلمية بين يدي أساتذة العلم والتقوى ، وأجمع أساتذته وزملاؤه وتلامذته وجميع العارفين به على اكباره وتقديره ، وكان له ولزميليه الشيخ أحمد رضا والشيخ عارف الزين شهرة واسعة في البلاد الاسلامية والعربية ، فلقد كلف الشيخ الظاهر بالقاء الخطب والقصائد في كثير من الحفلات الكبرى الرسمية وغير الرسمية في مصر والعراق وسوريا ولبنـــان .

مؤلفاتـــــــه :

أما مقالاته وبحوثه القيمة في الصحف كالمقتطف والمقتبس والعرفان وغيرها من المجلات العلمية والادبية فأوفر من أن تحصى . وقد طبع له من الكتب « الذخيرة الى المعاد » ، و « الفلسطينيات » و « الالهيات » و « تاريخ قلعة الشقيف » . أمـــا المعد منهـــا للطبع فتاريخ الشيعة السياسي ، ومعجم عرى جبل عامل ، ونقد فلسفة دارون ، والملحمة العربية ، والقصة في القرآن ، والرحلة العراقية ، والرحلة الايرانية ، وبنو بويه في التاريخ ، وبنو عمار في طرابلس ، وديوانه الضخم وغير ذلـــك .

وتآليفه بمجموعها تتناول عقيدة الشيعة الامامية ، وتاريخ بعض

الاسر منهم ، والرجال الذين تجاهلهم المؤرخون ، والمترجمون لغايات سياسية ، أو نعرات طائفية ، وبوسعي أن أؤكد أن في آثاره فوائد جمة لا توجد في غيرها ، سواء في ذلك الدراسات العاملية ، أو غيرها .

الثالوث العاملي :

وشجع هو والرضا والعارف النهضة الفكرية التي ظهرت طلائعها في أول هذا القرن ، فقد أخذوا بيد كل متأدب ناشيء ، وساندوا كل مشروع ثقافي ، وأسس مع رفيقه الشيخ أحمد رضا جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية ، وأوجدا لها في النبطية بنايات للتعليم ، وأخرى للانتاج والريع ، وناديا للخطابة والاجتماعات العامة ، وتضم مدارس هذه الجمعية الآن ما يقرب من ٧٠٠ تلميذ وتلميذة .

ولم تكن وسائل النشر والاذاعة متوفرة الى عهد قريب فكان الشيوخ الثلاثة : الرضا والظاهر والزين ينقلون الى العامليين مباشرة حينا ، وبواسطة العرفان أحيانا الاحداث العالمية والمخترعات العلمية .

واختصارا أن قصة هذه الاقاليم الثلاثة هي قصة جهاد وايمان وفضائل ، والخسارة بفقدهم لا يعادلها شيء ، والفراغ الذي تركوه لا تسده عشرات الرجال ، بل ولا المئات .

صفاتـــــه :

المقام لا يتسع للكلام عن الشيخ سليمان الظاهر من سائر جهاته ، ولكن الصفة التي لا يحسن السكوت عنها بحال ، تلك الصراحة والشدة على الظالمين ، ولو كان الظالم أقرب الناس اليه ، والمظلوم أبعدهم عنه ، وتلك الصراحة النادرة التي لا توجد الا عند الذين لا يخشون الا الله ، ولا يعملون الا لوجه الله .

كان الشيخ سليمان ظاهر يقدر أهل الدين المدين ، ويحترم أهل العلم للعلم ، ويغضب للحق ، ولا تأخذه فيه لومة لائم • ان الفارق الوحيد بين المخلصين والمرائين أن ينفعل أولئك ، ويثوروا من حيث لا يشعرون ، اذا رأوا ظلما أو غبنا أو فسادا في الارض ، وأن يقف هؤلاء من ذلك موقف التجاهل والجمود والركود ، يثور المخلصون لدينهم بدافع من فطرتهم ، ويثور المنافقون لدنياهم ودنيا غيرهم بدافع من زعيم يعدهم ويمنيهم •

ان الزعيم يستطيع أن يوظف ويعطي رخص الدخان مثلا ، ولكنه أعجز من أن يوجد شهرة كشهرة الشيخ سليمان ظاهر ، وثقة كالثقة بالشيخ سليمان ظاهر ، وخلود كخلود الشيخ سليمان ظاهر ، ان الله سبحانه قد خص الشهرة الطيبة والثقة والخلود بالذين يعملون من أجله وحده لا شريك له ، أما الذين يعملون للدنيا والزعامات فنصيبهم الخزي واللعنــات •

وبالتالي ، اذا ثبت بشهادة التاريخ أن أظهر صفة تميز شيعة الامام علي هي معارضة الظلم والغبن والفساد فان الشيخ سليمان يأتي في الصف الاول مع أتباع الامام وشيعته العاملين بمبدئه وتعاليمه •

تآخينا في الله ولله

بسم الله الرحمن الرحيم

صديقي أبا جعفر سلام الله عليك ورحمته وبركاته ![1]
وبعد :

فلقد تآلفنا وتكاتفنا منذ خمس وثلاثين سنة ، أو تزيد ، واختبر كل منا صاحبه شابا وكهلا ، وطالبا وعالما ، اختبره وعرفه في جميع حالاته في عسره ويسره ، وحين رضاه وغضبه ، حتى تكشف له عن حقيقته وجوهره ، ودخيلته وضميره .

وبعد هذا التعايش الصداقتي الطويل العميق ، وهذه التجربة الحية الواعية تآخينا في الله ولله لنبلغ غاية كريمة ، نلقى بها الله آمنين من غضبه ، مطمئنين على تأدية حقه ، غير خائفين يوم تنصب الموازين . وقد وفق الله سبحانه لما نريد ، أو بعض مـا نريد ، وأرفدنا بتوفيقه وهدايته ، بعد أن علم منا الصدق في النية ، والاخلاص في العمل .

أجل ، في الله ، ولله وحده اتحدنا فكرا وسبيلا وهدفا ... فما خطا أحدنا خطوة الا التقى مع أخيه ، وما نطق بكلمة الا عبر عـن رأي صاحبه ، وما اجتمعنا لحظة الا استفاد كل من الثاني علما وخلقا ، ولا خفق قلبه لفرح أو ترح الا انتفض قلب الآخر ، وحاكاه تلقائيا حتى كان التلاحم بين القلبين بالوحدة لا بالاخوة ، وبالفعل لا بالقوة .. ومن هنا ، أدار أو يدير رحى نقمته عليك من حاول القصاص مني ، ويديرها علي ان أراد القصاص منك .

اذن ، من العبث والفضول اذا قلت : اني شاركتك في كل ما لاقيت

---

(١) كتبت هذه الرسالة لصديقي العلامة السيد هاشم تعزية بأبيه المرحوم السيد معروف ، ونشرت في العرفان عدد أيلول ١٩٦٤ .

وقاسيت منذ اللحظة التي سقط فيها المرحوم في فراش مرضه الى نفسه الاخير • وكلنا يعلم مدى الصعوبات في خدمــة المريض ومداراته ، والمحافظة على شعوره ومرضاته •

ولكن هل أنا شاكر بعض ما لك من خلال فضلي ، اذا فرحت لفرحك ، وتألمت لالمك كلا ، وألف كلا • ان أعظم ما يمكن أن تبلغه الفضيلة من سمو وارتقاء أن تعبر عن نفسها بالوفاء ، لانه أصل الفضائل كلها ، ولو تمثل الوفاء انسانا سويا لكان هذا الانسان أنت •• وقد حبب الي وفاؤك هذه الحياة ، ان كان لي فيها شيء محبب ، هذا ، الى لسان لا ينطق الا من قلب ، وقلب لا يصدر الا عن طهر وصفاء ، وايمان يستخف بالمال وزينته ، ويتحطم الباطل على صخرته ، وصلابة في الحق والخير لا تنثني ، وعزيمة في الصدق والصداقة لا تني •• على الرغم أن عدم الدوام والاستمرار في الصداقة أصبح اليوم قاعدة مطردة الا أن الاطراد ــ كما هو المعروف ــ لا ينفي الشذوذ ، كما أن الشذوذ لا ينفي الاطراد •

هذه صفات أعدد منها ، ولا أعدها ، اكتشفتها أول ما اكتشفتها دون أن أعلم أنها تحدرت اليك من أبيك الخير ، وانك أول ما فتحت عينيك فتحتهما على نور المؤمنين الابرار في بيت أشرق بعيادة ربه آناء الليل وأطراف النهار ، وعمر بالصوم والصلاة ، وتلاوة الذكر والدعاء وتعزية سيد الشهداء •

عرفت أباك ، فعرفت موردك ومصدرك ، رأيت السيد معروف رضي الله عنه وأرضاه فرأيت فيه العادل العابد الذي لا يسأم من عبادة ، ولا يذهل عن تهجد ، ولا يقصر في واجب ولا ينظر الى الحياة وأشيائها الا من زاوية الدين والتقوى •

مئة سنة ، أو ما يقرب منها لم يتهاون بحكم من أحكام الله ، أو

يتساهل بحق لعبد من عباد الله .. صدق في المعاملة ، وأمانة في الاخذ والعطاء ، واحسان للجار ، وصلاح في تربية الابناء ، واطعام للفقراء يوم المجاعة الكبرى ، حيث كان كل رغيف برجل ، واحياء للارض واتناج ينعم فيه العشرات ، واخلاص لله يكشف له عن يومه الاخير فينطق صادقا : آخر الشهر فتحقق النبوءة ، وينتقل الى رحمة ربه آخر الشهر .

وأقسم اني لو سئلت عن رجل لم يتعمد الكذب قط ، ولا المراء قط ، ولا التحيز لباطل قط لقلت : انه السيد معروف ، لقد عاش بجسمه في هذا العصر ، اما بروحه وعقله ، اما بتسبيحه وصلواته ، وأدعيته وزياراته فقد عاش في عصر الائمة الاطهار ، وأجداده الابرار ...

أجل ، لم يكن أبوك المعروف مخترعا ، ولا متزعما ، ولكنه أعظم درجة عند الله من المخترعين والمتزعمين ، ولم يكن عالما ولا شاعرا ، ولكنه كان تقيا صادقا ، ولم يبن مصحا ولا معهدا ، ولكن فجرك ينبوعا صافيا ، ينهل منه الواردون ، وغرسك شجرة طيبة ، يستثمرها المنتجعون ، وأضاءك مصباحا نيرا ، يهتدي بنوره التائهون ، وبنعمة الله ، وفضل أبيك تجاوزت حدود زمانك ومكانك ، واستجابت العقول والقلوب لكتبك وآثارك .

أيها الصديق ، لست وحدك المعزى بأبيك ، ولا أنت الذي فقدته دون سواك ، بل فقده الدين ، كعابد وأب كامل ، وفقده العلم كخادم ناصح لاهله ، وفقده الوطن كعضو منتج في هذه الحياة وفقدته الاخلاق كمرب صالح لاسرته ، فأولى الناس بتكريمه ، وتأبينه ، والاحتفال بذكراه هم أرباب العلم والدين ، وأهل الخير والصلاح .

وأختم رسالتي هذه اليك بتقديم التهنئة مع التعزية ، التهنئة بشيئين . الاول منهما على أن أباك مات قرير العين بك ، وبعدة من

الطاعة كافية وافية ، وبعصمة عن المعصية مانعة رادعة ، والثاني على برك به وطاعتك له ، فلقد رأيتك أكثر من مرة تتلوى بين يديه ورجليه ألما وقلقا عليه ، وتخاطبه بصوت خائف خافت ، ولهجة حزينة مرتعشة تلون الكآبة ملامحك ويرسم الحزن خطوطه الحمر في عينيك .

أهنئك ، وكيف لا ؟ وقد بلغ عندك الكبر كلا أبويك ، فلم تقل لهما : أف ، ولم تنهرهما ، بل قلت لهما قولا كريما وخفضت لهما جناح الذل من الرحمة ، وقلت : ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا .

ألا تذكر حين رأينا المرحوم مرات ومرات ، فرحا مبتهجا ببرك وطاعتك ، وعلمك وصلاحك ، وطيب ذكرك وسيرتك ، أما دعاؤه لك بالخير والنجاح فقد ردده ، حتى النفس الاخير .. ولهذا ، وغير هذا أتنبأ لك بمستقبل زاهر ناصر .

وكأني الآن أسمعه يقول ، وهو واقف بين يدي بارئه جل وعلا ، اللهم اشهد اني راض عن ولدي السيد هاشم ، فارض عنه ، وأسعده بحظ وافر من عوائدك وفوائدك ، وصل حبله بحبلك ، وقربه من رحمتك ، فقد وصل رحمي ، وتقرب اليك بخدمتي ، فاجزه عني بالاحسان احسانا ، وعلى بره مغفرة ورضوانا .. وأنا وكل محب لك نقول معه من أعماق القلب : آمين رب العالمين .

هذه رسالتي اليك ، بل هذه نفسي أمانة بين يديك ... فاحتفظ بها ، وعد اليها مرات ومرات بعد موتي ، لتكون على صلة مباشرة بروحي . اذا بلي جسدي ، وانقطع من هذه الدنيا أمدي ، واذا كان وفاؤك لا يعرف الحدود ، فاجعل بيت القصيد منه في طلب الرحمة والمغفرة من العلي الاعلى لصديقك الجواد حين لا ترى له شخصا ، ولا تسمع له همسا .

وتحية زاكية كنفسك ، دائمة كوفائك من صديقك القديم الامين .

مع الاردية الفضفاضة

نشرت من قبل في جريدة جبل عامل طرفا من تجاربي وردودي على أصحاب الاردية الفضفاضة الذين يزعمون بأن مهمتهم تنحصر في سبيل الله والدين ، يدعون هذا ، وهم يستوردون في الخفاء من مكاتب الاستعلامات التفرقة والضغينة والبغضاء ، يبثونها بين الطوائف والفئات .

واعترف بأن البعض لم يكن به من علة الا ارث التعصب عن بيته وبيئته ، وانه قال ما قال عن جهل وغباء ، ولكنه التقى في النتيجة مع الخائنين والمستغلين من حيث لا يحس ولا يريد .

ويمكنني الآن أن أقص عليك أكثر من تجربة مع هؤلاء وأولئك لم أنشرها من قبل في صحيفة أو كتاب مما نشرت ، وأتمنى أن أصل مع الجميع الى نهاية ، وأن يسد هذا الباب الى الابد .

بعض الشيوخ :

في شهر المحرم من سنة ١٣٨٤ هـ وقف شيخ من مصر في مدرسة المقاصد ببيروت ، وألقى درسا على تلاميذها في احياء ذكرى سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام في الايام العشر ، وانها بدعة ، حتى استبان للجميع بأن الدس على الشيعة هو الغاية الاولى ؛ أما العلم والتعليم فطريق ووسيلة .

وما أن علمت ، حتى اتصلت بسفير الجمهورية العربية المتحدة ، وقلت له فيما قلت لقد مضى على السنة والشيعة في هذا البلد الوادع أكثر من ألف سنة ، وهم في أتم الوئام والوفاق . وقد حاول الاستعمار أكثر من مرة أن يشتت ويفرق ما بين الاخوين ، فآب بخفي حنين ،

ويحاول الشيخ فلان أن يقوم بنفس الدور ، وأخشى أن يقول قائل : انه يفعل ما يفعل بوحي من الجمهورية العربية المتحدة .

فان تداركتم الامر ، والا أوقفناه على حده .

قال السفير : أسأل وأتحقق ، فان ثبت عليه أرسلته في أول طائرة تطير الى بلده .

قلت له : لم أشتر كلاما من أحد ، لاني ما بعته قط لاحد .

قال بمرونة السياسي المحنك : أشكر هذا الشيخ الذي أسمعني صوتك .

قلت : أجل ، انك تسمعه حين يكون الحق والتعاون على الخير .

قال : الآن يجري معه التحقيق .

قلت : اذن يجب أن أشاهد وأرى التحقيق بنفسي .

قال : أجـل .

وبعد أن تركت سماعة الهاتف بـ ٥ دقائق رن جرسه ، ودعيت الى مكتب رئيس البعثة الثقافية ، فحضرت ، وأحضر الشيخ ، وأجاب بعد السؤال بأن حفلات عاشوراء تفرق بين المسلمين .

قلت بكل هدوء : كلا ، يا شيخ ، انها تجمع المؤمنين ، وتوحد قلوبهم وكلمتهم على مناصرة الحق الذي استشهد الحسين من أجله .

قال : لقد قتل عثمان شهيدا ، فلماذا لا تفعلون له ، ما تفعلونه للحسين ؟

وهنا ثارت ثائرتي ، وقلت : الى متى تحملون قميص عثمان ؟

انك تريد أن تمثل دور معاوية ولست هناك ، وما نحن عنك بعاجزين ، ولو شئنا لامطرنا السماء عليك دماء ألا تعلم أن دم الحسين هو دم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما قثمان من ذاك في شيء ، وانه قتل بتهمة المحاباة والانحراف عن الحق والعدل ، وان الحسين استشهد في سبيل الحق والعدالة .

وكان رئيس البعثة يستمع ولا يتكلم ، فالتفت اليه ، وقلت : قل للسفير : ان مغنية سجل قولك بأنك ترسل هذا الى بلده في أول طائرة ان ثبت عليه ، وقد اعترف ، وما بعد الاعتراف من دليل ، وهنا ، رجع الشيخ المسكين الى ربه ، واعتذر عن ذنبه ، فقلت له : نحن على مبدأ أمير المؤمنين علي (ع) الذي يقوى ان رأى القوة ، ويرحم ان رأى اللين ، فتب الى الله سبحانه ، واياك أن تعود واعتذر في الصف الذي قلت فيه ما قلت : وعفى الله عما سلف • وبعد يومين أو ثلاثة ، قيل لي : لقد اعتذر الشيخ في الصف ، فهل تبغي شيئا ؟ قلت : نحن نريد أن نأكل العنب ولا شأن لنا مع « الناطور » •

شيخ آخر :

اتفقت المذاهب السنية الاربعة على أن الرجل لا يجوز له آن يجمع في الزواج بين امرأة وعمتها ، أو خالتها ، وقال أكثر فقهاء الشيعة : يجوز اذا أذنت ورضيت العمة ، أو الخالة •

وذات يوم التقيت مع شيخ من الاحناف وما أن رآني ، حتى قال مستنكرا : كيف تقولون بهذا ، ولا دليل عليه من كتاب أو سنة ؟

قلت : ومن أين علمت انه لا دليل ؟

قال : سألت أحد شيوخكم ــ وأسماه ــ فقال : يوجد لدينا الدليل ، ولكن لا يحضرني الآن •

قلت : ليس من شرط العالم أن يستحضر كل شيء •

قال : وأنت ماذا تقول ؟

قلت : يحضرني الدليل الآن ، ولا تقبله الا من كتاب الله عز وجل •

قال : من القرآن ؟ !

قلت : أجل ، انكم تحفظونه عن ظهر قلب ، وتجيدون تلاوته ، وتنطقون بحروفه من مخارجها ، ولكن قلما تعتنون بالمعنى ، ونحن على العكس •

قال : هات .

قلت : اقرأ الآية ٢٤ من سورة النساء : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وأمهاتكم التي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ان الله كان غفورا رحيما ، والمحصنات من النساء الا ما ملكت ايمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم » .

فقوله تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم » بعد أن ذكر المحرمات يدل بصراحة ووضوح على أن غيرهن مباح ، حتى الجمع بين العمة وبنت الاخ ، وبين الخالة وبنت الاخت .

فلم يجد سبيلا الا التسليم ، وهدفي الاول من ذكر هذه المحاورة أن لا يتخذ الانسان من عاطفته وتربيته مقياسا للحق .. وأي فرق بين الام التي ترى وليدها أجمل من كان ويكون ، وبين من يؤمن بأن معتقده هو الحق لا ريب فيه ، وأن ما عداه باطل ، وان آمن به من هو أوفى وأعظم علما وذكاء .

مع مستشرق :

ولي تجارب كثيرة مع المستشرقين ، ولكنها علمية ، ولله الحمد ، أشرت الى شيء منها في مجلة العرفان عدد تشرين الثاني سنة ١٩٦٤ ، ولكن مرت بي تجربة مع بعضهم غريبة في بابها ، بل هي وحيدة فيما أظن .

في صباح ١٥ / ٧ / ١٩٦٣ زارني في بيتي مستشرقان : أحدهما ايطالي ، واسمه « الاب روبير فوكا » والثاني بلجيكي ، واسمه « الاب

الفريد هافنيث » ويحسن الاول النطق بالعربية أكثر من الثاني ، فقال لي فيما قال : قرأنا كتبك ، وأعجبنا بها ، ولكن رأيناك تتكلم عما وراء الطبيعة ، ولا تتعرض لآراء المسيحيين وحملنا ذلك منك على عدم وجود المصادر لديك ، وقد أتيناك بطرف منها ، لترجع اليها وتنقل عنها حين تؤلف وتنشر ، ثم ذكر الكتب التي صحبها معه •

قلت : أنا لا أكتب في مقارنة الاديان وتاريخها ، وكل اهتمامي أن أوضح الفكرة بأسلوب يستسيغه النشء • ثم أدخلت الاثنين الى غرفتي الخاصة ، وأريتهما الكتب التي أرادا تقديمها الـي في الديانة المسيحية ، وأخرى في موضوع التصوف المسيحي ، وحيـاة السيد المسيح (ع) وتعاليمه وفي أغسطين ، والاناجيل الاربعـة ، وغيرها ، وحدثتهما عن بعض ما تحويه ، فنظر كـل الى الآخر نظرة الدهشة ، وتكلما بما لم أفهم •

ثم سألني الاب « روبير » : أين سكرتيرك ؟ فنحب التعرف عليه• قلت : لا سكرتير ولا سكرتيرة لدي ، فكل شيء أتعاطاه بنفسي ، حتى تهيئة الحاجات الخارجية ، فاستغربا كيف أنتج هذا الانتاج بدون معين•

ثم أريتهما اللمعة الدمشقية والقوانين ، وما في صفحاتهما مـن الحواشي والهوامش المستديرة والمكعبة ، كما أريتهما بعض الصفحات من المدارك التي تبدأ الكتابة فيها من الزاوية العليا بخط يشبه دبيب النمل ، فأخذهما التعجب والاستغراب ، حتى كأنهما اكتشفا أبعـد الآثـار •

وبعد أيام جاءني كتاب هذا نصه بالحرف :

« فضيلة السيد الشيخ محمد جواد مغنية ، ألف سلام وسلام من طرف الاب روبير فوكا • أما بعد فقد حظيت بمعرفتكم ، بل بالزيارة في منزلكم مع رفيقي الاب الفريد ، وطالما رغبنا في أن نعيد ونتشرف ، لولا الظروف ، واعلم أيها الشيخ أني طالعت بعض تآليفكم الغراء ،

واقتنيتها ، وسررت في قراءتها ، لحرصك على الاستشهاد بدليل العقل السليم ، في أكثر المواضع ، ويجب علينا نحن واياكم رجال الدين البحث اكراما للحقيقة ، ولذا أسألكم عن موضوع يخصنا ويخصكم •

أولا : ما هو موقف الاسلام الرسمي في صحة الانجيل المتداول اليوم ؟

ثانيا : ما هي الادلة العقلية على بطلانه ، مع أن القرآن صريح بالاعتراف به ؟

فاذا تيسر لكم أيها الشيخ العالم أن تضعوا كتابا في هذا الموضوع فلله الحمد ، والا اكتفينا وقتيا برسم صفحتين ، أو ثلاث ، هذا مرغوبي أيها الشيخ ، فأرجو أن لا تردني فيما طلبت ، وأن تتفضل بالجواب من غير تسويف ، وتراني شاكرا لك ، وداعيا بالخير بدء وختاما وتفضل بقبول أطيب سلام واحترام •

بيروت ١٩٦٤/٣/٤ — الاب روبير فوكا
كلية الحكمة للموارنة

وليس من شك أن هذا الكتاب يثير أسئلة عديدة تتطلب أجوبة صريحة ••• مبشر بالمسيحية والانجيل ، يطلب من شيخ مسلم أن يرد على الانجيل في كتاب . أو صفحتين . على الاقل ، ويرجوه في ذلك ، ويلح في الطلب ••• ان وراء ذلك لسر ، أي سر •• وعلى أية حال ، فان مجرد طلب الرد على الانجيل هو رد عليه بالذات ولا أكتم القارىء اني ترددت اولا في الجواب ، ثم أجبت بما يلي :

تناولت كتابكم ، وأقول مخلصا : اني لا أود الخوض في هـذا الموضوع ، وما اليه ، ومهما يكن ، فان لاي مسلم أن يجيب : ولماذا لا يؤمن المسيحيون بالقرآن ، وما هو اعتراضهم عليه ؟ وهكذا ندخل في جدال عقيم لا نهاية له ، على أن هنالك كتبا كثيرة مطبوعة ومنتشرة أبدى فيها المسلمون الملاحظات والادلة التي طلبتموها ، بخاصة المجلد

الثاني من الرحلة المدرسية ، ولو كان لدي نسخة منه لارسلته اليكم .

والقرآن الذي اعترف بالمسيح أراد به المسيح الذي خلق من تراب ، تماما كما خلق آدم ، حيث جاء في سورة آل عمران الآية ٥٩ : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

واعترف بالانجيل الذي بشر بنبوة محمد ، كما نطقت الآية ٦ من سورة الصف : « واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » .

ولا يجوز بحكم العقل والمنطق أن نحتج ببعض القرآن ، ونترك البعض ، فاما أن نأخذ به جملة ، واما أن ندعه كذلك ، كما صرحت الآية ٨٥ من البقرة : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » .

أقول هذا ، وأنا على يقين أن الافضل لكم ولنا بصفتنا من أهل الدين أن نتعاون على تأدية رسالة السيد المسيح وأخيه محمد ، ونعمل على تحقيق أهدافهما من النضال ضد الظلم والاحتكار ، وضد الاستعمار وتفريق الكلمة .

وبعد أمد جاءني من الاب « فوكا » كتاب طويل الاذيال عريض الاكمام ، قال فيه :

« كيف لا تريد البحث والنظر ، وأنت الرجل الذي وهب حياته منذ صباه للدرس والتبيين والاعلان بروح الاخلاص على طرق علمية ، وسبل عقلية .. واني استلذذت بقراءة بعض تآليفك النفيسة التي بها اجتهدت لاثبات الايمان بوجود الله ، وحقيقة تنزيله ، وارساله الانبياء ، فاني رضيت بذلك ، وأوجه اليك التهاني ، أما معضلات الخلاف الجوهري بين المسيحية والاسلام فلماذا لا تريد أن تمد لها يد الاهتمام ؟

وقلت أيها الشيخ المبارك : ان الاجدر بنا أن نشترك ونتعاون على

الاعمال الخيرية والاجتماعية عوضا من أن نخوض في المجادلات والمناقشات فنقول :

نحن لا نتغاضى عن تلك الاعمال الا أن البحث عن الله أفضل يفوق تلك الاعمال فضلا .

وكذلك رأيت في رسالتك صورة الضجر والاستبعاد من المجادلات والخصومات التي كثيرا ما تدمر عوضا عن أن تبني وتعمر ، والحق معك ، ولكني قصدت البحث السليم ومطلوبي يدور حول الانجيل هل هو جدير بالثقة ؟ .

هل هو كلام الله ؟ وما هو الدليل على انه ليس كذلك ؟ » .

١٩٦٤/٧/٣ الاب روبير فوكا

أرأيت الى هذا التناقض والتهافت ؟ ! .. مبشر بالمسيحية يطلب من شيخ مسلم أن يرد ويطعن بالانجيل في لبنان بلد الطوائف والوظائف ، والاناجيل والمصاحف ، ثم يقول : « قصدي البحث السليم » ؟ ! وماذا يعني هذا ؟ انه يعني ــ كما أفهم ــ أن تكون لبنان قبرص ثانية .

ولا شيء أحب الي من الحوار بين الافكار والتحاليل الدقيقة والنظرات العلمية ، فلقد عشت لها حياتي كلها منذ أربعين عاما ... اني أحبها ، وأخلص لها ، ولكن على أساس النزاهة والتجرد للحق والواقع ، لا بدافع من التعصب ، وبث النعرات ، واثارة الخلافات وما أنا والانجيل والتوراة ؟ بل ما لي وللتابعي والجبهان والحفناوي والخطيب والوهابية ، وفلان وعلتان ؟ اذا لم يمسوا عقيدتي ومدرستي وعقيدة آبائي وأجدادي ، وعقيدة طائفتي التي أقدسها ، وأموت عليها وأحيا ، وأضحي في سبيلها بالنفس والمال والاهل .

بصرف النظر عن قبرص ، ومعها الكونغو أيضا .. فاني أربأ بنفسي وعلمي وعقلي أن أنظر نظرة ضيقة ، أو تقليدية غير متحررة بعد

أن عشت مع الكتاب هذا العمر الطويل بل أربأ بنفسي أن تقف مع المتعصبين والمقلدين لان التعصب يقف حائلا دون الحقيقة ، والتقليد يقفل باب الابداع والالهام •• ولكن لا أقف أبدا مكتوف الايدي ، وأنا أنظر الى من يدس ويفتري علينا ، ويحاول أن يهدم الجسور ، ويقيم العراقيل بيننا وبين الذين يشهدون كما نشهد بالوحدانية لله ، وبالرسالة لمحمد بن عبدالله ، ويقدسون الكتاب الذي نقدس ، ويحجون الى البيت الذي نحج اليه ، ويصلون الى القبلة التي نصلي اليها ••

ان الدين والعلم والعقل يحتم علي وعلى كل ذي لب أن يضرب على يد من يرشق بالسهام ، ويبث الخصام •

فكيف أرمي بيدي الانجيل وغير الانجيل ؟ ! ••• ان هذا لا يكون ، ولن يكون أبدا •

وبعد ، فما أحوجنا الى وحدة الكلمة ، والفة القلوب ، والنظرة الانسانية الشاملة ، ورفض المنازعات الدينية ، والكليشات الموروثة ، والتقليد المتحجر ، والتعصب المرير •••

الشيخ وتكليفه الشرعي :

ذكرت نموذجا لفئة من شيوخ السنة والمبشرين ، وبقي أن أشير الى نوع من شيوخنا ــ نحن الشيعة ــ ظهر على خشبة هذا المسرح ، مسرح الاردية الفضفاضة ، والذقون المرسلة المسبلة ، بقيت هذه الاشارة ، كي لا أتهم بالتحيز أو يصدق علي قول أمير المؤمنين (ع) : « أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله » بل هو أوجع وأفظع •

هذا شيخ « منا » لا يعرف سوى معدته ولا وزن لسواها في واقعه وحقيقته ، فهي وحدها مقياس الحق والدين عنده ، وميزان العقل والعلم ، ولكنه يبرر ويفسر جميع أقواله وأفعاله بالدين والشرع ، ويقول ــ من حيث يشعر ، أو لا يشعر ــ : هذا ما أدى اليه ظني ، وكل

ما أدى اليه ظني ، فهـو حكم الله في حقي ، فهذا حكم الله في حقي ، وتكليفي الشرعي من ربي ... فيزعم أن أقواله وأفعاله كلها بوحي الدين والشريعة ، وما هي في واقعها الا من املاء الشيطان ، ومعدته التي لا قعر لها ولا قرار .

أمـا سر هذه الجرأة ، وافتراء الكذب على الله عز وجل فهـو الاستغلال ، أو سوء الفهم لفتح باب الاجتهاد والغاية منه ، لقد فتحنا ـ نحن الشيعة ـ باب الاجتهاد ليكون طريقا للابداع والابتكار ، فتحنا بابه ، ليكون الفكر حرا ، والعقل مستقلا ، فتحنا باب الاجتهاد ، ليكون لنا ـ نحن شيعة علي ـ عظماء كالانصاري صاحب الرسائل والمكاسب والنجفي صاحب الجواهر ، والخراساني صاحب الكفاية ، وغيرهم من الاقطاب والاصحاب الذين وقفوا حياتهم كلها للبحث والتنقيب عـن الحق ، ودونوه على خوف وحذر ، مع العلم بأنهم توخوا الدقة والامانة في تدوينه ، وأخلصوا لله في نشره واعلانه ، وقدموا المعرفـة والخير للانسانية جمعاء ، ونظروا الى الاجتهاد على أنه مركز الثقل من العلم والدين والفلسفة ..

أما الاجتهاد بمعنى اللعب والعبث في الدين مـن أجل العيش واشباع الرغبات ، وافساح المجال لوضع الخطط والاساليب الشيطانية ، أما الاجتهاد بمعنى تبرير الغيبة والدس ، والافتراء على الابرياء فهو موصد عند الجميع وفي وجه الجميع .

لقد أمرنا الدين أن نتثبت في التعرف علـى الحق ، ونجتهد في تخريج أفعال الناس وأقوالهم على الخير : قال أمير المؤمنين (ع) « ضع أمر أخيك على أحسنه . ولا تظنن الكلمة التي خرجت منه سوءا ، وأنت تجد لها في الخير سبيلا » فعكسنا الآية ، وقلبناها على رأسها ، واجتهدنا في تخريج كل ما نراه من غيرنا على الشر والسوء ، حتى ولو كان لـه ألف وجه ووجه للحمل على الصحة والخير ، ثـم بررنا ذلك بقولنا :

« هذا تكليفنا الشرعي الذي أمرنا به الله » . ولا آمر الا الشيطان الذي يتلقف كل مجتهد زائف ، ويلقنه دروسا في الدس والحقد ، وفي العجب والكبرياء ، وفي اللعب والعبث بالدين والشريعة ، ثم يقول بلسانه : « هذا تكليفي الشرعي » .. وكلمة هذا لا تشير في واقعه الا الى معدته وشيطانه .

وبهذه المناسبة أذكر بعض ما جرى بيني وبين شيخ من الاحناف ، كنت أحاوره ، فلقد قلت له فيما قلت :

هل أنت مجتهد أو مقلد ؟

قال : بل مقلد .

قلت : لمـــن ؟

قال : لابي حنيفة .

قلت : ان أبا حنيفة لا يجيز التقليد ، وعلى هذا فأنت غير مجتهد ولا مقلد .

فضحك ، وكفى .

ولو علم هذا الشيخ بحالنا نحن لاجاب منتصرا بأن هذا الاشكال يرد على الكثيرين منكم ممن يدعون الاجتهاد ، وهم ليسوا بأهل له ، لان عملهم ، والحالة هذه ، يكون بلا اجتهاد ولا تقليد .

هيئة الامم المتدينة ومعهد ابحاث العالم الواسع وموسوعة الفقه على المذاهب الثمانية

باسم الاسلام والمسيحية

باسم الاسلام انعقد مؤتمر في مصر ، وآخر في الحجاز .. وباسم المسيحية انعقد مؤتمر الفاتيكان الذي جمع ٢٥٠٠ أسقف ، وبلغت تكاليفه أكثر من ٢٠ مليون دولار ... واهتم أكثر من أي شيء بتبرئة اليهود من قتل « الاله » مع اعتراف الجميع بأن الدين المسيحي ينص صراحة على أن اليهود وأولادهم من بعدهم يتحملون مسؤولية صلبه .

وبعد مؤتمر الفاتيكان انطلقت الدعوة الى الحلف الاسلامي تجر معها أو وراءها فكرة دمج الكتابين : القرآن والانجيل في كتاب واحد.. وقبل الجميع انعقد باسم المسيحية مجلس الكنائس العالمي في سالونيك . ثم في نيو دلهي ، أما نداءات البابا محذرا من تردي الجنس البشري فلا تنقطع .. ولا ندري ماذا يحمل لنا المستقبل من الدعوات والدعايات .. اللهم آجر عبادك وبلادك ..

ومهما تكن تلك الدعوات فانها لا تكون ولن تكون ـ كما عودتنا ـ لصالح فلسطين ، وغيرها من البلاد المنكوبة في آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية .. نحن نفهم الدين على أساس أن يحب الانسان لغيره ما يحبه لنفسه . لا على أساس التحالف مع فئة ضد أخرى .

دمج القرآن والانجيل

ومن أجل هذا ، وغير هذا تثير التكتلات والدعوات في أذهاننا أكثر من سؤال بخاصة التفكير والدعوة الى دمج القرآن والانجيل ، وضمهما معا بين دفتين .. فهل هذا تحالف اسلامي مسيحي من نوع

جديد متطور ؟ .. أو هو فيلم « عصري » يصور الترادف بين اللفظتين، والاتحاد بين المعنيين ، أو الكتابين ؟ .. أو لا هذا ، ولا ذاك وانما هو تيسير وتسهيل لان يعتنق الانسان الاسلام والمسيحية معا ، ويصير مسلما ومسيحيا في وقت واحد ؟ . أو أن صاحب الفكرة يحاول أن يظهر عبقريته الفذة ، فقدم للناس آخر ما توصل اليه العلم في عصر الذرة والفضاء ؟ .. أو أنه لم يكن جادا ، وانما أرادها أن تكون نكتة سنة ١٩٦٦ ، وعلى افتراض أنه جاد ، فعلى حساب من يكون هذا الدمج على حساب الاسلام أو المسيحية ؟ . وسؤال أخير : هل من مسلم حقا يرضى بهذا الزواج ؟

لقد فهمت وأدركت الغرض من كتاب الفقه على المذاهب الاربعة ، بل ألفت أنا كتابا في فقه المذاهب الخمسة ... وفي العام الماضي تشكلت لجنة برئاسة شيخ الازهر ، لتضع موسوعة في الفقه على المذاهب الثمانية . لقد فهمت الغرض من الجمع بين فقه المذاهب الاسلامية ، وانه يحمل شارة التقريب بينها ، والتوحيد بين أصولها ومصادرها ، وانه السبيل للنهوض بهذا الفقه ، ونشره في الآفاق ، والتعريف بكنوزه ومنافعه .. لقد فهمت هذا وأدركته ، أما الجمع بين القرآن والانجيل فلم أعرف له وجها يغريني به .. ان المسلمين لم يجمعوا بين كتاب الله وسنة نبيه في كتاب واحد ، مع العلم بأنها بيان له وتفسير ، فهل يرضون بالجمع بين القرآن والانجيل ؟ .

ونصيحة لله أن ينطلق أرباب الاهداف في غير هذا الميدان ..

أقول هذا ، وأنا أول المؤمنين بالوئام بين الناس بعامة ، وبين المسلمين والمسيحيين بخاصة وبالوحدة الوطنية في لبنان بوجه أخص ، وايماني بهذا هو الذي دعاني الى هذه الاساءة . فاني أعرف الناس بما يترتب على الدمج من عواقب ، وأقلها أن يفسر تفسيرا يوغز الصدور ، ويثير الاتهامات ... أليس هذا احتمالا ممكنا ومعقولا ، وموجبا

للاحتياط ؟ .

منذ أمد غير بعيد زارني رجل أميركي ، اسمه « جفرسون. استمنده » وعرّف نفسه بأنه ممثل المنظمة العالمية للقوى الروحية من أجل الانسانية .. ورغم أني لم أفهم أي معنى لهذه الطلاسم والكليات، وكيف تمثل القوى الروحية على الرغم من ذلك سكت وأصغيت لحديثه عسى أن أجد فيه التفسير والبيان ..

فابتدأ قائلا : ان أعضاء المنظمة العالمية للقوى الروحية للانسانية تحاول ايجاد هيئة من رجالات الاديان كافة على غرار الامم المتحدة مهمتها البحث في القوى الروحية والاخلاقية للانسانية ... وسألني أن أشترك في هذه الهيئة .

قلت : ان مشكلة الانسان اليوم هي تسابق الكتلتين القويتين الى التسلح ، وتخصيص المليارات والمقدرات لاسلحة الخراب والدمار بالجملة ، والناس تموت جوعا بالملايين في الهند وغير الهند ، فلماذا لا تهتمون بذلك ، وتحددون مسؤولية الانسان اتجاه أخيه الانسان ، وتحملون القوي على أن يعاون أخاه الضعيف ، ويأخذ بيده ، ويساعده على حل مشاكله بدل أن يمطره بالقنابل والصواريخ ؟ .. مع العلم بأن الهدف الاول للاديان هو سعادة الانسان ، ومراعاة الصالح العام ، والقضاء على الحروب الكبيرة والصغيرة بشتى أشكالها وألوانها . وأنا على استعداد لان أساهم في كل حركة تعكس الدين على حقيقته .

قال : ألم تحضر المؤتمر الاسلامي في الحجاز ؟

قلت : كلا ، أنا لا أعترف بهذا النوع من المؤتمرات التي تشكر تركيا صديقة اسرائيل ، وساعدها الايمن . وقد فهمت من سؤاله أنه أراد أن يقول : لماذا لم تتعرض المؤتمرات الاسلامية لذلك ؟

وصاغ الجواب بصورة هذا السؤال . ثم قلت له :

وأين المقر الدائم لهيئة الامم المتدينة ؟

قال : يقرر فيما بعد .

قلت : ان للامم المتحدة ميزانية مالية ضخمة تقوم بهـا الدول الممثلة فيها ، ومن يقوم بنفقات هيئة الامم المتدينة ؟

قال : نجمع لها التبرعات من المحسنين .

قلت : اذن ، تكون عرضة للمساومة ، وللتزايد ، وأداة طيعة لمن يدفع أكثر من غيره .. فسكت ، ولم يجد الجواب .. ثم قلت له : هل اجتمعت بغيري من علماء الشيعة ؟

قال : ابتدأت بك ، وغرضي أن أفاتحك بانشاء هيئة الامم المتدينة، ومعهد ببيروت للدراسات الدينية ، فهل تشترك بهذا المعهد ؟

قلت : اذا اطلعت على منهجه وأهدافه أبديت فيه رأيي ، ثم قلت له : أخشى أن يغرر بك ويغتر أنت بمن يلبس هذا الثوب ، وما هو من أهله في شيء ، ويجاريك ليحصل منك على ما يريد ، وينبغي أن تعلم بأنا لا نعترف الا بالمراجع الكبار وأسميتهم له بصراحة .

قال : سأذهب الـى النجف لمقابلة السيد الحكيم ، وأرجو أن تزودني بكتاب منك اليه فكتبت ان لدى الناقل بعض الافكار ، منها انشاء هيئة متدينة ، ويريد أن يعرضها على سماحتكم فالمرجو استقباله بما هو أهل . فأخذ الكتاب شاكرا .

وبالامس جاءني كتاب مطول منه باللغة الانكليزية قال فيه كما قال المترجم :

« ان تجاربي تغيرت منذ رأيتك ، واجتمعت بك ، وقد اتصلت في الشرق الاوسط وافريقيا بالكبار من الروحانيين ، أما الجواب الذي سمعته منهم فقد ألهب مشاعري ، ولدي الآن حوالات مالية لمراحل انشاء معهد أبحاث العالم الواسع الذي سيخضع لقوانين الولايات المتحدة ــ انتبه للفظ مراحل ــ لان ذلك ضروري للحصول على مال وهبات وعطايا من أجل التعاون ، وسأرسل لك بيانا عن مراحله وأرجوك

أن تتصل بي ، كما اني سأتصل بك ، وفي الحقيقة أن سروري عظيم بمقابلتك » .

وفي الحقيقة أيضا اني لم أفهم معنى لابحاث العالم الواسع ، كما اني لم أفهم وأهضم ممثل المنظمة العالمية للقوى الروحية ، ولكني أعلم علم اليقين أن أرباب الاهداف لا يكتفون بالمؤتمر الاسلامي ، ومؤتمر الفاتيكان ، ومجلس الكنائس ، وانما يريدون أن يوجدوا هيئة الامم المتدينة لتطهر الانسان من دنس الخطايا والذنوب ، وما الخطايا والذنوب في مفهومهم الا دفاع الانسان عن حريته وكرامته ، وحياته ومعيشته ، والوقوف في وجه الطامعين والمستغلين أما الحسنات وعلو الدرجات فلا يكون ولن يكون الا بالحفاظ على القديم والتقاليد التي تعود بنا الى حياة القرون الاولى حيث الجوع والجهل ، والذل والعبودية ، وهذي هي بالذات القوى الروحية والاخلاقية للانسانية .

وحتى نأمن التورط في هذه القوى يتحتم علينا اليقظة والتحفظ ، والنظر الى أمثال هذه الدعوات والتحركات بريبة وحذر .. حتى مع افتراض حسن النية والقصد من هذه التحركات .. وان هيئة الامم المتدينة تجمع وتنفع ومعهد أبحاث العالم الواسع سديد ومفيد ... حتى مع هذا الافتراض فان هناك ما هو أهم وأعظم .. نحن اليوم أحوج الى مدارس قرآنية بعد أن اختفى القرآن ، وتعاليم القرآن من المدارس والمعاهد ، والى توحيد كلمة علماء المسلمين وتعاونهم لسد هذا الفراغ ، والى حشد القوى والتضحية بالعنعنات والذاتيات من أجل الدين ، لقد رأينا بالعين ، ولمسنا باليد مظاهر الاستخفاف بالاسلام في أبنائنا ، وتمردهم على أوامره وأوامرنا ، ولا سر لهذا الاستخفاف والتمرد الا تنشئة الجيل في المدارس على الاعراض والابتعاد عن كل ما يمت الى الدين بصلة .

لقد آن لنا أن نتعلم من الغير الذي عمل وصبر وصمد ، ولم

يستسلم للظروف والمصادفات وبلغ الغاية التي أرادها ، وباركها كل مخلص لله ولدينه .. فهذي مدارس السيد العسكري ومعاهده في بغداد والكاظمية تشع بنور الدين والاسلام ، وتغرس في نفوس طلابها وروادها تعاليم القرآن ومبادئه الى جانب المعارف الزمنية واللغة الاجنبية ، أما مدارس السيد الشيرازي بكربلاء المقدسة لحفاظ القرآن الحكيم فانها الشجرة الطيبة التي أينعت ثمارها النافعة ، وأتت أكلها على خير ما يرام ، لقد زرت هذه المدارس في العام الماضي ١٣٨٤ هـ فرأيت بين أطفالها من الوعي الديني ما لم أعرف مثله في الكثير من الكبار ، وتمنيت لو انتشرت وعمت المدن والارياف .

ان قلب الطفل تربة طيبة وخصبة تقبل كل ما يغرس فيها ، وينمو بسرعة ، فاذا نحن أهملناها استغلها عدو الدين ، وانتزع منا ما هو أغلى من الارواح والاموال .. وهنا يكمن الخطر الجسيم ، ولا وسيلة للخلاص منه الا بتعميم المدارس القرآنية التي تغرس في النفوس حب الخير ، لا حب الوظيفة ، وتعاليم الائمة الاطهار لا تعاليم الملحدين والاستعمار ، ومن أجل هذا أسجل تقديري واكباري للسيدين : العسكري والشيرازي ، ولكل من سار ويسير على هذا الطريق القويم ، وان غضب الكسالى والمرجفون .

افتراء بعض المستشرقين على الاسلام

يوجد بين المستشرقين آفراد متعصبون مضللون ، كما يوجد فيهم علماء طيبون منصفون . اشتغل أولئك النفر باللغة العربية ، لغاية الدس والتجسس ، والقاء الفتنة والشقاق بين المسلمين ، وللطعن في الاسلام ، وتشكيك الشباب في دينهم وعقائدهم . كــل ذلك خدمة للاستعمار والمستشرين . ونحن لا نخشى على ديننا من مستشرق أو متحذلق ، بل ولا من الانس والجن ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، لان نور الله لا يطفأ بالافواه والاقوال ، وحصنه أمنع من أن ينال منه المبطلون .

فاذا ذكرنا طرفا مــن أقوالهم فانما نذكره للتفكيه والتسلية لا للجواب والرد ، وليعرف القراء مدى الجهل الذي بلغه أعداء الاسلام ، وأنهم اذا حاولوا الطعن فيــه ، والتبشير ضده لا يجدون وسيلة الا التحريف والتزيف والا الكذب والافتراء .

قال أدولف فيزمار : كان محمد يحمل الناس بالقوة والقهر على الايمان برسالته بدليل الآية ٩٩ من سورة يونس : « أفأنت تكره الناس على أن يكونوا مؤمنين »[١] .

لقد عكس هذا المستشرق معنى الآية ، وقلبه رأسا على عقب ، فان الله سبحانه أراد بها تسلية نبيه ، والتخفيف عنه بعد أن رأى منه التحسر والحرص على ايمانهم بالله ، فهي أشبه بقوله تعالى مخاطبا الرسول الاعظم : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » .

وقال الاب لامنس اليسوعي : اذا وافــق حديث مــن أحاديث الرسول بعض آي القرآن يحكم بأن الحديث موضوع ، وأنه دس على

(١) كتاب التبشير والاستعمار للدكتورين عمر فروخ ومصطفى خالدي ص ٣٦ .

النبي ! ! • وهذا هو الدس بعينه ، فقد اتفقت كلمة المذاهب الاسلامية على أن أحاديث الرسول بيان وتفسير للقرآن ، وأن من جملة الشروط لصحة الحديث والعمل به أن لا يصادم كتاب الله •

وقال المستشرق نولدكه : أن أوائل السور في القرآن مثل « ألم » ونحوها دخيلة على القرآن وقـد وضعت للاشارة الى أسماء بعض الصحابة الذين كان عندهم نسخ من سور قرآنية ، فالسين من «طسم» اشارة الى سعد بن أبي وقاص ، والميم من « ألم » اشارة الى المغيرة بن شعبة ، والهاء من « كهيعص » اشارة الى أبي هريرة ، والنون من سورة « ن والقلم » اشارة الى عثمان بن عفان[1] وهكذا •

ومستشرق آخر ، وهو الفريد جيوم أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن ألف كتابا أسماه « الاسلام » جاء فيه « أن محمدا في شبابه كان يقدم القرابين للات والعزي »[2] ويدل على كذب هذا القول ما تواتر من أن محمدا لم يعترف بصنم منذ طفولته ، فقد جـاء في قصة بحيرا الراهب أنه قال لمحمد ذات يوم ، وقبل أن يبلغ سن الرجال : يا غلام أسألك بحق اللات والعزي الا أخبرتني « بكذا » فقال له محمد : لا تسألني باللات والعزي فوالله ما بغضت شيئا بغضهما • وكا نبينه وبين رجل اختلاف في شيء ، فقال له الرجل : احلف باللات والعزي ، فقال له : ما حلفت بهما قط ، واني أعرض عنهما •

في سنة ١٩٥٢ جاءني أربعة طلاب وثماني طالبات ، كانوا يدرسون في احدى جامعات بيروت ، وكان هؤلاء في صف واحد ، فقال لهم أحد الاساتذة ، وهو يلقي الدرس : ان الاسلام يبيح للرجل أن يضرب زوجته ، وقد نطق القرآن بذلك ، فتصدى له طالب مسلم ، وأنكر عليه ، وأيد الاستاذ عدد من الطلاب والطالبات ، وكثر بينهم الاخذ

---

(١) كتاب « مع الله » للشيخ محمد الغزالي ص ٦٨ وما بعدها •

(٢) رسالة الاسلام العدد الرابع السنة العاشرة ص ٢٧ •

والرد ، فقال التلميذ المعارض : هلموا معي الى الشيخ مغنية نسأله ، فان لم يكن عنده ما يقنع فأنا معكم ، فأتوا الي وقصوا علي ما حدث .

قلت جاء في القرآن الكريم : « واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان الله كان عليا كبيرا النساء ٣٤ » . لقد جعل الله سبحانه حقوقا للزوج على زوجته ، فان نشزت وتمردت على الحق نصحها الزوج بالحسنى والكلام الطيب ، فان استمرت مع رغباتها وأهوائها هجرها في المبيت ، لان هذا الهجر جرح لكرامتها وكبريائها، فان أبت الا العناد ضربها ضربا غير مبرح ، ولا سبيل عليها ان استقامت على الطريقة المثلى ، بل ان الاسلام حرم ضرب الحيوان بدون سبب موجب .

لقد حدد القرآن نوع الصلة الزوجية بالمودة والرحمة . واعتبر الزوجة قطعة من نفس الزوج : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا .. وعاشروهن بالمعروف .. ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » . وفي الحديث : « الزوجة ريحانة وليست بقهرمانة .. استوصوا بالنساء خيرا فانهن عوان » .

ثم قلت للشابات : لستن من المعنيات بهذه الآية ، لانكن مهذبات متعلمات ، تقمن بالحقوق الزوجية والوطنية على أكمل الوجوه ، ولا تدعن مجالا للزوج وغيره أن يعاقب أو يعاتب . ان المعنيات بالآية الزوجات اللاتي لا يؤثر فيهن النصح والهجر . ولقد شاهدت بنفسي حين كنت في قرى الشعب كيف تتمرد الزوجة الجاهلة على زوجها وجيرانها . ولا يؤثر فيها ترغيب ولا ترهيب .

هذا ، الى أن من علماء النفس والتربية كالدكتور بنجامين سبوك وغيره يرون ضرب الاطفال أمرا ضروريا في تربيتهم . والكثير من النساء والرجال هم في عقول الاطفال ، ولا يختلفون عنهم الا في الشكل وكم

كان لدرة عمر من فوائد في ردع الباطل وزجر السارقين •

وبالتالي ، فان الغرض مما قدمناه من الامثلة أن نجلو وجه الحقيقة لمن يشايع جميع المستشرقين ، ويثق بأقوالهم ، ليكون على بينة من جهلهم وتحيزهم • ان المتعلم الذي يحترم نفسه وشهادته يغترف من الينبوع الصافي من كتاب الله وسنة نبيه ، ولا يشرب من كوز الاجانب الاباعد نقول هذا مع العلم بأن في المستشرقين منصفين لا يكتمون ما يعلمون •

من هو العالم ؟

اعتدنا أن ننعت بلفظ عالم وعلامة من درس الفقه وأصوله ، وكان له المام بقواعد النحو والبيان وقد تتسامح ويغلبنا الحياء أو الرياء .. فنطلق هذا الوصف على من دخل مدرسة دينية ، أو هاجر الى بلد فيه مدرسة دينية .

ولا أريد أن أناقش هذا الاصطلاح ، لاني سمعت فيما سمعت أنه لا مناقشة في الاصطلاح وان الجدال في التسمية ليست من دأب المحصلين ، ومعاذ الله أن أناقش أمرا ، وأنا أقلد غيري فيه منذ أمد بعيد ، وأكتب بيدي سيادة العلامة والفاضل الفهامة الى من يقول بالظنة ، ويحكم بالشبهة ولا يميز بين الحقيقة التي أثبتتها التجربة والعيان ، وبين اللمحة التي أوحاها قول فلان وفلان ، وقد يعتذر البعض ، ويقول : لقد وجدنا السلف يسمون هذا عالما ، ونحن على آثارهم مقتدون ، وعلى أية حال فان أمر التسمية ـ كما أشرنا ـ سهل يسير اذا عرف صاحب الاسم حده ووقف عنده ، ولم يخدع أو ينخدع بـه أحـد .

يقول بعض الغربيين «يعتقد الشرقيون بما يقوله زعماؤهم الموثوق بهم أكثر من أي مصدر آخر بينما يعتقد الغربيون بما تخبرهم عنه التجارب » أي أن العالم في نظر الغربيين يعتمد في ملاحظاته على الاختيار والتجربة ، ولا يثق الا بالواقع الملموس ، أما العالم في نظر الشرقيين فهو الذي يذكر رأيه ويدعمه بما حفظ من الاقوال والامثال ، فيثبت الوقائع وصحتها بالاقوال ، لا صحة الاقوال بالوقائع وعلى هذا القياس ، قياس عدم النظر الى الواقع .

قلنا : فلان عالم قوي الحجة ، لانه تناظر مع فلان فأسكته وأفحمه. وقد « تتواضع » ونقول : ألقمه حجرا ، أو « يتواضع » المتفوق نفسه فيعلن انتصاره على خصمه ، وان كان محقا ، ويفخر لانه استطاع أن يطمس الحق ، ويلبسه ثوب الباطل ، كأنما الغاية من العلم اظهار التفوق والغلبة ، لا معرفة الحق والايمان به .

وليس غرضي من هذا المقال أن أحدد مفهوم العالم ، وأشرح معناه اللغوي والاصطلاحي ، وان كان العنوان يوهم اني بهذا الصدد ، وانما غرضي أن أشير الى ما يمتاز به العالم الحكيم في طريقته وأسلوبه ، أن أشير الى أسلوب ذوي العقول النيرة الراجحة اذا دعوا الناس للايمان بأقوالهم وآرائهم ، ولا أطيل الشرح على القارىء فسأخفف عنه وعني أيضا بذكر مثال واحد ، ومنه يتبين أسلوب العالم الحكيم في تقرير الحقيقة ، واستدراج من أنكرها الى التسليم والاذعان ، قرأت في كتاب تلبيس ابليس لابي الفرج الجوزي صفحة ٤٠ طبعة سنة ١٣٦٩ هجرية ما يلي :

اختلف العلماء في أمر السفسطائية الذين زعموا أن الاشياء لا حقيقة لها ، فقال فريق : لا يجوز أن نناظر هؤلاء ونجادلهم . لان من يزعم أنه لا يدري أموجود هو أو معدوم ؟ لا يخاطب بشيء ، وقال ابن عقيل : لا ينبغي اليأس من معالجة هؤلاء ، فان ما اعتراهم ليس بأكثر من الوسواس ، وقد أخرجتهم عوارض انحراف مزاج . وما مثلنا ومثلهم الا كرجل رزق ولدا أحول يرى القمر في السماء قمرين ، فقال له أبوه : القمر في السماء واحد ، وانما السوء في عينيك ، فلم يقتنع الولد ، فأخذ الاب عصابة ، ووضعها على العين الحولاء ، وقال لابنه أنظر ، فلما نظر الولد ، قال لابيه : أجل ، اني أرى الآن قمرا واحدا ، لانك عصبت احدى عيني ، وكنت أرى القمرين بالاثنتين في كل عين قمرا ، فرفع الاب العصابة عن العين الحولاء ، ووضعها على الصحيحة ، وقال له : أنظر

الآن في الحولاء وحدها ، فنظر فرأى بها قمرين ، فعلم صحة ما قاله أبــوه •

أخذ هذا الاب الحكيم ولده بالروية ، وتدرج به خطوة خطوة ، حتى انكشف الستار واتضح الواقع كما هو ، ولو استعمل الشدة مع ولده ، وفرض عليه القول فرضا ، كما هو شأن الكثير من الآباء مع أبنائهم لبقي الولد على جهله ما دام حيا ، وبقي الوالد معذبا ، ما دام ولده يعتقد أن في السماء قمرين •

لقد نقم الدعاة الهداة ، حيث لم يجدوا اذنا صاغية لدعوتهم ، ومحال أن يجدوها ما داموا يفصلون بين الانسان وحياته ، وينحرفون به عن طبيعته وذاته ، ويرسلون أنفسهم مع الخيال ارسالا • قال الامام علي بن أبي طالب (ع) : ان العالم هو الذي يعرف الى أين ينتهي به الطريق ، والعالم بغير علم كالسائر على غير طريق ، فلا يزيده السير الا بعدا عن حاجته ، اذن العالم لا يطلب المحال ، واذا طلب ما ينال سلك سبيلا يوصله الى مطلبه عاجلا أم آجلا •

السيد عبد الحسين شرف الدين

ترد علي رسائل شتى من البلاد الاسلامية والعربية ، منها ما يتضمن أسئلة شرعية ، ومنها يرغب الي صاحبها في ابداء رأيي في مناظرة جرت بين اثنين ، ومنها يطلب مني كاتبها أن أرد على مفتر ينسب الى الشيعة الاعاجيب والاكاذيب ، وقد يطلب مني أرباب الرسائل أن أرشدهم على المفيد من كتب الشيعة ، أو يبدوا رأيهم حول ما أكتب وأنشر .

وفي صيف العام الماضي جاءتني رسالة من البحرين بشأن ما قيل من شعر ونثر في رثاء الفقيد السيد عبد الحسين شرف الدين ، ليطبع هناك في كتاب مستقل ، وليس لدي من ذلك شيء ، حتى كلمتي التي تلوتها في حفلة التأبين لم أحتفظ بصورة عنها ، وقد أخبرت أولاد الفقيد برغبة أهل البحرين . واليوم تناولت كتابا مؤرخا في ٤ / ١٠ / ٦٠ من محمد موسى الحاج عبدالله الحيدر آبادي في قطر جاء فيه :

« لاول مرة اطلعت على مؤلفكم الثمين ... ـ الى أن قال ـ نحن في بلد لا يوجد فيه كتب للشيعة الامامية بتاتا ... وقد رأيت كتابكم عند أحد الاصدقاء حين زرته في منزله ... نحن في هذا البلد لا نعلم شيئا عن مؤلفات الشيعة التي تطبع وتنشر على وجه البسيطة ، كما أنه لا يوجد لدينا مسجد ، ولا هناك أحد يتصدى لهذا العمل الخيري ... ثم ختم الكتاب بهذه الجملة الحزينة النائحة أرجو أن تفيدوني عن عنوان سماحة الامام السيد عبد الحسين شرف الدين .

وهذا ما دعاني الى كتابة هذه الكلمة .. لقد مضى على وفاة السيد أمد غير قليل ، ووقف قلمه منذ اختاره الله اليه ، ولكن الناس في أقصى البلاد ما زالت تسأل عنه ، وعن عنوانه ، ولا تسأل عن غيره من

العلماء على كثرتهم ، وفيهم من يرى نفسه أعلم منه في الفقه وأصوله فما هو السبب يا ترى ؟ !

ويكمن السر في قول الامام (ع) : « لا علم بلا عمل » لقد كان السيد شرف الدين عالما بحق ، لانه عامل ، وكان السيد محسن الامين عالما بحق ، لانه عامل ، ثم ذهب كل الى ربه ، وبقي مكانهما شاغرا ، لقد ذهبا ، ولكن بقي عملهما شاهدا على العظمة والخلود ، يراه الله ورسوله والناس أجمعين •

وليس من شك أننا في حاجة ماسة الى نوعين أو صنفين من العلماء : أحدهما للتفقه في الدين ، وبث الشريعة حلالها وحرامها على أهل المذهب • وثانيهما لاظهار عظمة المذهب واعلان حقيقته على الاجانب والاقارب ، ودفع الافتراءات والشبهات عنه ، ولدينا من الصنف الاول القدر الكافي وزيادة ، والحمد لله ، لقد توفي السيد أبو الحسن الاصفهاني فخلفه من السادة الكبار أكثر من العدد المطلوب ، أما الثاني فأندر من الكبريت الاحمر ••• توفي الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ، والسيد محسن الامين ، والسيد عبد الحسين شرف الدين ، فأحدثت وفاة كل منهم ثلمة في الدين ما زالت تنتظر من يملأها •

التقى هؤلاء الاقطاب بالعالم ، لا بالمقلدين والاتباع فحسب ، ونقلت عنهم فئات شتى في الشرق والغرب ، وعرف بهم البعيد أن في الشيعة معجزات من العبقرية ، وأن مذهب التشيع يقوم على أقوى وأمتن أساس •

وبالاختصار المفيد أن ما طلب لم يعرض ، وما عرض أكثر من المطلوب ، ان لدينا الكثير من الاصحاب الذين يعرفون الفرائض والسنن ، أما الذين نباهل بهم ، كما باهل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأهل بيته (ع) فأين هم ، بعد كاشف الغطاء والامين وشرف الدين ؟! ••

وقد يسمح الغد ، وما ذاك على الله بعزيز ••

الشخصيات التي لا تنسى

عرفتني دراستي الدينية بكثير من العلماء والادباء ، وعرفتهم بي ، واتخذت منهم أصدقاء لي ، كما اتخذوا مني صديقا لهم ، ومنهم من لا أنساه ، ولا يمكن أن أنساه : كالسيد حسن محمود الامين ، والشيخ محسن شرارة •

الشيخ محسن شرارة

في عام ١٣٦٥ هجرية ثكلت جبل عامل الشيخ محسن شرارة ولم يكن وحيد دهره وفريد عصره في العلوم والآداب ، ففي رجالنا من هو أكثر منه احاطة بقواعد الفقه وأصوله ، وفيهم مثله في تفهم الادب وأسراره ، وانما الشيء النادر بين شيوخنا وشبابنا هي شخصية الشيخ محسن فقد كانت له آراء يؤمن بها حتى كأنها جزء من قلبه ، ولم يكن في جميعها على صواب ، فكثيرا ما كنت أقف معه من أجلها موقف المعارض ، ومع ذلك فقد كانت مصدر حبي واكباري لشخصه اذ يظهر فيها بعقيدته الثابتة وشخصيته القوية ، ويسمو بأخلاقه عن أولئك المذبذبين أصحاب الشخصيات الرخوة المتقلبة لسبب ولغير سبب ، وان آراءه بكاملها سواء منها الخطأ والصواب تصدر من معين واحد من حب الطموح وحب التقدم والتطور من حال الى أحسن منها ، لقد مثلت شخصيته المحبوبة سجايا الانسان بطبيعته المادية والروحية ، فقد جمع الى حب الذات التضحية بكل عزيز في سبيل الواجب المقدس ، والى الرغبة في الظهور الصدق والوفاء والاعتماد على النفس واحترام شعور الغير •

وهل الانسان الكامل الا من خضع لناموس الطبيعة وأدى واجب

الروح والجسم معا ؟ ولست بحاجة أيها القارىء الكريم الى التعريف بالشيخ محسن اذا عرفت أنه حفيد الشيخ موسى شرارة وابن الشيخ عبد الكريم ، ان كثيرا من الناس تجاهلوا عظمة الشيخ محسن في روحه وخلقه ، ولما لبى دعوة خالقه سبحانه رددوا وعددوا مع من ردد وعدد فضائله ومناقبه ، وعلى أي الاحوال فقد تجمعت البلاد بكاملها يوم اسبوعه السابع واحتفلت بذكراه احتفالا باهرا ، شعاره الحداد والتقدير ، وانتهت الناس من ذكره ونذكره بانتهاء الاربعين يوما على يومه الاخير وكان نصيبه كنصيب غيره من العلماء والعظماء سنة الناس في العقوق والنسيان ، ولن تجد لسنة النسيان فيهم تبديلا •

السيد حسن محمود الامين

وفي شهر جمادى الاولى من عام ١٣٦٨ هجرية انتقل الى رحمة ربه السيد حسن محمود الامين ، فكانت وفاته خسارة في العلم والدين لا لانه أب من آباء العلماء وركن من أركانهم فحسب ، بل لانه استمد شخصيته القوية من العلم والدين لا من التمويه والخيلاء والغرور والرياء ؛ فلم يعتمد في حياته كلها على شيء أو يستعين بشيء أو يعتز بشيء غير الحق والدين . أخلص له اخلاص الانبياء فكان له عند الله والناس من المنزلة والكرامة ما للانبياء أنفسهم ، انتقل الى ربه فوقع نعيه على النفوس وقع الصواعق ، وخفت الحكومة والشعب للاحتفال بجثمانه المقدس وشهدت بيروت عاصمة لبنان تشييعا لم تشهده الا في القرن مرة أو مرتين •

وكنت ترجمت له في مجلة العرفان الغراء كما ترجمت للشيخ محسن ، وسأتناول ناحية في هذا المقام لم أتعرض لها من قبل ، ناحية تتصل اتصالا وثيقا بحياة العلماء في جبل عامل ، وتعبر عن عاداتهم الموروثة •

عندما يعود أحد رجال الدين من النجف الى عاملة ويحل قرية من قراها ، فأول شيء يفكر به هو وأهل القرية بناء دار تأويه وعائلته ، فيتعاونون وبعض أهل القرى المجاورة على ايجادها ويندفعون بحماس بالغ على حفر الاساس وقطع الاحجار ، ثم يفترون شيئا فشيئا كأعضاء من يلفظ آخر أنفاسه على فراش الموت حتى اذا بلغ البناء الاعتاب أو قاربها تركوه وحيدا لا ناصر ولا معين ، وقد يبقى سنوات يستغيث ولا مغيث ويشكو ولا مصغ حتى يبعث الله تعالى « ابن حلال » من المهاجرين أو الانصار المقيمين فينقذه من بلائه وحيرته .

أما سيدنا الجليل فلم يستعن بمقيم ولا بمهاجر ، فسكن عند وصوله الى قرية شقراء في بيت من بيوتها على سبيل العارية ، ولما احتاج الى البيت صاحبه انتقل منه الى سواه ، وبالتالي اضطر الى أن يسكن مع أهله في احدى غرف المدرسة المتداعية وأن يقيم حولها حاجزا من فروع الشجر ليحجب عن أهله أعين المارة والنظارة ، وبقي على ذلك أمدا غير قصير حتى أتاحت له الفرصة بناء دار في شقراء تمت بعد مضي أعوام . فكان كلما تمهد له السبيل لايجاد جزء أقامه غير متكل على معونة أحد سوى الله سبحانه .

وله في خربة سلم دار متواضعة بنائها وهندستها تتألف من غرف ثلاث ، اختص هو باحداها ، والثانية للعائلة ، والثالثة وهي الديوان[1] يستمع فيها الى اقوال المتخاصمين فيحكم بينهم بالعدل مصلحا بين الناس بالمعروف ، يحل مشاكلهم ويؤلف قلوبهم محذرا الباغي عاقبة البغي شادا ازر الضعيف . وفي هذا الديوان المتواضع يستقبل العالم والحاكم والزعيم والعامل والفلاح والتاجر ، فالحكام والزعماء

(١) في أقرب الموارد : « يطلق الديوان على المكان الذي يجتمع فيه لفصل الدعاوى او للتفاوض في الامور السياسية » ومن هنا اسمى العامليون الغرفة المعدة للاستقبال بالديوان لانه كثيرا ما يحصل فيها ذلك .

يستشيرونه في شأن البلاد وصالحها ، ويتبادل فيه الادباء طرائف الادب، ويتذاكر فيه العلماء الفقه وأصوله والتفسير والحديث ، تسيطر عليهم جميعا روح صاحب الديوان القدسية المرحة ، وفيه تقام الصلاة جماعة ، فاذا دخل وقتها وقف المؤذن ازاء الباب ، ودوى صوته في الفضاء : الله أكبر ، حي على الصلاة ، فيسارع المؤمنون الى الوقوف خلف امامهم صفا صفا كالبنيان المرصوص ، فينصرف بهم الى الله سبحانه متوسلا اليــه آن يهديه واياهم صراطه المستقيم وينعم عليــه وعليهم بالمغفرة والرضوان •

فالديوان هــو المحكمة العليا ، والمسجد الجامــع ، ومجلس الشورى ، وصالون الاستقبال ، وندوة الادباء ، ومعهد العلماء ، ومنزل الضيوف وغرفة طعامهم ومحل نومهم •

أما فرشه فليس في الديوان ما يصدق عليه هذا الاسم ، فلا موبيليا ولا كنبايات ولا سجاد بل ولا زجاج للنوافذ والابواب ، وكل ما فيه ويحويه حصر عتيقة تغطي وجه الارض عليها « طراحات » صغيرة وعلى أطرافها مساند من القش يعود تاريخها الى أكثر من عشر سنوات •

وأي حاجة الــى الديوان بالتحف والرياش والزهور والاثاث فحسبه هيبة وجلالا وعظمة وكمالا أنه للسيد الاعظم ، وكفاه مجدا وعزا الوفود التي تؤمه من كل حدب وصوب ، يتلقى هذه الوفود من حضر من آولاده الثلاثة بالترحاب والبشر يقف بين يدي الضيفان ينتظر أمرا أو اشارة ، واذا جلس أحدهم أخذ مقعده في طرف المجلس متأدبا متواضعا •

ولشد ما حاول الاب أن يهذبهم تهذيبا دينيا ، ويأخذ بهم طريق الآباء والاجداد ، فمني بما مني به غيره من علماء عصره الذين لــم يستطيعوا أو لم يعدوا العدة لمجابهة التيار الجارف ، فلم ير بدا من تعليمهم تعليما مدنيا سيرا مع منطق العصر، ونزولا على حكمه وفرارا من

الكسل والبطالة والالقاء بهم في معركة الحياة عزلا من غير ظفر ولا ناب ، وقد بذل في سبيل تعليمهم جهودا ناء بعبئها وتحمل ألوانا من مرارة الصبر وألم العوز ، ولم يفارق هذه الدار حتى أخذوا طريقهم فيها وعاشوا حاملين غير محمولين .

الشيعة وشيخ الازهر

كنا نتساءل : ما هو الشيء الذي سيفعله فضيلة الشيخ محمود شلتوت بعد أن تولى مشيخة الازهر ؟ هل يغير ويبدل من نظام الازهر ومناهج التدريس ؟ وهــل يقيم علاقات بــين جامعة النجف وجامعة الازهر ؟ وبكلمة جامعة : سيطبق فضيلته المبادىء التي أعلنها ونادى بها ودعا اليها قبل المشيخة والرياسة ، أو أن الظروف تحول بينه وبين ما يريد ؟ أي أن لكل حادث حديثا ـ مثلا ـ •

ومضى أمد ولم نقع على شيء يجيبنا على هذا التساؤل ، حتى قرأت حديث فضيلته لجريدة « المساء » تاريخ ١٧ /١ /١٩٥٩ وحديثه الثاني لجريدة « الشعب » تاريخ ٥ /٢ /١٩٥٩ • واذا بالاستاذ الاكبر يجابه الحقيقة وجها لوجه ، واليك الشاهد من حديثه الــى المساء المصرية :

« لا بد من تعديل الاوضاع في الازهر حتى لا يبقى في الآفاق الضيقة التي هو فيها الآن وأن نجتهد ونؤمن بأن حاجة اليوم في الفقه واللغة وعقائد الدين غيرها بالامس •• وأن فضل الله في الاجتهاد لم يكن وقفا على الاولين » •

ومن حديثه الى جريدة « الشعب » المصرية :

« وجد المستعمر ثقوبا نفذ منها ، وأخذ يعمل على توسيع تلك الثقوب ، حتى استطاع أن يلج منها الى وحدة المسلمين يمزقها ويفرق شملها ، وبذلك دبت فيما بينهم عقارب العصبية المذهبية ، وكان من آثارها السيئة ما حفظه التاريخ » •

وقال : « درست فيما مضى المقارنة بين المذاهب بكلية الشريعة

بالازهر ، فكنت أعرض آراء المذاهب في المسألة الواحدة وأبرز من بينها مذهب الشيعة ، وكثيرا مـا كنت أرجح مذهبهم خضوعا لقوة الدليل ، وكنت أفتي في كثير من المسائل بمذهب الشيعة ، وأخص منها بالذكر القدر المحرم من الرضاع[1] والطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع واحدا ورجعيا ، والطلاق المعلق لا يقع به التطليق أبدا كما لـو قال الزوج لزوجته ان خرجت من البيت فأنت طالق .

والباحث المستوعب المنصف سيجد كثيرا في مذهب الشيعة مـا يقوي دليله ، ويلتئم مع أهداف الشريعة من صالح الاسرة والمجتمع ، ويدفعه الى الاخذ به والارشاد اليه » .

وقال فضيلته : « لقد قر رأيي ان شاء الله على أن أعمل على تدريس الفقه الاسلامي في كلية الشريعة بجميع المذاهب الفقهية المعروفة الاصول البينة المعالم والتي من بينها دون شك مذهب الشيعة امامية وزيدية » .

وختم حديثه الى جريدة « الشعب » بهـذا النداء الى الامة : « وهانحن ندعـو باسم الله واسم كتاب الله واسم الوحدة الاسلامية وباسم الاعتصام بحبل الله ــ ندعـو علمـاء الفريقين الـى التقارب والمصافحة حتى نسد الثقوب علـى المستعمر ويعود الينـا مجدنا وشعارنا » .

وها نحن بدورنا نضم صوتنا الى صوتك أيها الجليل ، ونلبي دعوتك شاكرين ونصافحك مخلصين ، ونشهد على ما نقول الله ورسوله وملائكته والناس أجمعين .

لقد ولى عصر التفرقة ، والعصبية الدينية والمذهبية والعنصرية ، وأصبحنا في عصر الفضاء والذرة الذي قرب بين الشمس والارض ، وبين

---

(1) قال الشيعة : لا تثبت القرابة بالرضاع الا بشروط منها أن يرضع الطفل ١٥ رضعة من ثدي المراة او يوما وليلة من غير ان يفصل بين الرضعات من امرأة أخرى . وقال الاحناف : يكفي رضعة واحدة من أية امرأة عزباء كانت او متزوجة حية أو ميتة .

الجهات الست حتى أصبحت كأنها جهة واحدة ، وما زلنا نحن المسلمين نجد بيننا من يثير الفتن ويدس الدسائس ، وهو يحن الى الاجنبي الطامع ، والى هذا النشء الذي يفرّ من شيوخه ورجال دينه فراره من الاسد ، لقد ظن بعض الشباب بنا الظنون ، وقال عنا فيما قال ، وفي جملة ما قرأت :

ا نالانبياء كانوا مجددين حقا ، لانهم ثاروا على القديم ، غير أن أتباعهم المتمرسين على فهم الدين ونشر تعاليمه بقوا محافظين على ذلك القديم بالرغم من مرور القرون ، وبهذا استحال الدين من أنبيائه المجددين الى رجاله الجامدين ، لان الفكرة التي تكون جديدة بالقياس الى عهدها تصبح قديمة بالنسبة الى ما بعدها .

والحقيقة ان فينا من أعان هذا القائل علينا وعلى الدين وأسعفه بالادلة والبراهين،ولكن الذي يهوّن الخطب أن الجامدين منا لا يمثلون رجال الدين بكاملهم ، وان الاسلام لا يؤخذ من أفواه أمثالهم ، وانما يؤخذ من كتاب الله وسنة نبيه ومن بديهة العقل ، ومن القادة المخلصين الذين أدركوا الدين كما هو في واقعه ، لا كما يتصوره زيد وعمرو .

والاسلام نشأ ، بحمد الله ، لخير الانسان وحريته وسعادته ، وللثورة على الظلم والفساد ، فالاسلام اذن جديد أبدا ودائما كالشمس والماء والهواء ، ورجاله ، مجددون في كل عصر ما داموا مع الحقيقة التي لا تقاس بمقاييس الاهواء والرغبات .

ولا أدري لماذا لا تطيعني نفسي ، وان جاهدتها الا أن أعود الى الاستعمار ثانية ، وألعنه ثالثا وعاشرا ؟! أجل لا شيء أكثر فسادا وأعظم ضررا من الاستعمار اللعين ابن اللعين على لسان الله والطيبين . فعلينا نحن رجال الدين مسلمين ومسيحيين أن نقف له بالمرصاد ، ونحاربه بدافع من عقيدتنا وايماننا ، علينا أن نعلن مساوءه أينما حل ، ونصرخ في وجهه أين اتجه ، الى الكونغو أو كينيا أو الجزائر أو جنوب اليمن

أو فلسطين لا نفرق بين شعب وشعب مهما كان الدين ، لان الظلم حرام حتى على الجاحدين .

ان الانبياء كانوا يكافحون الموبقات في عصرهم والموبقات في هذا العصر كلها ترجع الى سبب واحد لا غير هو الاستعمار ، فعلينا أن نحاربه ونكافحه في الصحف والخطب والاندية الخاصة والعامة ، وبهذا نؤدي رسالة الدين بأمانة واخلاص ، ونكون مجددين كالانبياء والمرسلين الذين ثاروا على الاوضاع الفاسدة ، وناضلوا من أجل العدل والمساواة والسلام .

وبالتالي أقدم الشكر لفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الازهر ، وأذكره بوعده بتدريس الفقه الجعفري الى جانب فقه المذاهب الاخرى. وليس من شك أن التاريخ سيسجل لفضيلته هذه المنقبة بأحرف من نور ، لانها أجدى الوسائل الى التقارب والتجاوب والتضامن بين المسلمين . وقد رأينا كيف تتسارع الامم الى تبادل المعلومات وانشاء العلاقات الثقافية الى جانب العلاقات الاقتصادية والسياسية ، لان في هذا التبادل تنمو العلوم ، وتزدهر الحياة ، وتزول الحواجز . والسلام على الامام علي بن أبي طالب الذي قال : « أعلم الناس من جمع علوم الناس الى علمه » .

العرب واسرائيل بين روسيا وأمريكا

انـــا وه حزيران

ما مر علي يوم واحد منذ ٥ حزيران سنة ٦٧ الى يومي هذا الا وقرأت في الصحف ، واستمعت الى الاذاعات عن ذاك اليوم الاسود وذيوله وآثاره •• أقرأ واستمع ، ثـم أستغرق في التأمل والتفكير . فأتشاءم أحيانا ، وأتفاءل حينا ، وبالاصح اني متشائم دائما . ولكن تشاؤمي لا يبلغ حد اليأس ، لان المؤمن العارف لا ييأس على رغـم الانتكاسات والنكبات ، ويكفي لنفي اليأس أن نأمل في غلبة الخير على الشر ، ولو في حين من الاحيان •• فكم مرة خرجت الشدة من أحشاء الضيق ، والنصر من الهزيمة ، وفرق بعيد بين آن نأمل في تحفظ ، وبين آن نبني قصورا على الرمال •• وأيا كان الامر فان غرضي مـــن هذه الكلمة أن أسجل الافكار التالية :

امريكا واسرائيل

ان عطف اسرائيل على أمريكا من باب عطف التفسير ، أو عطف الخاص على العام ، لان اسرائيل ليـست سوى قاعدة عسكرية مزودة بكافة الاسلحة الحديثة ، أقامتها الولايات المتحدة لحماية مصالحها في بلاد العرب ، وأهمها شركات البترول التي يحتاج بقاؤها والاحتفاظ بها الى نصف مليون جندي أمريكي لولا وجود اسرائيل •• فليس مـــن المعقول أن يكون للولايات المتحدة شركات احتكارية في بلد من البلدان، ولا يكون الى جانبها قاعدة حربية ، أو حلف عسكري يحميها مـــن الثورات والحركات الوطنية ، وقد وجدت في اسرائيل غنى عن القواعد والاحلاف ، ولكي تصفي الصبغة الشرعية على قاعدتها هذه أسستها

بدولة اسرائيل ، وانتزعت الاعتراف من الدول ، وأدخلتها الامم المتحدة •• فاسرائيل ليست سوى قناع تختفي وراءه أمريكا ، تماما كما تختفي وراء الحكومات الوطنية العميلة التي تأتي بها أمريكا عن طريق المؤامرات والانقلابات •• فالذين يطالبون ببقاء اسرائيل انما يطالبون ببقاء العدوان الامريكي ، وشرعيته من حيث يشعرون أو لا يشعرون •

التعايش السلمي

قبل ٥ حزيران كنت أقول مع الذين آمنوا بأن عالم اليوم ينقسم الى كتلتين : شرقية وغربية ، تقف كل منهما موقفا مضادا لموقف الاخرى ، وبعد الخامس من حزيران تبين لي أن هذا التقسيم في غير محله ، لان من شرط التقسيم أن يكون بين الطرفين تضاد ، بحيث لا يتوارد الاثنان على شيء واحد ، ولا تضاد كلي بين الدول الشرقية التي تسمي نفسها بالاشتراكية ، وبين الدول الغربية الاستعمارية ، فرومانيا تعد نفسها ، أو يعدها الناس من الكتلة الشرقية ، ومع ذلك وقفت ضد العرب في حرب ٥ حزيران ، والتقت مع أمريكا الغربية ، وفرنسا من الكتلة الغربية ، وكان موقفها وما زال مع العرب ، والتقت مع روسيا الشرقية ــ اذن ــ ليس هناك كتلة شرقية ، وغربية كمبدأ يعمل به على كل حال ، وانما تقدم الدول أو تحجم ــ شرقية كانت أو غربية ــ بوحي من مصالحها الشخصية ، أما المباديء فما هي منها في شيء •• ان صاحب المبدأ هو الذي يضحي بنفسه من أجله ، أما من لا يعمل الا بوحي من منفعته الخاصة فهو نفعي ، لا مبدئي •

والصحيح أن عالم اليوم ينقسم الى معسكر استعماري يرى أن أية ثورة وطنية تقوم في بقعة من الارض فهي ضربة موجهة اليه بالذات •• والى حركات تهدف الى التقدم والتحرر من كل ما فيه شائبة الاستعمار والاستغلال ، وهذان الطرفان أو المبدءان قد توافر

فيهما شرط التقسيم ، لان التضاد بين الاستعمار والتحرر منه تضاد ذاتي لا يمكن بحال التصالح بينهما ، ولا التخفيف من حدة أحدهما ضد الآخر الا اذا تخلص من طبيعته .

وقد نادت الكتلة الشرقية بالتعايش السلمي مع الكتلة الغربية الاستعمارية باعتراف الشرقية نفسها ، ووقعت معها العديد من المعاهدات بصفة جادة ورسمية .. اذن فأين التقسيم ؟ . وما هو المبرر له مع هذا الوئام والانسجام ؟ .

وقد يقول قائل : ان هذه المعاهدات تضمن الامن والسلام .

أجل ، انها تضمن سلام روسيا وأمريكا فقط ؛ أما الشعوب الاخرى فهي في قلق وخوف أن يصيبها ما أصاب الكونغو وأنغولا والدومينيكان وفلسطين وفيتنام .

لقد أدرك الاستعمار الجديد أن حياته رهن باستمرار الحروب الصغيرة ، وان السلام الشامل الكامل معناه القضاء عليه ، والحروب الصغيرة في مفهومه هي التي تتيح لمعامله انتاج السلاح بصورة مستمرة، وتمكنه من ضرب الحركات التحررية في كل بلد أعزل ، وفرض ارادته عليه ، أما الذي يضاهيه أو يفوقه في السلاح فيجب الابتعاد عنه ، وعدم الاصطدام به وجها لوجه . ولكي يتحكم الاستعمار الجديد بالشعوب الضعيفة ويضرب الحركات الوطنية دون معارض ومنازع قبل بالتعايش السلمي مع الذي يخاف من قوته وسلاحه ، وهذا ما حصل بالفعل ، فلقد مارست أمريكا أعنف المعارك « الصغيرة » ضد الشعوب العزلاء ، ونكلت بحركات التحرر فيظل التعايش السلمي مع روسيا آمنة مطمئنة.

العرب وروسيا

قلت : ان التضاد والصراع انما هو بين الاستعمار ، وحركات التحرر ضد الاستعمار ، وليس بين الكتلة الشرقية والغربية ، وتقوم

الآن الولايات المتحدة بدور القائد للاستعمار الجديد ، وتمارس هذه القيادة عمليا ، وتطبقها بكل دقة ، أما حركات التحرر في العالم كله فانها حتى الآن لا تجد من يقودها بجد واخلاص ، كما وجد الاستعمار الجديد في الولايات المتحدة قائده الخبير الامين .

وتسأل : والاتحاد السوفيتي وتضحياته .

الجواب : ان الاتحاد السوفيتي مؤيد ومساعد لحركات التحرر ، وليس بقائد ، والفرق بعيد بين الاثنين .. ان القائد هو الذي يقود المعركة ويخوضها بنفسه ، ويتحمل جميع الاعباء ، ويشعر من أعماقه أن الضربة موجهة اليه بالذات ، وهذا ينطبق على أمريكا بالنسبة الى الاستعمار ولا ينطبق على روسيا بالنسبة الى القوى التورية ، ان روسيا تدافع عن الشعوب المناضلة ، وتقف معها في الامم المتحدة ، وتمدها بالسلاح والخبراء ، ولكن المساعدة والتأييد شيء ، والقيادة شيء آخر .

أما السبب الذي ألزم أمريكا بقيادة الاستعمار ، ولم يلزم روسيا بقيادة الحركات الوطنية فهو أن الاستعمار يزيد الانتاج الامريكي ، ويضاعف ثروة أصحاب الملايين في « وول ستريت » أما الحركات الوطنية فلا تزيد الانتاج الروسي شيئا ، واذا ساعدها الروس ، وأيدوها فانهم لا يفعلون ذلك لله ، وانما يفعلونه خوفا أن يمتد النفوذ الامريكي الى المعسكر الاشتراكي نفسه ، ومهما ارتفعت درجة الحرارة فيهم بسبب هذا الخوف فانها لن تبلغ مبلغ الحرص على زيادة الانتاج ، وتضخم الثروات ، ومن هنا دافعت أمريكا عن اسرائيل قاعدتها الاستعمارية دفاعا لا حد له ولا نهاية ، وأيدت روسيا العرب بمقدار محدود ، وبكلمة ان موقف كل من الدولتين في حرب الشرق الاوسط تفسره مصلحتها الشخصية ، وليس الحق والعدل والقيم الانسانية .

وأيا كان الامر فان موقف الاتحاد السوفيتي من العرب كان وما زال موقفا مشكورا بالنسبة الى موقف أمريكا وانكلترا في أزمة الشرق

الاوسط ، بل سد بعض الثغرات الهامة التي تركها يوم ٥ حزيران ولولا الروس لم يكن لدى العرب شيء من الاسلحة الدفاعية ولما وجدت الحركات الوطنية ناصرا ، له ثقله واثره ، أقول هذا مع العلم أن خلاص العرب بيدهم ، لا بيد الروس ولا غير الروس ، وان طريق هذا الخلاص ينحصر بالصمود والاستماتة في سبيل حقهم المشروع .. اقرأ الكلمة التالية « مرحبا بالموت » .

مرحبا بالموت

من يوم كربلاء حتى اليوم ، وحديث سيد الشهداء الحسين بن علي (ع) يدور على لسان الخطباء ، وتنطق به أقلام الكتاب والمؤلفين ، وسيبقى هذا الحديث حيا الى آخر يوم ، أما السر فيكمن في قوله : « هل هو الا الموت فمرحبا به » قال كلمته هذه وعاشها يصافح الموت وجها لوجه ، هو وأبناؤه واخوته وأصحابه ، لا يقبل مساومة ، ولا يتنازل عن شعرة من الحق ، أما الحق كاملا ، وأما الموت ، وعلى هذا عاش ، ومات أبوه من قبل ، وأثبتت التجارب في كل عصر أنه لا حياة كريمة الا لمن اتخذ هذا المبدأ شعارا يستهين في سبيله بكل عزيز .

ولا نذهب بعيدا ، فهذا شعب فيتنام الضعيف الاعزل أذل أقوى دولة في العالم بهذا السلاح ، سلاح علي والحسين « مرحبا بالموت » مع العلم أن الفيتناميين لا يقيمون للامام الحسين الذكريات والحفلات ، ولا يستشهدون في كفاحهم وجهادهم بأقواله ، ولكنهم في واقعهم على هديه ومنهجه ، أما نحن فنحتفل بذكراه ، ونحفظ سيرته وأقواله عن ظهر قلب ، ونرددها على المنابر ، وننشرها في الصحف ونؤلف فيها المجلدات ، ولكن لا نأخذ منها درسا ، ولا من صاحبها قدوة .. ومن هنا أفزع الشعب الفيتنامي أقوى الدول وأذلها ، وطمع فينا شذاذ الآفاق ، وذؤبان الامم .. وكان ما كان يوم ٥ حزيران .

ولا وسيلة لغسل هذا العار الا بمبدأ الحسين « مرحبا بالموت » أما انصاف الحلول فخضوع الذليل واستسلام الحقير ، قبلنا الحل السلمي ، ورفضته اسرائيل ، ولو كنا على مبدأ الحسين حقا لانعكست الآية ، ورفضنا نحن الحل السلمي ، وتهالكت عليه اسرائيل .

وأدرك هذه الحقيقة كثيرون من المفكرين وأرباب الاقلام ، وكتبوا عن نهضة الحسين ، واستوحوا منها الحل الوحيد لنكبة ٥ حزيران ، من ذلك كلمة بعنوان الحسين نشرتها جريدة أخبار اليوم المصرية تاريخ ١٦ / ١٢ / ١٩٦٧ ، ننقلها بالحرف فيما يلي :

تأثر في طفولته بحياة جده النبي المتواضعة ، وبكل ما تزخر به من قيم سامية .. وفي صباه كانت تعاليم أبيه ــ علي بن أبي طالب ، وغيره من الصحابة والانصار هي سبيله لفهم الاسلام على أنه دعوة الى الحق والعدل ، والحرية ، وعاش الحسين مدافعا عن هذه الاهداف الكبيرة ومن أجلها أصبح اسمه في التاريخ : سيد الشهداء .. وخلال رحلته في الحياة التي تستمر طويلا ، لم يتخل أبدا عن هذا المثل ، رغم كل صنوف الاضطهاد .

كان في وداع الصحابي الثائر أبي ذر الغفاري وهو في طريقه الى منفاه الاخير ، فتأثر بهذه النهاية لرجل لم يفعل غير الدفاع عن جوهر الاسلام الداعي الى العدل ، ومقاومة الطغيان .

وكان أيضا الى جانب عثمان ــ رغم الخلاف معه ــ يدافع عنه حين حاصره الثوار ، وظل يقاتل حتى سقط جريحا .

وفي معارك أبيه ضد معاوية ، ظل سيف الحسين يقاتل مؤمنا بعدالة هذا القتال ، وليس لمجرد أنه يدافع عن خلافة أبيه .

ثم كانت كلمات علي بن أبي طالب الاخيرة له ولاخيه الحسن ، وهو على فراش الموت « كونا للظالم خصما ، وللمظلوم عونا » .. ظلت هذه الكلمات تشكل صورة حياته واستشهاده ..

وعندما مات أخوه الحسن ، احترم الحسين قراره بمبايعة معاوية حقنا للدماء ، مقابل شروط ثلاثة :

ــ الناس آمنون حيث كانوا .

ــ أن يصل لكل ذي حق حقه .

ـ الخلافة بعد موته للحسن ، أو يكون الامر شورى بين الناس.

ولكن معاوية لم ينفذ هذه الشروط فبعد موته تولى ابنه يزيد الخلافة فعم السخط والغضب الجميع ، لظلمه وعبثه واستبداده ، ومن كل مكان انهالت الدعوات على الحسين ، تبايعه ، وتطلب منه مقاومة هذا الانحراف ، وخاصة من الكوفة بالعراق .

واستجابة لهذه الاصوات تحرك موكب الحسين ، وعند كربلاء على بعد خمسة وعشرين ميلا من الكوفة ، فوجيء الحسين بجيش يزيد بن معاوية يحاصره ، ويقطع عنه الماء .

ـ وجاء اليوم الحزين الدامي .. لقد حاول الحسين التأثير في قلوب رجال هذا الجيش ، ولكن أموال الامويين أحالتها الى صخر لا يلين ، ومضت ثلاثة أيام بلا ماء . ونظر الحسين حوله بألم . كان ابنه يرقد مريضا في رعاية شقيقته السيدة زينب ، تأكل الحمى جسده ، وفي حاجة الى جرعة ماء . وحاول الحسين الوصول الى نهر الفرات ، ولكن سهام جنود ابن معاوية انهالت عليه ، وأصاب أحدهما فمه ، فانتزعه الحسن بقوة ، وسالت الدماء تغرق يديه ، بدلا من الماء الذي سعى اليه.

وعرض على الحسين مبايعة يزيد ، كثمن وحيد لحياته ، ولكنه اختار الاستشهاد على خيانة ما يؤمن به .

وأخيرا دارت المعركة الاخيرة غير المتكافئة . ففي مقابل جيش يزيد الذي يفوق عدده الاربعة آلاف ، لم يكن مع الحسين أكثر من سبعين محاربا ، أرهقهم الحصار والظمأ . ومع هذا حاربوا بقوة جيش كبير ، وسقطوا الواحد بعد الآخر .. وبقي الحسين وحده يحارب ، وأخيرا ضربه أحدهم بسيفه على يده اليسرى فقطعها ، وانهالت السيوف والحراب والسهام ، وسقط الحسين ، وبوحشية لا مثيل لها ، تقدم أحد قادة الجيش المعادي ، فقطع رأس الحسين ، ووضعه فوق حربته ، ليذهب مع الاسرى من بيت النبي الى دمشق ، حيث ينتظرها يزيد بن

معاوية ! .

وهكذا اختتم الحسين حياته وهو في السابعة والخمسين في هذا المكان الحزين بكربلاء ، العام الحادي والستين من الهجرة .

زيــارة القبــور

ان تقديس العظماء بعد الموت نزعة فطرية في الانسان ، لا تختص بأهل الاديان وحدهم ، ولا بأمة دون أمة ، أو فئة دون فئة ، أو عصر دون عصر ، لقد قضى هذا العصر على كثير من العادات والتقاليد الا زيارة قبور العظماء ، فما حاول أو فكر مفكر في الغائها أو انتقادها .. وما زار رئيس دولة دولة أخرى في الشرق أو الغرب الا عين في برنامج زيارته وقت خاص لزيارة ما فيها من قبور العظماء وقبر الجندي المجهول ليوضع عليه اكليلا من الزهر .. حتى الشيوعيين الذين ينكرون المعاد يحرصون على هذا التقليد أشد الحرص .. فلقد دفنوا لينين في أفخم مكان بروسيا كلها ، ولا زالوا يتوافدون الى قبره بالملايين ، ووضعوا جثة ستالين الى جانبه ، ولما حاكموه بعد الموت أقصوها عنه غضبا عليه، وتحقيرا له ، لانه لا يستأهل هذه المنقبة والمكرمة .

وأضخم بنــاء في باريس وأرفعه علــى الاطلاق مقبرة العظماء « البانتيون » فقد بلغ علوها ــ على مــا نقل الراؤن ــ ١٨٠ مترا ، وكذلك مقبرة العظماء بلندن « وستمنستر » .

وأخبرني الاستاذ جورج جرداق أنه حين زار متحف فيكتور هيجو بباريس رأى أن الرجل الموكل بحراسة حذائه يتقن خمس لغات ، ويحمل ثلاث شهادات ليسانس .. والمبنى القائم على قبر كمال أتاتورك في أنقره لا يضاهيه أي مبنى في العاصمة الا مبنى البرلمان .

وقرأت في جريدة الاخبار المصرية عدد ٢١ / ١١ / ٦٦ : « أقيم نصب تذكاري على قبر جون كنيدي رئيس الولايات المتحدة ، وهذا النصب مصنوع من الجرانيت الوردي والرخام .. ويحيط بالنصب التذكاري

ممشى دائري عرضه ٦٠ مترا ، وجدار جرانيتي ، حفــر عليه بعض مقتطفات من خطابات كنيدي ، والى جانب التذكار شعلة دائمة الوهج ، يظهر ضوءها على مسافة ميل أو أكثر .. ويقول حراس قبر كنيدي : أن سيل الزائرين للقبر لا ينقطع ، وكثير منهم ينشج بالبكاء » .

أمريكا في طليعة الشعوب حضارة ورقيا تقيم النصب العالية ، وتشيد الصروح الضخمة الفخمة على قبور عظمائها ، وتشد الرحال لزيارتها ، وترسل الدموع مدرارا عندها ، ولا منكر .. فاذا ما فعل الشيعة ذلك بقبور آل الرسول الاعظم (ص) الذين استشهدوا من أجل الدين والانسانية قامت قيامة النواصب ، ونسبوا الشيعة الى البدعة والضلالة ، وتناسوا أن القصد من وراء ذلك قدوة الخلف بالعظماء ، وتوثيق الصلة بين الماضي والحاضر ، والرجوع الى الينبوع الذي تركه الصالحون لتنهل منه الاجيال المتتابعة .. والسلام على الامام زين العابدين ، حيث قال : « اللهم الحقني بصالح من مضى ، واجعلني من صالح من بقي ، وخذ بي سبيل الصالحين »[1] .

وهذا هو الهدف الاول من اقامة الصروح وتشييد القباب والمنائر الذهبية على قبور الائمة الاطهار ، وأهل بيت النبي المختار (ص) ، وهو ـ كما رأيت ـ هدف انساني يقره ويحبذه العقل والضمير ، لانه ارساء وتوكيد لقواعد الحق والعدالة ، والفداء والبطولة ، واحتجاج صارخ علــى الظلم والفساد والارهاب ، وحافز على الكفاح والجهاد لخير الانسانية وسعادتها .. وبقــول موجز ان اقامة الصروح علــى قبور العظماء، وتألق أسمائهم يعادل احياء تراثهم ، ونشر مبادئهم وفضائلهم.. ان كل ما يتصل بالنبي وآله ، حتى قبورهم وزيارتها معان حية ، لو تنبهنا اليها لامدتنا بالقوة ، وأضاءت لنا الطريق الى السعادة والرخاء .

---

(١) الفت كتاب « هذه هي الوهابية » للرد على أهل هذا المذهب الذين حرموا البناء على القبور ، وهدموا العتبات المقدسة في البقيع .

ومن المؤسف أن أكثر الذين يزورون العتبات المقدسة لا يتنبهون الى هذي المعاني النبيلة ، ولا يهتمون الا بالتضرع والتوسل بالقبر وصاحبه لقضاء الحاجات والعون على دفع الملمات[1] مع العلم بأن صاحب القبر لم يتوسل بميت في حياته كلها ، ولم يستعن الا بالله والسعي والكفاح ، لتحقق ما يبتغيه من فضل وخير .

وبالاضافة الى عظمة الاهداف لتلك الصروح فان تزاحم الجماهير حولها في المواسم مظهر من مظاهر الاخوة ، ومشهد يملأ نفس الجاحد رهبة ومهابة ، وروح المؤمن قوة وصلابة .. ولكن تلك التجمعات أيام الزيارات تذهب دون أن نستغلها ، وتستفيد منها بالتوجيه والتوعية الدينية والاجتماعية ، ولو تألفت هيئة خاصة تشرف على تنظيم الجموع ، وتختار لهم الوعاظ والمرشدين الذين يدركون الغاية من تقديس العظماء ، ويستلهمون العبرة من سيرتهم .. لو وجدت مثل هذه الهيئة لانتجت أطيب الثمار .

لقد مضى علينا نحن الشيعة أكثر من ألف وثلاثمئة عام نزور مرقد سيد الشهداء الحسين (ع) ونجتمع حوله بمئات الالوف ، ولم نفكر بالسبيل التي تؤدي بنا الى الاستفادة من مظاهر تلك التجمعات ، وما فيها من قوى وطاقات ، واذا جهلنا الطريق الى ذلك فلماذا لا نستفيد من تجارب الغير ، ونسير على نهجه فيما يعود علينا بالنفع والصلاح ؟..

قرأت في مجلة آخر ساعة المصرية عدد ٢٤ أغسطس ــ آب ١٩٦٦

---

(١) قرأت في مجلة المصور المصرية عدد ١١ أيار سنة ١٩٦٥ أنه وجد في قبر الشافعي رسالة من مدرس مصري يشكو زوجته ، ويطلب من قبر الشافعي انصافه منها ، ورسالة ثانية من مزارع سرقت نقوده يطلب من الشافعي ارجاعها ، ورسالة ثالثة من سيدة تشكو ظالما ، ورسالة رابعة من شرطي مريف يشكو رئيسه .. وقرأت في جريدة الاخبار المصريه عدد ١٩٦٥/٦/١٥ أن المصريين الطيبين يعتقدون أن الشافعي قادر على حل جميع المشاكل ، والشعراني متخصص بالمتاعب النفسية ، والسيدة نفيسة بأمراض العيون ، والمغاوري بالشفاء من العقم ، وسيدي يحيى ينتقم من الزوجة الثانية .

مقالا بعنوان في ميدان الحسين ، جاء فيه :

« ان أكثر من مليون ونصف مليون زحفوا الى القاهرة من جميع المحافظات ليشاركوا في مولد الامام الحسين ، ولكن صورة الاحتفال هذا العام كانت متغيرة تماما عن كل عام ... فلقد قرر المكتب التنفيذي بالقاهرة تطوير مولد الحسين هذا العام على أساس علمي ... ولا يمكن أن يترك تجمع جماهيري دون أن ينظم ويطور ، ومولد الحسين يضم أكبر تجمع جماهيري .. ولذا وضعت خطة العمل ، ونزل ٥٠٠ نسمة متطوعين ، وانتشروا في كل ميدان ، وتغيرت صور الاحتفال هذا العام ... ودارت الندوات الدينية والسياسية التي قام بها فريق من الوعاظ ، وتحدثوا عن المعنى الديني والسياسي لاستشهاد الحسين ... حتى صاحب الربابة كان يغني وينشد قصة الحسين ، وكيف ثار على الظلم ، وربط هذا ربطا ذكيا بالاوضاع الرجعية الماثلة في الوطن العربي » .

فهل المصريون أولى منا بالاستفادة من ذكرى الحسين ، ومولد الحسين ، أو أنهم أكثر منا تعمقا وتفهما لما تحويه التجمعات الدينية من قوى وامكانات ؟ .. ثم أي الرجلين أقرب الى الله والى أبي عبدالله سيد الشهداء : الرجل الذي زار قبره وبكى ، وقبل الحديد وتمسح به ، وكفى ، دون أن يتنبه الى المعاني النبيلة ، والاهداف السامية لزيارة الحسين ، أو الرجل الذي زاره وعاش لحظات بقلبه وعقله مع الحسين ، ونظر وتأمل واستلهم العظات من تضحيته بنفسه وأهله وأصحابه ؟ ..

ان الواجب يحتم علينا أن نحافظ على تلك الزيارات والتجمعات ، ونحرص عليها حرصنا على حياتنا ومقدساتنا ، لانها ذخيرة لا تقدر ، وكنز لا يفنى .. وعلينا في الوقت نفسه أن نستغلها لنشر الدين والتوعية ، والتحرر من الخرافة والاوهام ، لتكون التجمعات حول العتبات المقدسة ويوم العاشر من المحرم أكثر ايجابية ، وأعظم نفعا ،

وأوفر أجرا •

شيء آخر لا بد من الاشارة اليه ، وهو هذا المال الطائل الهائل يلقى في داخل القفص ، ولا يدري راميه لماذا يرمي به ؟ • وما هـو مصيره ؟ ••

وفي اعتقادي أن الافضل ألف مرة عند الله ورسوله وآل بيته (ص) أن يشبع به جائعا ، أو يكسو عاريا ، أو يعلم يتيما ، أو يطبب مريضا ، أو يرشد ضالا ، أويسد دين مدين ، أو يصلح شأنا عاما من شئون الناس أجمعين •

في مشهد الامام الرضا (ع)*

في مساء اليوم الاخير من رمضان المبارك من عام ١٣٨٢ هـ طرت من بيروت الى ايران دون أن أعلم أحدا من الاهل والاصدقاء[1] قاصدا زيارة الامام الرضا (ع) التي كنت أتشوق اليها من سنوات وسنوات .. وبعد ساعتين كنت في أوتيل لوزان بطهران ، ومكثت فيه ليلتين بغرفة مستقلة ، فتقاضى عن المبيت فقط لا غير ٩٢ تومان ، أي ما يقرب من ١٨ ليرة لبنانية ونصف عن كل ليلة .

وتناولت وجبة واحدة من الطعام ، وهي سيخ واحد من اللحم المشوي مع قليل من البطاطا المقلية ، وصحن زلاطة ، فأخذ ثمن هذه الوجبة مستقلا عن اجرة المبيت ٢٢ تومان ، وهي تعادل ما يقرب من تسع ليرات لبنانية ، واذا كنت لم أسافر الى أوربا وأميركا لاقارن بين هذا الغلاء الفاحش ، وبين اوتيلات باريس ولندن ونيويورك فاني أعلم أن بيروت هي عروسة الشرق على الاطلاق ، وان اجرة المبيت في أحد فنادقها الذي تشبه أوتيل لوزان لا تتجاوز الخمس ليرات ، وان الغذاء الذي دفعت عنه ٢٢ تومان أدفع عنه ليرتين فقط ببيروت على أقصى حد ، وان أجمل أوتيل في مصائف لبنان كأوتيل « كولبري » الواقع بين برمانا وبعبدات ، على جبل عال تحيط به الاودية والغابات من كل جهة يأخذ ١٦ ليرة لبنانية عن ٢٤ ساعة مع ثلاث وجبات من ألذ الاطعمة ، ومع تقديم الشاي والقهوة حين الطلب .

---

* نشرت في العرفان ايار ٦٢ .

(1) سألني أهلي : الى أين ؟ حين لاحظوا اني أهيء نفسي للسفر ، فقلت : الى ربع علي ، فظنوا اني ذاهب الى العلويين في سورية كعادتي ، لاني سافرت اليهم أكثر من مرة .

وبعد ليلتين ويوم كامل طرت الى خراسان مشهد الامام الرضا (ع) ، واستغرقت المسافة ساعتين ، وما أن دخلت خراسان ، حتى شعرت بأني خلقت خلقا جديدا ، كانسان تلقى العفو بعد أن حكم عليه بالاعدام ، وأيقن بالموت ، أو منطلق من سجن ، قضى فيه سنوات تحت الارض ، أما سبب هذه الفرحة المفاجئة ، وهذا الابتهاج اللاشعوري فلم أفكر به ، أو ألتفت اليه آنذاك •• وقد خيل الي الآن ، وأنا أكتب هذه الكلمات انه الاحساس بشرف التوفيق والهداية الى زيارة مقام الامام الرضا (ع) •

وزادني اطمئنانا واستقرارا في (مشهد) اني وجدت غرفة في أوتيل « سفيد » تجمع أسباب الراحة التي أريد ، فالامانة تامة ، والخدمة سريعة ، والنظافة شرعية ، والاسعار مناسبة ، بقيت في هذه الغرفة خمس ليال ، دفعت عن كل ليلة مبيت عشرة تومانات •

وفي اليوم الثاني أحسست بحافز يلح علي من الداخل ، ويحثني على البحث والسؤال عن الشريد الطريد شاعر الوجدان والانسانية الاستاذ صلاح الصاوي المصري أستاذ اللغة الانكليزية والعربية في كلية المعقول والمنقول بمشهد ، واليه يعود الفضل في تفهم طلاب الكلية لغة القرآن وشريعة الاسلام ، كما أخبرني النشيط المخلص عميد الكلية الدكتور مجتهد زادة ، أحسست بهذا الحافز ، فعزمت على مقاومته ، خوفا أن يعرف مكاني ويصون ما لا أريد ، ولكن عبثا حاولت . حيث تبخر العزم ، وضعفت عن المقاومة •• عندها قلت في نفسي : أشترط عليه التستر والكتمان •• وكنت أجهل عنوانه ، ولكني اهتديت اليه بعد لاي ، واشترطت عليه التجاهل والكتمان ، واذا سئل : من هذا ؟ يقول زائر من لبنان • فقبل بعد الالحاح والاخذ والرد ، ولكنه ضعف تماما كما ضعفت ، وعجز كما عجزت ، وأشاع وأذاع ، وكان الخير فيما فعل ، حيث تعرفت على أقطاب في الهداية الى الخير لا أعهد لهم نظيرا في تربية طلاب الدراسات العالية على الدين الصحيح ، والاخلاق الاسلامية ، وصدق الاستاذ صاحب

العرفان ، حيث قال في العدد الخاص بمقام الامام الرضا (ع) : انهم حملة لواء العلم والايمان[1] .

العلـم والايمان :

ليس بالعجيب و لابالغريب أن يؤمن بالله واليوم الآخر رجل تخصص بالعلوم الدينية ، ولا من غير المألوف والمعروف أن يصوم ويصلي من تحرج على آيات الله الاعلام ، والاساتذة في شريعة الاسلام ، بل الغريب أن لا يتعبد هذا ، ويتزهد .. وانما الغريب الذي لم نعرفه ونألفه أن نرى حامل شهادة الدكتوراه والليسانس من الجامعات الحديثة ، كالدكتور مجتهد زادة عميد كلية المعقول والمنقول ، والدكتور علي أكبر فياض عميد كلية الآداب ، والصاوي الشاعر أستاذ اللغة العربية والانكليزية ، أو من يلبس القبعة كالعلامة محمد تقي شريعت ، ثم يؤمن هذا الايمان الخالص ، ويعمل جاهدا ليل نهار لتوجيه كليته وطلابها الى الدين والطريق القويم الذي ينتهي بالطالب الى سعادة الدارين .

أما الدكتور مجتهد زادة فقد وصفه الاستاذ صاحب العرفان في العدد المزدوج السادس والسابع وصفا لا مغالاة فيه ولا محاباة ، فاني قد رأيت فيه بالاضافة الى العلم والوعي ، والجهاد والاخلاص الفطنة الخارقة ، والذكاء الذي يفوق المستوى العادي بكثير ، فانه يعرف حقيقة الشخص أيا كان من الجلسة الاولى ، ويكاد يكتشف بواعثه وأهدافه من أول نظرة ، حتى كأنه المعني بقول القائل :

« يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا »

أما الدكتور فياض فقد أخذت الصورة الحقة عنه من كتاب له أهدانيه الدكتور مجتهد زادة ، وهو محاضرات عن الشعر الفارسي ،

---

(1) قال لي عميد جامعة المعقول والمنقول الدكتور مجتهد زادة : لقد بذل الاستاذ نزار جهودا جبارة لوحده في هذا العدد ، ولو أعلمنا لتطوع لمعونته أساتذة الجامعات ، وأهل الاقلام من العلماء الافاضل .

والحضارة الاسلامية بايران ، ألقاها في جامعة فاروق الاول سنة ١٩٥٠ ، وأول ما تدل عليه هذه المحاضرات القيمة أن صاحبها عميد كلية الآداب بمشهد هو عالم قبل أن يكون أديبا ، عالم باحاطته واستقرائه لاقوال العلماء والادباء والمؤرخين القدامى والجدد من مستشرقين وغير مستشرقين، وعالم بمحاكمته لاقوالهم محاكمة دقيقة صحيحة ، وعالم بتحفظه واحتياطه حين يبدي أحكامه وآراءه .

أما العلامة التقي شريعت أستاذ التفسير في كلية المعقول والمنقول بمشهد فهو ملاك مقدس وروح طاهرة تجسدت في هيكل رقيق أبرته العبادات ، وأضنته المجاهدات ، يعتمر القبعة لا لشيء الا ليصطاد بها هذا الشباب الذي لا يرى الا القشور والظواهر ، لبس القبعة ليصون بها ألوف العمائم واللحى من سخرية الساخرين بأهل الدين لمجرد الملابس والمظاهر ، فقال لهم بلسان الحال : انكم تأبون وتنفرون من العمة والجبة ، فتعالوا الي هذه قبعتي ، وهذا بنطلوني على أحدث طراز .. فتقاطروا اليه من هنا وهناك ، وهو يصطادهم جماعات وزرافات ، ويتجه بهم الى الدين ، وشريعة سيد المرسلين ، ويملأ قلوبهم خشية ورهبة من جلال الله ، وتقديرا واخلاصا لعباد الله ، حتى المعممين .. وبكلمة أن شريعت نسيج وحده في الجهاد لبث الهداية ، والابداع في أساليب الدعاية ، ونسخة فريدة ليس لها ثان بين رجال العلم والدين فيما أعلم ، فجزاه الله عن الاسلام وأئمته وعلمائه خير الجزاء .

أما الاستاذ الصاوي فرغم أنه غريب وسليب فهو حبيب الكل ، فلقد فرض احترامه على عارفيه بخلقه الكريم ، واخلاصه لمهنته ، وأشعرهم بالفعل لا بالقول أنهم بحاجة اليه ، ولا غنى لهم عن مثله .

ولا يفوتني ، وأنا أذكر من تعرفت اليه من الطيبين الاخيار بمشهد معرفة شبه مفصلة أن أشير الى العلامة الشيخ محمد واعظ زادة أستاذ تاريخ الفقه الجعفري في كلية المعقول والمنقول فلقد تذاكرت واياه في

مسائل فوجدت فيه العالم المتواضع الذي يقول عن بينة . والاستاذ الموجه الذي يسهل على طلابه تفهم الشريعة وأحكامها .

وأيضا تعرفت ـ فيمن تعرفت ـ على العلامة السيد محمد علي نجل آية الله الميلاني الذي يجتمع حول منبره مئات العلماء والطلاب ، تعرفت على هـذا النجل الفاضل ، فتمنيت أن يكون جميع أبناء العلماء بخلقه وتواضعه ، وسمته وهديه ، عرفته فأكبرت بيته وتربيته ، تماما كما أكبرت عقله وأخلاقه .. ان بعض أبناء العلماء يريد من الناس أن تحترمه كأبيه لا لعلمه أو عمله ، لا لشيء الا لانه « آغا زادة » مع العلم بأن أباه لم يحتل مكانه الا بعد جهود مضنية وسنوات طوال ضاق فيها ألوانا وألوانا من المحن والارزاء .

مشهـــد :

وبعد ، فان الحديث عـن مشهد الامام الرضا (ع) طويل مشعب الاطراف ، فقد تقدم هذا البلد العظيم الامين الصفوف ، واحتل الصدارة مدى الاجيال ، وسجلات التاريخ حافلة بأسماء الشخصيات الخراسانية ، كالخواجة نصير الدين الطوسي ، والامام الغزالي ، والمحقق الخراساني صاحب الكفاية ، ومن اليهم ، وما زال ، حتى اليوم يعمل على نشر العلم وخدمة الدين ، ويأتي بأطيب الثمار وأنفعها ، ولكن بصمت وهدوء ، فان فيه من علماء الدين وطلابه ألفين ومئتين ـ كما أخبرني آية الله الميلاني ـ وتأتي مشهد في الدرجة الثانية من قم بايران ، وتشاركها والنجف الاشرف في كل ما لهما من خصائص وامتيازات .. والى جانب هذا توجد المدارس والمعاهد والكليات الحديثة ، وفيها الالوف من الاساتذة والطلاب .

ومن دواعي الاسف أن يكون لمشهد هذه المكانة ، ثم لا تحتل محلها اللائق بين الشعوب من الشهرة ، حتى عند الشيعة أنفسهم ، وأن لا تجد

من يعرف بها وبحقيقتها حتى من أبنائها[1] .

ومن هنا كان العدد الخاص من العرفان بمقام الامام الرضا (ع) كتاب الساعة ، فقد نوه بخطورة هذا البلد ، وآثاره الجليلة ، ولفت الانظار الى رجاله وأبطاله ، وكأن العناية الالهية قد حملت المغفور له الشيخ أحمد عارف الزين الى هذه الارض الطيبة ، لينتقل منها الى رضوان ربه ، ثم حملت ولده اليها لزيارة مقام الامام ، وقبر أبيه ليقدم للاجيال صورة حية قوية عن عظمة المشهد ومن فيه وما فيه .. واذا كان أهل خراسان ، وفي طليعتهم العلماء والاساتذة والوجهاء ، قد وفوا الشيخ عارف حقه فان ولده الاستاذ نزار قد رد لهم هذه اليد الكريمة ، وأجاب عن العرف والاحسان بالاحسان .

شيــخ بهــاء :

كنت أذهب الى الحضرة الشريفة مرة في النهار ، والثانية في الليل ، وبعد الزيارة والصلاة أجلس منفردا في بعض الزوايا ، وكانت تتوارد علي في هذه الجلسة أفكار وصور لا تمت الى عالمنا هذا بسبب قريب أو بعيد ، وذات مرة ، وأنا قابع في زاويتي رآني شيخ ايراني . فجلس الى جانبي . وقال : من أي البلاد ؟ . قلت : مـــن جبل عامل . فقال : به به ــ أي بخ بخ ــ شيخ بهائي رحمه الله . وكان اذا مر به زائر يقول له : تعال تعال ، وانظر هذا الشيخ فانه من بلد شيخ بهائي .

فقلت في نفسي : اذا سئلت بعدها فلن أذكر جبل عامل ، لاني هربت الى الله من الناس ومن نفسي وميولها ، ومن كل شيء ، هربت اليه سبحانه خائفا راجيا أن يرحم ويغفر ، وتوسلت اليـــه بكل سبيل ، حتى بالعفو

(1) أدرك هذه الحقيقة الدكتور مجتهد زادة ، فلقد رأيته يتحرق ألما ، ويقول : لا بد لنا من وسيلة توطد العلاقات ، وتؤكد الصلات بيننا وبين البلاد الشيعية ، بخاصة جبل عامل ، وأسأل الله سبحانه أن يحقق رغبته ، وتمنيت لو كتب الدكتور فياض ، أو غيره من أرباب الاقلام في مشهد مقالا مفصلا عن الحركة العلمية فيها ، ثم تتابع الاقلام في موضوعات شتى تتصل بالعرفان ، فانها أجدى الوسائل وأنفعها في هذا الباب ، وكل ما يتصل بالشيعة والتشيع .

والصفح عمن أساء الي ، ونالني منه أذى ، وانتهك مني حرمة ، عسى أن يكون ذلك صدقة مقبولة ، وعوضا عن منه تعالى وعفوه وكرمه ، أما من أدركته مني اساءة ، ولحقته مني ظلامة فقد توسلت اليه عز وجل أن يرضيه عني من فضله ، ويفيه حقه من خزائنه ، ويخلصني من جميع ما علي من ديون وغرامات له وللناس ، وما ذلك على الله بعزيز .. والذي جرأني على هـذا الطلب شعوري بأني لاجىء في أرض الامام (ع) مستجير بحرمه الشريف .

وفي اليوم الثاني احتجت الى ركوب التاكسي . ومـا أن تحركت خطوات ، حتى سألني السائق عن بلدي ؟ . فقلت : لبنان . فقال : به به .. شيخ بهاء .. فدمعت عيناي من غير شعور وأدركت للحين أن الفضل في احترام الايرانيين للعامليين مدى الاجيال يعود الى هذا العظيم .. ولكني فكرت مليا : ما هو السر لتعظيم هذا الشيخ وخلوده ، حتى يعظم ويكرم كل من ينتسب الى بلده وأرضه ؟ .. هل هو علمه وكشكوله ومخلاته ؟ . كلا ، فكم عالم كتب وألف ، ولم يكن له ما كان لهذا العظيم من القداسة والخلود . اذن لا سر الا تعلم لله ، وعمل لله وحده لا للشهرة ، ولا لمنافعه ومنافع أبنائه .

لبنان بلد الخبز والحرية :

وكنت اني توجهت في طهران ، وخراسان : في الحضرة المقدسة ، والاوتيل ، والمكتبة ، والسيارة ، والحانوت ، في المجالس العامة والخاصة ، وعرفت اني غريب من لبنان يوجه الي هذا السؤال ، وأظن أن الايرانيين يوجهونه لكل غريب ، وهو : هل تستطيعون التعبير عن أفكاركم بحرية ؟. وهل يجد العامل والكاسب السبيل الى الحياة الطيبة له ولاولاده ؟ وهل تعيشون في أمن وهدوء ؟ .

وكنت أجيب بأن كل لبناني يتمتع عندنا بالحرية الكاملة ، ويعبر عن أفكاره متى شاء ، وأين أراد في الصحف وفي المحافل ، ومن على المنابر ،

حتى الاكراد الذين يعيشون في لبنان ولا يحملون هوية لبنانية يعيشون بتمام الحرية ، وربما امتاز لبنان بأنه ليس للحكومة فيه صحيفة تخصها وتبرر أعمالها مهما كانت وتكون ، وانها تستمد قوتها من البرلمان فقط ، لا من الصحف وما اليها •

أما حياة العامل في لبنان فيكفي أن تعلموا بأن التلفزيون والبراد يوجدان في بيوت العديد من العمال ، وان العامل عندنا يأكل اللحم في أكثر أيامه رغم أنه يستورد من الخارج ، كما يأكل فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، أما الراديو فانها تماما منتشر كالساعات يحمله الراعي بيده أين اتجه بقطيعه ، وماسح الاحذية يضع علبة البويا أمامه ، والراديو الى جنبه ، وينتقل به البائع مع سلعته من مكان الى مكان •• هذا ، مع العلم بأنه يعيش في لبنان أكثر من مئة وخمسين الف عامل أجنبي. أغلبهم من السوريين •

أما حركة التعمير ، ومظاهر البذخ والترف في لبنان فلا تجدهما في أي بلد من الشرق اطلاقا •• اللهم الا في الكويت التي يشذ دخلها عن كل قياس ، لضخامته وضآلة المواطنين وبكلمة أن لبنان بلد الخبز والحرية •

فكان الايرانيون يتعجبون من ذلك ، لعلمهم بأنه لا بترول في لبنان ، ولا أراضي واسعة شاسعة ، ولا أرز ولا لحوم ، ولا صناعة سجاد ، وما الى ذاك •

هذه لمحة خاطفة ، ومجمل سريع لذكريات الليالي الخمس التي قضيتها في مشهد الامام الثامن (ع) ولو انتقلت بالقارىء من شعور الى شعور ، ومن صورة الى صورة ، ومن لفتات النفس الى وحي الضمير والعقل ، من بداية هذه الرحلة الروحية الى نهايتها لطال القول ، واستغرق كتابا لا مقالا أو مقالين •

والله سبحانه المسؤول أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين ، وأهل مشهد الاكرمين •

في القاهرة

سبب الرحلـة :

بعد أن انتهيت من بعض مؤلفاتي شعرت بضيق الصدر ، وشيء من الاعياء ، ورايتني بحاجة الى الراحة ، وترك القراءة والقلم الى حين ، تماما كما يحتاج المريض الى العلاج ، ولكن ماذا أصنع اذا لـم أكتب ، ولم أقرأ ؟ • هل ألهو برسم الالواح ، أو نظم الاشعار ؟ • ولست رساما ولا شاعرا •• أو أرتاد نوادي العلماء والادباء ؟ • ولا وجود لها في بيروت •• فلم يبق الا أن أجلس لوحدي غارقا في بحر من التأملات والتخيلات •• وهذا أسوأ عاقبة من الجهد والاعياء •

كنت في النجف برغم الفقر والبؤس أهدأ بالا ، وأكثر راحة مني اليوم •• واذا غبطت يومذاك من يعيش بلا مضايقة الدائنين ، فاني اليوم أغبط كل من يجد التسلية والترفيه ، ولو ساعة من يومه •• ولست أعرف أسلوبا في الدراسة يبعث النشاط والحيوية والرغبـة في نفس الطالب ، كالاسلوب النجفي •• فالاستاذ يسير على سجيته مـع طلابه ، ويرسل الطرائف والنكات بين فترة وفترة . فيبقى الطالب مع أستاذه ، حتى في أنفاسه وحركاته وسكناته •• واذا قرأ الطالب ، أو كتب موضوعا مـن الموضوعات ذاكر زملاءه ، واشتركوا جميعا في عملية التفهم والتفكير ، فاحساساته ، وانفعالاته تجـد دائما في النجف مـن يتجاوب معهـا ، ويستمع اليها •

اما أن يكتب انسان ، أي انسان في عزلة ، أو يقرأ ويفكر في عزلة ، دون أن يجد من يتجاوب معه في أفكاره وشعوره ، أو يسكن اليه من أتعابه وأوصابه ، أما هذا فلا بد أن يصيبه العناء والاعياء ، مهما كانت

الدوافع والمغريات •• والصلاة والسلام على من قال : « ان هذه القلوب تمل كما تمل الابدان ، فابتغوا لها طرائف الحكم » •

وقد ابتغيت سبيل الفرار من الملل ، فلم أجده بلبنان ، فعزمت على السفر الى القاهرة ، واخترتها لاسباب ، منها اني لم أزرها من قبل ، ومنها اني أستطيع فيها العزلة والتنكر الذي أحبه وأهواه •• وقررت أن أمكث فيها ١١ يوما ، أتنكر في ثمانية أو تسعة ، وأعلم الاصدقاء بمكاني فيما بقي ، وطرت اليها من بيروت مساء ١١/١٠/٦٣ ، واستغرقت المسافة حوالي ساعة •

مسجد الامام الحسين :

ركبت التاكسي من المطار الى فندق قصر النيل ، وفي الصباح ذهبت الى مسجد الامام الحسين (ع) ، وقد بلغ الغاية في العلو والسعة طولا وعرضا ، وفي الحائط الجنوبي باب من الساج محلى بخطوط من الفضة ، يؤدي الى غرفة كبيرة في وسطها قفص من النحاس ، تعلوه قبة ضخمة ، والناس يطوفون بالقفص ، يقبلونه ، ويتضرعون الى الله بالدعاء ، ويسألونه قضاء الحاجات ، وما أن دخلت هذه الغرفة ، حتى اهتزت أعصابي هيبة ورهبة ، مع علمي بأن الحسين (ع) مدفون في كربلاء ، لا في القاهرة[1] ، ولكن مجرد اسم الحسين يلهب النفوس ، ويفعل فيها فعل السحر •

وقد دمعت عيناي ، وأنا أنظر عجوزا قابضة على القفص بكلتا يديها ، وتقول : هو وديعتك يا ابن رسول الله •• فظننت أن لها ولدا مريض أو غائب •

---

(١) المعروف ان الفاطميين هم الذين أوجدوا هذا المقام لدواع سياسية ، والا فان الحسين مدفون في كربلاء حيث قتل ، وان كان من خلاف فهو حول الراس الشريف ، وانه دفن بالشام ، او أعيد الى مكان الجسد المقدس . ومن الطريف اني قرأت كتابا منذ أكثر من ثلاثين عاما لشيخ ازهري حاول المؤلف ان يثبت دفن الحسين في القاهرة ، ولا دليل له الا زعمه بأن جده الرسول الاعظم يزور المقام في القاهرة كل ليلة جمعة ، وقد شاهده أكثر من واحد .. وقد نسيت اسم الكتاب وصاحبه .

ورأيت رجلا كهلا واقفا اتجاه القفص ، ويشير اليه بيده ، ويحده بنظراته ، ويخاطبه بصوت خافت ، ثم يقف بين لحظة وأخرى على أصابع قدميه .

ورأيت طفلة لا تتجاوز الثامنة مـن عمرها تقبل القفص ، وتدعو بحماسة الاطفال وبراءتهم .

وعلى الاجمال فان الصورة التي شاهدتها في القاهرة لا تختلف في شيء عما كنت أراه في كربلاء من الشيعة ، انها واحدة ، لان المصدر واحد ، وهو اعتصام المسلمين كافة بالآل الكرام ، عليهم أفضل الصلاة والسلام ، والتقرب الى الله ورسوله بحبهم وولائهم .

وبجانب الغرفة التي فيها القفص مسجد خاص بالنساء يجتمعن فيه بعد الزيارة للدعاء ، وتلاوة القرآن . وقد رأيت بينهن الكثيرات مـن الشابات ، تماما كما هي الحال في كربلاء والنجف .

ولما ذهبت الى المقام المنسوب الى السيدة زينب رأيت الناس يقبلون الاعتاب والابواب ، ويطوفون حول القفص ، تماما كما يفعلون عند المقام المنسوب الى أخيها ، ورأيتهم يتزاحمون ويتسابقون الى وضع أيديهم على اسمها الشريف المكتوب علـى القفص ، ثـم يمسحون بهـا وجوههم وصدورهم ، تماما كما يفعل حجاج بيت الله الحرام بالحجر الاسود .

وغريبة الغرائب أن بعض الكتاب من أبناء السنة يهاجمون الشيعة ، لانهم يزورون ، ويتبركون بمقامات أهل البيت ، وينسون أو يتناسون ما يفعله أبناء طائفتهم في المقام المنسوب الى الحسين ، والمقام المنسوب الى السيدة زينب ، مع العلم بأن ما يفعله الشيعة بكربلاء والنجف هو عين ما يفعله السنة بالقاهرة ، مع فارق .

الازهـــــر :

ذهبت من مسجد الحسين الى الجامع الازهر ، وهو قريب منه ، لا

فاصل بينهما الا عرض الطريق ، وكنت قد تخيلت الازهر عظيما في علوه وسعته ، وانه يغص بالعلماء وحلقات الدرس ، فوجدته دون ما تخيلت بكثير ، حتى شككت وساءلت نفسي : هل أنا في الجامع الازهر ؟ ..

ومهما يكن ، فقد رأيت شيخا مسنا ، وأمامه أفريقي أسود متكيء على احدى يديه مادا رجليه ، والشيخ يلقي عليه درسا في حروف الجر ، ويقول : يدخل حرف الجر على الظاهر ، كأقسم بالله ، وعلى المضمر كأقسم بك ، وشيخا آخر يدرس شابا افريقيا في المذي والوذي ، ويقول : انهما ينقضان الوضوء ، ولا يوجبان الغسل ، كما هي حال الجنابة . ودخل وقت العصر ، وأنا في الجامع ، فأقيمت صلاة الجماعة ، وبعد أن انتهى الامام تقدمت منه ، وقلت : المرجو أن تعطيني صورة عن الازهر .

فقال : الكعبة واحدة ، والازهر واحد .

قلت له : والله واحد .. فأصبح لدينا أقانيم ثلاثـة : الله والكعبة والازهر ، كما يقول النصارى .

فقال : كلا . أولئك يقولون : الرغيف والقرش والبطيخ شيء واحد ، وهذا لا يكون ولن يكون أبدا .

ثم قلت له : أتعرف شيئا عن الشيعة ؟ .

قال : هم زائغون .

قلت : من أين عرفت انهم زائغون ؟ .

قال : هكذا يقال .

قلت : وأنا أقول : انك زائغ ، فهل تأخذ بقولي ؟ .

ففتح كفيه ، وقال : اقرأ الفاتحة .. فقرأتها معه ، ومضى لسبيله .. وتنقلت في الاروقة المحاطة بالجامع التـي كان يسكنها الطلاب الغرباء ، فرأيتها قد هجرت وتركت للعصافير والدراويش.. فسألت : أين الطلاب ؟. فقيل لي : أما الدراسة ففي جامعة الازهر ، وهي قريبة من الجامع ، وأما الطلاب الغرباء فقد بنيت لهم مدينة خاصة تدعى مدينة البعوث .. فذهبت

الى الجامعة ، وتنقلت في كلياتها الثلاث : كلية أصول الدين ، وكلية اللغة العربية ، وكلية الشريعة ، وحاولت أن أحضر الدرس في صفوف هـذه الكلية ، ولكن الدراسة فيها لم تكن قد انتظمت بعد .

وفي اليوم التالي ذهبت الى مدينة البعوث وهي بنايات عديدة ، كل واحدة منها من أربعة أدوار ، وفي طرفها مسجد حديث ، وفيهـا دكان حلاق ، وآخر سمان ، وثالث لماسح الاحذية ، ويحيط بالمجموع سور ، له باب يقف عليه شرطي ، وبالقرب منها مدرسة كبيرة ثانوية ، وقد أنشئت المدينة والمدرسة للطلاب الغرباء الذين يقصدون الازهر للدراسة ، ودخلت احدى الغرف فعددت بها ٢٦ سريرا لـ ٢٦ طالبا .

وسألت بعض الطلاب ، فقال : نحن هنا نبلغ الالوف ، وأكثرنا من افريقيا ، كالصومال ، ونيجيريا ، ودكر ، وليبيا ، والجزائر ، والمغرب ، وفينا من اليمن والجزيرة العربية ، وأندونيسيا وغيرها ، وفي المدينة مطبخ للعموم ، يتناول الطالب منه ثلاث وجبات في اليوم ، ويتقاضى مـن ٥ جنيهات الى ١٥ حسب رتبته ، وبعد أن ينهي الدراسة الثانوية يدخل في احدى كليات الازهر .. وقد بنيت مدينة البعوث بدلا عن الاروقة التي كان يقيم فيها الغرباء .

وزرت جامعة القاهرة ، وجامعة عين شمس ، وما عرفت أحدا باسمي، وما عرفني أحد ، ولله الحمد ، وقال لي أستاذ في كلية الآداب : هل أنت ايراني . قلت : لا . قال : عراقي . قلت :لبناني . فأهل ورحب ، وأثنى على لبنان وأهله .. ثم قال : أتعرف عبد الجواد مغنية ؟ . يقصد محمد جواد . قلت : نعم . قال: كيف هو ؟ قلت : بخير . قال : انه رجل طيب وفاهم . قلت : وما أدراك به ؟ . قال : عرفته من آثاره ، وأخذ يتحدث عنها . قلت : بارك الله بك وبه .. وقد سررت ، وأنا أستمع لقارئي دون أن يعرفني بالذات .

حديقة الحيوانات :

وذهبت الى حديقة الحيوانات ، ورأيت فيها الفيل وخرطومه الطويل، ونابيه الناتئين ، وأذنيــه الواسعتين ، ورأيت الزرافة ، فتذكرت شارح الالفية ، وتمثيله لتعدد المبتدأ بقوله : الزرافة يداها أطول من رجليها ، ورأيت فرس البحر الذي يلتهم عيدان القش ، وكأنها مهلبي ، وذا القرن الواحد ، والنعامة التي هي بين الطيور كالجمل بين الحيوانات ، الى غير ذلك ، وما أن رأيت الاسد ، حتى شعرت بحسرة شديدة عليه ، انه يجد الطعام والشراب في سجنه ، ولكنه لا يجد فطرته وطبيعته التي يجدها في الغاب حرا طليقا •

دار الكتب :

وزرت دار الكتب المصرية ، وهــي بناية كبيرة ، فيها قاعة واسعة للمطالعة ، وأخرى للفهرست ، وجناح خاص للموظفين ، وغرف عديدة ملأى من الكتب المتنوعة ، ومنها مخطوطات يعود تاريخها الى القرن الاول الهجري ، وأخرى الى القرن الثاني ، وبينها مصحف من رق غزال ، جاء في آخره « خط الامام جعفر الصادق » •

ورأيت فيها الكثير مــن كتب الشيعة في الفقه ، كقواعد العلامة ، والجواهر ، والمسالك ، والحدائق ، والمكاسب ، ومختلف الشيعــة ، والتذكرة ، وغيرها ، وفيها من كتب الحديث الكتب الاربعة ، والوسائل ، وعلل الشرائع ، وفيها كتاب البحار للمجلسي . وبعض كتب الاصول ، وغير ذلك •

وقال لي موظف في الدار : لماذا تبحث عن كتب هؤلاء ؟ • قلت : ولماذا هذا السؤال ؟ • قال : انهم يفضلون عليا على محمد ، ويقولون : ان الله أنزل سورا بعد النبي على علي • فقلت له : لا يحضرني شيء لجوابك الا أنك لا تفهم •• قال : أنا عرفت ذلك ممن يعلم ويفهم • قلت : سل شيخ

الاسلام عندكم الشيخ شلتوت ، لتعرف انك ، ومن قال لك ذلك أجهل الناس بالشيعة .

المساجـــــد :

كان الناس فيما مضى يرون الدين جزءا من حياتهم ، بـل كانوا يشعرون بأنه لا حياة لهم بدونه ، أما اليوم فيهتم أكثرهم ، أو الكثير منهم بتوفير العيش وتأمينه قبل كل شيء .. وكان الحاكم ، وما زال يتقرب الى المحكومين بالشعارات التي تعبر عن مقاصدهم وآمالهم ، ومن هنا تسمى حاكم الامس بالناصر لدين الله ، والمتوكل على الله ، وما الى ذاك من الالقاب ، وتسابق الحكام الى تشييد المساجد والمعابد .. ونادى حكام اليوم بالاشتراكية والقومية والوطنية .. ولو اهتم اليوم الناس بالدين ، كما اهتموا به بالامس لرأينا المسئولين في هـذا العصر يلقبون بالظافر والمستنصر ، ولبنوا المساجد والمعابد ، وأهملوا المصانع والمعامل ، تماما كما فعل الذين كانوا من قبل .

ان الحاكم الذي بنى المساجد بالامس لم يبنها تقربا الى الله ، ولا حبـا بالدين ، ولا الذي أنشأ المصانع اليوم أنشأها لمحاربة الفقر وسد الحاجات ، وانما فعل كل من السابق واللاحق ما فعل بدافع الاحتفاظ بالكرسي وكفى .. والا بماذا نفسر تجاهل حكام اليوم للدين ، واهتمام حكام الامس به ؟ .. بماذا نفسر اقامة مسجد أنفقت عليه الملايين ، كالجامع الاموي بدمشق ، وجامع ابن طولون ، وجامع محمد علـي بالقاهرة ، وملايين البائسين لا يجدون لقمة العيش ؟ .

ذهبت الى جامع محمد علي بالقلعة ، وما أن رأيته ، حتى تمثلت لي أكياس الذهب التي رصدها لتنفيذه .. يرتفع سقفه في علو شاهق ، تعلوه قبة كبيرة . كأنها بناية في رأس جبل ، وتحيط بها القباب من كل جانب ، وأمامها مئذنتان رفيعتان قد بلغتا في الفن ، ودقة الصنع ، أما صحن الدار

فيمتد أمام جدرانه الثلاث ايوان جميل يقوم على اسطوانات من المرمر •

بنى محمد علي هذا الجامع الى جانب جامع السلطان الناصر الذي يفوقه سعة وضخامة ، وان كان دونه فنا وجمالا •• وذهبت من مسجد محمد علي الى مسجد السلطان الناصر ، ومنه الى مسجد الرفاعي ، وهو قديم البناء ، وكبير جدا ، ومفروش بالسجاد الفاخر •• ورأيت حوله سرادقات مضروبة ، وأعلاما منصوبة ، وجمعا من الرجال والنساء والاطفال يضربون الدفوف والصنوج ، ويرقصون ••

فقلت : ما الخبر ؟ • قالوا : اليوم مولد الرفاعي •

وأضخم المساجد التي رأيتها في القاهرة مسجد ابن طولون ، فانه أشبه بقلعة منه بالمسجد ، وبكلمة ان القاهرة يصدق فيها القول : انها مدينة المساجد والمآذن •• ومصر بوجه العموم بلد متدين ، يؤمن بالله واليوم الآخر ، فالمساجد تكتظ بالمصلين في أوقات الصلاة على سعتها وكثرتها ، وقد شاهدت الكثير من سائقي السيارات يتركون سياراتهم جانبا ، وينتصبون للصلاة على أرصفة الشوارع ، وكنت ذات مساء في المطعم ، وما أن سمع الخادم الاذان ، حتى ترك عمله ، واتجه الى القبلة يؤدي المكتوبة •

للاستطلاع :

بقيت تسعة أيام متنكرا ، لا أعلم أحدا باسمي ومكاني ، واذا صادف ، وسألني سائل أقول : لبناني ، ولا أزيد •• واللبناني محترم في مصر ، وفي كل بلد في الشرق والغرب ، فلبنان على صغر حجمه كبير وعظيم في طبيعته وتاريخه ، وفي صلاته وتفاعله مع العالم ثقافة وسياسة وتجارة ، فكلمة لبناني ولبناني تعبر عند القريب والبعيد عن الفن والجمال ، وعن الحرية والوعي ، والتقدم والحضارة ، ويعلم الجميع أن عملية التطور في البلاد العربية انطلقت أول ما انطلقت من لبنان ، وانه كان المدرسة الاولى

لكل بلد عربي بخاصة مصر ، ويشهد بهذه الحقيقة المقتطف ، والاهرام ، والهلال ، فانها مصدر النهضة بمصر ، وهي لبنانية حسبا ونسبا .

كنت أخرج من الفندق الساعة السابعة صباحا ، وأتمشى ساعة ، أو أكثر على شاطىء النيل ، أو على أحد الجسور التي تربط بين جانبيه ، ثم أنتقل من حي الى حي ، ومن شارع الى شارع ، من روض الفرج الى أمبابه ، ومن شارع ٢٦ يوليو الى منشية البكري ، ومن الجيزة والبرج العظيم الى ميدان التحرير ، وفي ذات يوم استأجرت قاربا صغيرا النهار بكامله ، وانتقلت به من جزيرة الى جزيرة في القناطر الخيرية ، وغيرها ، وطلبت من صاحب القارب أن يهيىء الغداء من سمك النيل الطازج ، ففعل ، وتغذيت في القارب ، وهو يسير في اتجاه معاكس لمجرى النيل .

وكنت أرى على طول مجاري الماء ، والجزر التي تحيط بها من كل جانب ؛ أرى الحدائق التي يتيه فيها العقل ، ويشرد منها اللب ، فالارض خضراء تحكي الحياة وسرها ، والازهار تتفتح عن البهجة والسرور ، والاشجار تداعب أغصانها النسمات الرقيقة الناعمة ، والطيور تغرد وترقص ؛ ولا تفكر في حاضر ولا مستقبل ؛ والسماء صافية كقلوب الاطفال ؛ والنيل يسير بهدوء وتوئدة .. رأيت هذا فقلت : صدق من قال : ليس بالامكان أبدع مما كان .. ويحق لمصر أن تزهو وتفخر بنيلها العظيم .. فانه سر حياتها ، كما هو سر جمالها .

قلت : اني كنت أنتقل من شارع الى شارع ، ولا دافع لي الا المعرفة ، وحب الاطلاع ، وكنت أرى التناقض والتنافر بين الاحياء ، فبينا تقوم البنايات الشاهقة والحدائق الغناء في شارع ٢٦ يوليو ، وتعرض أفخر الملابس ، وأحدث الازياء تجد في الشوارع الاخرى المتفرعة عنه ، كحارة ندى ، وشارع الخطري أزقة ضيقة ، وبيوتا قديمة متداعية ، وأوساخا متراكمة ، وأوحالا ، وروائح كريهة ، وأسرابا من الرجال ، والنساء والاطفال حفاة وشبه عراة .

الاسعـــــار :

اما الاسعار فما رأيت شيئا أرخص ثمنا من الخبز والفول والفلافل ، والخيار والفجل والبصل ، وما الى ذاك من طعام العمال والفلاحين ، فانه بسعر التراب ، فصحن الفول بقرش ، والرغيف بنصف قرش ، والقرش عندنا يعادل خمسة قروش لبنانية ، فيستطيع العامل ان يتناول وجبة كاملة بقرشين ، وكنت ادفع ثمن الوجبة في افخم مطاعم القاهرة ٤٠ او ٥٠ قرشا ، وفي ذات يوم تناولت الغداء في مطعم البرج الذي يرتفع قرابة ٢٠٠ متر فدفعت الثمن ٧٠ قرشا ، اي ما يعادل ثلاث ليرات ونصفا لبنانية .

مـع شيـخ الازهـر :

ترجع معرفتي بشيخ الازهر المرحوم الشيخ محمود شلتوت الى سنة ٤٩ حين ناقشت فتواه بجواز طمر الهدي وحرقه على صفحات رسالة الاسلام ، ثم جرت بيننا كتابات ومراسلات ، وقرأ لي ، وقرأت له .

وقبل عودتي بيوم واحد اجتمعت بـه في داره ، فأهل ورحب ، واستقبلني أفضل استقبال ، وحين قدم لنا شراب الليمون ، ابى الا آن نشترك في كأس واحد ، فكان يشرب قليلا ، ويناولني الكأس ، فاشرب من سؤره ، وجرى بيننا حديث الشيعة والتشيع ، فأثنى وأطنب ، وقال فيما قال : ان الشيعة هم الذين أسسوا الازهر ، وبقي أمدا غير قصير تدرس فيه علومهم ومذهبهم ، ثم أعرض القائمون عليه عن هذا المذهب ، فحرموا من نوره الساطع ، وفوائده الجمة .

ومما قلته له : ان مكانتكم عند علماء الشيعة كبيرة وسامية ، وقد تظنون أنتم ، أو يظن غيركم أن السبب هو فتواكم بجواز التعبد بمذهب التشيع ، والحقيقة أن العارفين من علمائنا ينظرون الى فتواكم هذه ، على أنها مجرد نظر واجتهاد ، ولو أفتيتم بالعكس لقالوا : هكذا أدى نظره واجتهاده ، قياسا على أنفسهم ، وعملا بمبدأ الاجتهاد الذي لم يغلقوا دونه الابواب والنوافذ .. آجل ، ان فتواكم هذه تنبيء عن الجراة ، وعدم

المبالاة بلوم اللائمين في الحق والعدل ، ان علماء الشيعة يحترمونكم ، لخدماتكم الدينية ، ونصحكم للاسلام ، وانهم مع كل من يناصر الدين ، وينصح له كائنا من كان •

وان من عقيدتنا نحن الشيعة ان الخلافة لعلي بعد النبي (ص) • ولكن من عقيدتنا أيضا أن لا نثير أي خلاف يضر بالاسلام ، سواء أكان حول هذا المبدأ ، أو غيره ، تماما كما فعل أمير المؤمنين مع الخلفاء الاول ، وقال : لاسالمن ما سلمت أمور المسلمين •• فالتفت الشيخ الى الحاضرين ، وقال : ان السنة لا يعرفون هذه الحقيقة ، ويجهلون نصح الشيعة للاسلام ونبيه •

ثم حدثني عن جرأته بعد أن قلت له : ان فتواكم تنبيء عن الاقدام والجرأة قال : في سنة ٣٦ أصدر المفتي الاكبر بمصر فتوى تخالف الدين ، فتصديت له ، ورددت عليه في الصحف والاندية ، فأحالوني على التأديب والمحاكمة ، وجاء في قرار الاحالة يجب أن يؤدب « شلتوت » ، حتى لا يجرأ بعد ذلك الصغار على الكبار ، فقلت في الدفاع : ان شلتوتا ليس بأصغر من المرأة التي اعترضت على عمر بن الخطاب ، ولا المفتي بأكبر من عمر •

فقلت معقبا : يقولون : ان لدى الغرب صواريخ وقنابل ذرية ، وما دروا ان لدينا نحن أهل الحق والاسلام قنابل وصواريخ أعظم أثرا ، وأشد خطرا على الباطل ، ولكنها تحتاج الى خبراء فنيين ، كالشيخ شلتوت ، تماما كما يحتاج اطلاق الصواريخ ، والقاء القنابل الى أهل الاختصاص • فبان عليه السرور لهذا التشبيه •

وبعد ، فان أيامي في القاهرة ، وان كانت قصيرة وقليلة في عددها ، فانها كثيرة وكبيرة في أثرها ، فلقد أرشدتني الى الكثير مما كنت أجهل ، كما أنها وطدت العلاقة بيني وبين عدد من فضلاء الازهر ورجاله ، والله سبحانه المسئول أن يكون لهذه الرحلة أحسن النتائج والثمرات •• وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين •

في البحرين

دعيت الى البحرين لالقاء محاضرات بمناسبة شهر رمضان المبارك من سنة ١٣٨٦ هـ ، فاستجبت للدعوة ، لان لدي أشياء وأشياء كتبتها وأذعتها ، وأريد تثبيتها في النفوس .. وما زال لدي الكثير مما يجب أن يقال ، وكلها أو جلها تدور حول الدين والانسان أفراحه وأتراحه .. ولهذا السبب استجبت للدعوة مع علمي بأن علي أن أحبس أنفاسي هناك ضمن اطار لا يجوز لي أن أتعداه بحال .

واذا لم يكن في مقدوري أن أضع ابن الخليج أمام حقائق العصر بكاملها ، فان مشاكلنا نحن العرب والمسلمين كافة كثيرة ومتشعبة ، فاذا انسد باب الكلام في احداها فان غيره مفتوح لكل من أراد الدخول ، ولا عذر أبدا للراقد الجامد .. ومن الذي يستطيع أن يمنعك من القول : ان قوى الطبيعة وخيراتها يجب أن تسخر لخير الانسان وهنائه ، لا لشره وفنائه ، وان الاديان السماوية شرعت لاطفاء حرائق الجهل والظلم ، والحقد والجشع ؟ . وان الدين لا يقاس بالتنهدات والآهات ، ولا بالدموع والصرخات ، ولا بضرب السلاسل والقامات ، وانما الدين الصحيح هو الذي يحول ضعف المتدين الى قوة ، ويهيئه لحياة أفضل وأكمل في شتى الميادين ، تماما كما تقدم العرب والمسلمون بفضل الاسلام ، وجعلهم أعزة مكرمين بعد أن كانوا أذلة خاسئين .

لبيت الدعوة الى البحرين ، وأقلعت بي الطائرة من مطار بيروت في الساعة السابعة والنصف من مساء ٣٠ ــ ١٢ ــ ١٩٦٦ ، وحطت في مطار البحرين في الساعة التاسعة والنصف بتوقيت بيروت ، والحادية عشرة والثلث بتوقيت البحرين ، وكان في انتظاري بالمطار ثلة من المؤمنين ، وفي

الليلة التالية ابتدأت بما سافرت من أجله ، وارتجلت عشر محاضرات في حسينية آل العريض الكرام أصحاب الدعوة في عشر ليال متوالية ، وكان عدد المستمعين يزداد ليلة فليلة .

وجاء وفود من القرى يدعونني لالقاء محاضرات عندهم بعد رمضان ، ولم أستطع تلبية الجميع بالنظر لضيق الوقت ، ولا رفض الجميع ، لأن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، فجعلت الافضلية لمن سبقت دعوته ، وهكذا كان ، فألقيت في اليوم التالي للعيد محاضرة في قرية الدير ، وبعده محاضرة في قرية السنابس ، فكان مجموع ما ألقيته من المحاضرات ١٢ محاضرة خلال اقامتي في البحرين .

مكثت هناك ١٨ يوما بلياليها ، وكنت أحس أن كل شيء يستقبلني بحرارة ، ويبتسم لي باخلاص ، وكل انسان ينظر الي بقلبه لا بعينه .. وابن البحرين ــ كما عرفته ــ لا يفتعل ولا يتصنع ، فهو على فطرته التي فطره الله عليها من الصفاء ، وعلى ايمانه وتواضعه البعيد من شوائب الرياء الا من شذ وندر ، والشاذ النادر لا يقاس عليه ، على أن هذا الانحراف النادر لم يأت من البحرين بالذات ، وانما تلقاه غر من أستاذه الغربي الذي لقنه الالحاد ، والحقد على الاسلام ونبي الاسلام ، وهذا البغاء أولى الناس بالشفقة والرثاء ، لانه مصاب بأخبث الامراض وأخطرها ، وألف الصلاة والسلام على أمير المؤمنين ، حيث قال :

« الا وان من البلاء الفاقة ، وأشد من الفاقة مرض البدن ، وأشد من مرض البدن مرض القلب » .

ومهما يكن ، فان هذا الايمان في البحرين ان هو الا امتداد لتاريخها ، فلقد كان هذا البلد ، وما زال المنبت الخصب لكبار العلماء ، والمعين العذب الذي لا ينضب من الحس الديني ، فلقد أسلم أهله للنبي (ص) ، وأذعنوا للحق طوعا بالمكاتبة ، كما أنهم من أسبق الناس الى مذهب التشيع والولاء لاهل البيت (ع) .

ولو وجد مؤرخ قدير يكشف الطبيعة الدينية في أهله ، ويبرزها بتسلسل تاريخي منظم منذ صدر الاسلام ، حتى اليوم لجاءت في كتاب ضخم كثير الفوائد والمنافع .

وأثار انتباهي كثرة المساجد والنوادي الحسينية واقامة الشعائر الدينية في المدن والقرى ، فلا تكاد تمر في حي أو زقاق الا وتجد أكثر من مسجد ، وأكثر من ناد يجتمع فيه المستمعون باصغاء وخشوع للمعزي والخطيب ... وهذه النوادي هي المصدر الاول لقوة الشيعة والتشيع هناك ، ولو تسنى لهذا التراث الضخم رجال من ذوي الوعي والاخلاص لاتخذوا منه حافزا لتوحيد كلمة المسلمين جميعا ، والانطلاق بهم الى الامام .

وليس من شك ان منبر الحسين (ع) قد أقيم لبيان الغاية التي من أجلها استشهد الحسين ، لا لبيان كيف استشهد .. ان أنظار المستمعين أو أكثرهم تتجه لهذه الغاية حين يقصدون المجالس والمآتم الحسينية ، فلقد مل الناس من الكليشات الجامدة المتحجرة ، واتجهت أنظارهم الى الجديد المفيد .. قيل لي عن كبير من تجار البحرين كان يلازم مجالسي ، ولا ينقطع عنها الا لعذر ، وقد حدثت بينه وبيني علاقة المودة والصداقة ، قيل : انه كان يقاطع المجالس الحسينية من قبل ، وكذلك بعض الشباب ، ولما سألت هذا التاجر الصديق عن السبب قال : أنا أعتقد أن منبر الحسين (ع) يملك الطاقات الكبرى التي تفتح أمام المسلمين آفاق المستقبل ، وتسير بهم مع ركب الحياة ، ولكنه لا يستخدم في هذا السبيل ، فتركته آسفا لعدم التجاوب بيني وبين من يرتقون عليه .

والسنة والشيعة في البحرين على وفاق تام ، يتعاونون في جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية ، والقضايا العربية .. وقد حاول أصحاب الاهداف أن يفرقوا كلمتهم ، ويباعدوا فيما بينهم ، فخاب مسعاهم ، وازداد الطرفان بحبل الله تمسكا . ويحضر السنة المجالس

والمآتم التي يقيمها الشيعة لسيد الشهداء وفي اليوم التاسع والعاشر من المحرم تعطل الدوائر الرسمية ، وتقفل الاسواق ، ويتوقف الجميع عن العمل حدادا على السبط الشهيد (ع) . والفضل في ذلك يعود الى العلماء والعقلاء من الطرفين .

والبحرين كلها شعلة من الحماس للعلم ، والاقبال على التعلم ، فانى اتجهت تجد مدارس الذكور والاناث ، وكم كانت دهشتي عظيمة لمنظر الطالبات حين ينصرفن من المدرسة ، والشوارع تغص بأسرابهن ، وكل طالبة من أصغر صغيرة الى أكبر كبيرة تخفي شعرها بعباءة سوداء تتدلى من قمة الرأس الى أخمص القدم .. وتدعها مفتوحة ، للهواء ، كعصفورة لا تطوي جناحيها أبدا .. وقد التقيت بهن أكثر من مرة ، ولكن في الطريق الواسع ، ولله الحمد .

منذ أمد قريب ، لا أتذكره على التحديد ، قـرر الازهر قبول الاناث .. ويدرسن الآن فيه العلوم الدينية ، وهن سافرات .

وبعد ، فان في أهل البحرين من صدق النية ويقظة الضمير ، وصحة الايمان وغيرها من القوى مـا لا يعرف قدرها وأهميتها الا بالتجربة والاختبار الشخصي الصرف .. وأسجل شكري لمن أتاح لي فرصة التعرف بنفسي على هذه القوى التي حاولت جهدي أن أحسن السفارة لديها مبلغا ومؤديا أمانة الله ورسوله وأهل بيته الاطهار (ص) .. « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن أتبعني » . كما أسجل شكري مع الاحترام لكل من لمست منه العطف واللطف ، بخاصة اخواني العلماء الافاضل الذين أولوني من التقدير والعناية مـا لم أرني أهلا لبعضه . وأراهم أهلا لاكثر منه .

أعرف نفسك*

أنت ــ أيها القارىء ــ موجود ما في ذلك ريب ، ولكن هل تعيش في واقعك ، في وجودك ، وعالمك الذي خلقت فيه ، أو انك تعيش في عالم من صنع الوهم والخيال ، لا أصل له ، ولا فرع ، ورحت ترتب عليه الآثار ، وتبني فيه الدور والقصور ، وتعمل لحاضرك ومستقبلك على أساس موهوم ، لا يمت الى الوجود والواقع بشبه قريب أو بعيد ؟

وقد يبدو هذا السؤال للوهلة الاولى محلا للدهشة والاستغراب لان الانسان ووجوده شيء واحد ، ويستحيل أن ينفصل عن نفسه ، اذ كيف يمكن للانسان أن يعيش في غير وجوده وعالمه ؟ .. وبالتالي ، يكون السؤال أشبه بقول القائل : ان هذا الشيء هو غير هذا الشيء .

ولكن هذه هي الحقيقة التي تلوح لك كيفما قلبت البصر .. فالمغرور الذي يرى نفسه فوق ما هي ، واللئيم الذي يحقد على الناس ، والحسود الذي يفضل العمى على أن يرى نعمة على غيره ، والطامع في شيء لن يناله أبدا ، والخائف من أشياء لا وجود لها ، ويظن المسالم عدوا ، والعدو مسالما ، والامين خائنا والخائن أمينا ، والذي يعتقد أنه لا مبادىء ولا قيم ، ولا حق ولا باطل ، وان الدنيا « فريسة الغانم » كل هؤلاء ، ومن اليهم ممن يعتقدون بغير الواقع ، ويؤمنون بفلسفات لا تمت الى الحقيقة بسبب يعيشون منفصلين عن أنفسهم ، وفي عزلة عن وجودهم وكيانهم وينتقلون بأنفسهم الى عالم وهمي سرحوا فيه ومرحوا دون أن يكون له أي نحو من أنحاء الوجود .

---

* جمعتني الصدف بطالب من الطلبة الجدد الذين جاءوا من النجف الاشرف الى لبنان في صيف هذا العام ، فاوحى الي بهذه الكلمة نشرتها بالعرفان عدد تموز ١٩٦٢ .

وبعد ، فهل صدقت أن أكثر الناس ، أو الكثير منهم يعيشون في غير واقعهم ؟ •• أنت بين أمرين لا ثالث لهما : اما أن تعترف بوجود الغرور واللؤم والجهل في الناس ، واما أن لا تعترف ، فان اعترفت يلزمك أن تعترف بأن في المجتمع من يعيش في غير واقعه ، لان هذه الادواء تضلل صاحبها ، ولا تدعه يهتدي الى شيء ، وان لم تعترف فأنت مكابر تعيش في عالم من الاساطير والاوهام •

سؤال ثان : هل لهذه الادواء الغرور والحقد « الخ » من دواء ؟ هل من سبيل للتحرر منها ؟

الجواب :

لا داء بدون دواء ، ولا مشكلة الا ولها حل ، ولكن هذه الادواء ترتبط ارتباطا وثيقا بعوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية ، وتربوية •• وبديهي ان تغيير هذه العوامل ليس بالامر السهل اليسير ، بخاصة فيما يتعلق بالاقتصاد ، ولكن ليس معنى هذا أن الانسان عاجز لا يستطيع أي عمل ، حتى معرفته لنفسه اذا حاول واجتهد أن يعرفها ، ومتى عرفها استطاع أن يعمل لحل عقدها شيئا فشيئا ، وأن يعيش في عالمه وواقعه ، لذا أوصى الانبياء والحكماء منذ القديم بهذه الحكمة : « أعرف نفسك ، من عرف نفسه عرف ربه » ، أي استطاع أن يمتثل ويطيع أوامر الله ، ويكون انسانا بما في الانسانية من معنى •• ولكن بأي شيء يعرف الانسان نفسه ، ولا سبيل الى تحليلها في المختبرات ، ولا تصويرها بالآلات ؟

الجواب :

ان المراد بالمعرفة ـ هنا ـ أن تتهم نفسك ، ولا تثق بها فيما توحيه اليك من أنك خير الناس ، وآراؤك أصوب الآراء ، وصفاتك أفضل الصفات ، وبكلمة أن تعرف أن بين جنبيك نفسا تأمر بالسوء ، فلا تستمع اليها • وما رأيت شيئا أجدى في تصحيح الاخطاء من محاسبة الانسان

لنفسه ، وجرأته في نقده لذاته بذاته ، لا يخشى أن يتحدث هو أو غيره عن عيوبه . ليستشعر النقص والخطأ ، ومن ثم يحاول أن يؤب ويتوب .. ومن جهل ذاته وذهل عنها كان بغيرها أجهل .. لان الترابط وثيق جدا بين الايمان ، ومعرفة الذات .. ان الايمان في جوهره صلة بين الله والعبد ، والغرور يحول دون هذه الصلة ، كما يحول بين المرء ونفسه .

قال الامام (ع) : المؤمن يرى كل سعي أخلص من سعيه ، وكل نفس أصلح عنده من نفسه ، عالم بعيبه ، لا يثق بغير ربه .

وقال : جهل المرء بعيوبه من أكبر ذنوبه .. طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس .

وفي الحديث الشريف : كفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس ما يعمى عنه من نفسه ، وأن يعير الناس بما لا يستطيع تركه .

وبالتالي ، فاذا كان الغرور من أظهر صفات الدنيا فان المغرور ــ وهذه حاله ــ من أبناء الدنيا لا من أبناء الدين ، ومن أتباع الشيطان لا من عباد الرحمن .. ولو كانت الدنيا ومثلها معها طوع يد المؤمن لما اغتر بها وبزخارفها ، فكيف الاغترار بثوب مخلوف يلبسه الجاهل والعالم ، أو بعظام أكلها البلى ، أو بجاه عم أو خال ، أو بمصاهرة من تخفق خلفه النعال .. والغريب أن تجد الغرور أكثر ما تجده عند كسول أو جهول .

تعالوا نحاسب انفسنا ونعترف*

تعلمنا وعلمنا سنوات وسنوات ، وحفظنا الاحاديث والآيات ، وقرأنا من الكتب عشرات ، وتذاكرنا في المشكلات ، فهل ظهر في حياتنا أدنى أثر لهذه الجهود ؟! هل في أفعالنا ما يدل من قريب أو بعيد على انتفاعنا بهذه الدراسات والمطالعات والمذاكرات ؟! .

ولست أقصد من الاثر أن نقفز من حياة البؤس الى حياة الترف ، ولا أن نحل المشكلات السياسية والاقتصادية ، بل ولا أن نجعل من الزنادقة والفجار أتقياء وأبرارا ، وانما أردت طابع الاخلاص للدين والعقيدة، وسمات التقوى والخوف من الله على أفكارنا وأفعالنا وأهدافنا.

لقد قرأنا القرآن وتفهمنا آياته ، وما ترمي اليه ، واطلعنا على أحاديث النبي وأهل بيته الكرام ، وكلمات العلماء الاعلام ، وآثار السلف الصالح ، وأرسلناها مدوية في القول على المنابر وفي المحافل ، ووعظنا بها القاضي والداني ، ولكن أين أثرها في القلوب والافعال ؟! أين الايمان الخالص ، والورع الصادق ؟! أفي مسايرة الزعماء والحفاوة بالاغنياء ؟! أو في التنكر لاهل العلم والدين ، وتجاهل العاملين لله وأهل الله !.

ثم لماذا تكون لنا هذه الذاكرة الملتهبة الواعية ، وتلك العبقرية النابهة الداهية في النفع العاجل الزائل ، ثم نكون بلهاء جامدين كالصخور والاحجار في الثواب الدائم الاجل ؟!

نحن نؤمن بالله وكتابه ما في ذلك ريب ، ولكن لماذا لا نعمل بقوله : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الاقربين » لماذا نحابي الاغنياء والاقرباء والاخصاء ،

* نشرت في العرفان كانون الثاني سنة ١٩٦٢ .

ونستحسن منهم القبائح والفضائح ، ثم نستقبح مـن غيرهم الفضائل والشمائل ؟! نحن من شيعة أمير المؤمنين دون ريب ؛ ولكن لماذا نتجاهل قوله : « الدين أن تؤثر الحق وان ضرك على الباطل وان نفعك » وقول حفيده الامام الباقر « والله ما شيعتنا الا من اتقى الله » ؟!

لماذا نتساهل مع أنفسنا ونصحح أعمالها في كل شيء ، ونتشدد مع الغير ، ولا نحمله على الصحة في شيء ؟! لماذا نصغي بلهفة وشوق الى من يغتاب وينتقص الناس ، ونهش له ونبش ، ثم نزور ونناى معرضين عـن يمدح ويثني على من يستحق الثناء والمديح ؟! وهل هذا مـن علامات الصلاح والاحتياط في الدين ؟! •

ان قلت : ألسنا نصوم ونصلي ونبالغ في التجنب عن النجاسات ؟!

قلت : ان المؤمن حقا تتزن دوافعه ، وتتسق ميوله ، وتتجه جميعها الى مرضاة الله سبحانه ، أما اذا شرق بعضها ، وغرب البعض الآخر فمعنى ذلك أن ايماننا مقرون بالهوى والغرض ، نندفع وراء ما يتراءى لنا أنه من الدين مـا اتفق وتلاءم مع أنانيتنا وان تصادم استجبنا للهوى وآثرنا الانانية على الدين ، والله لا ينظر الى من يؤمن ببعض ويكفر ببعض • واني مع الذي قال بأن العلم وسيلة الى العمل لا غاية ، وان الدين يهدي الى فعل الخيرات ، ويبتعد بصاحبه عن المنكرات ، والا فهو لا شيء على الاطلاق ، اللهم الا وسوسة في الرأس •

وبالتالي ، لماذا لا يرجع كل واحد منا الى نفسه ، فيدرسها درسا وافيا كافيا ، تماما كما يدرس خصومه وأعداءه ، ليتأكد : هل هو مؤمن نظريا وعمليا ، أو نظريا فقط ؟! تعالوا نحاسب أنفسنا ، ونعترف بأخطائنا ، فعسى أن تسمع القلوب وتخشع ، وتتوب وترجع عن غلوها في الانانية وحب الذات ، والانغماس بالباطل والموبقات •

لم أقصد بهذه الصرخة العصبية معينا ، فلقد نفثها القلم بدافع

اللاشعور ، وأنا أكتب حول قول الرسول الاعظم : « ليست الدنيا من محمد وآل محمد » فامتلكني الذعر خشية أن نكون من شيعتهم بالقول ، لا بالفعل ، والله سبحانه نرجو أن يوفقنا الى ما نسأل غدا عنه ، وصلى الله على محمد وآله .

التبصير والمبصرون*

أتبصـــــرون :

كنا ثلاثة : العلامة السيد هاشم معروف صاحب « تاريخ الفقه الجعفري » والعلامة الشيخ عبدالله نعمة صاحب « فلاسفة الشيعة » وأنا كنا تتمشى ذات مساء على طريق مطار بيروت نلتمس النزهة والترويح . فقلت لهما : سيظن البعض أننا مبصرون نخرج الفأل ، ونعرف الضمير والبخت ..

وحين وصلنا الى مفترق الطرق جلسنا على رابية هناك ، وما أن استقر بنا الجلوس ، حتى قصدنا شاب ، وقال : أتبصرون ؟ أي تضربون الودع ، وتعرفون الضمائر والحظوظ .. فقال الشيخ نعمة : عجبا كيف صدقت نبوءتك بهذه السرعة ؟ .

السيد محسن الامين :

وتحضرني بهذه المناسبة حادثة طريفة جدا .. حصلت مع شيخ الطائفة السيد محسن الامين صاحب « أعيان الشيعة » تدل فيما تدل على روحه الطيب ، ومرحه العفيف وانطلاقه على سجيته الصافية التي لا تعرف التعالي والتزمت ، على عظمة صاحبها ، وعلو مقامه ..

ذهب السيد في ذات يوم من بيروت الى دمشق فوقفت السيارة قليلا في بلدة شتورا ، ومن عادة أهلها أن يعرضوا سلعهم على المسافرين ، فجاء رجل الى راكبي السيارة ، ومنهم السيد ، « وهو فيهم كأحدهم » وعرض أن يبيعهم الخمر ، ولما يئس أو كاد نظر الى السيد ـ وهو لا يعرف

---

* نشرت في العرفان عدد تشرين الاول سنة ١٩٦٢ .

حقيقته ــ وقال له : اشتر منه .. انه خمر زحلاوي[١] ..

فأجابه السيد بهدوء وبساطة : «ادخرنا حاجتنا منه من أول السنة».. فظن الرجل أن السيد قد اشترى كمية وافرة من الخمر تكفيه وأفراد عائلته طوال أيام السنة فتركه ومضى لسبيله .

عــود علــى بــدء :

أعود الى قصتنا نحن الثلاثة ، ومسألة التبصير ومعرفة الضمير .. معلوم أن « المبصرين » يزيفون الحقائق ويموهون ويحتالون على الناس ، ليعيشوا من هذه السبيل . .وما واحد منا نحن الثلاثة يسلك هذا الطريق، ولله الحمد .. بل جميعنا نستنكره ، وننعي عليه وعلى أهله .. اذن ، ما هو سر الاشتباه والالتباس ؟

الجواب ان نوعا من « المبصرين » قد اتخذ هذا الزي ، زينا نحن رجال الدين شعارا يتسترون به ، ويختفون وراءه بجهلهم ونفاقهم .. وكان السائل قد رأى أفرادا من هذا النوع ، فقاس الجميع على البعض ، والنوع على الفرد ..

البريء بذنب المجرم :

وكثيرا ما يصادف العالم النبيل أفرادا يغمطونه حقه ويتجاهلون مكانه ، ويقيسونه بأحط الناس ، اذا لم يكونوا على معرفة من علمه وواقعه ، يتجاهلونه لا لشيء الا لانهم رأوا جاهلا يتسم بسمة أهل العلم ، أو عالما يقف موقفا لا يشرفه ، رأوه يستدر عطف الناس ، ليتصدقوا عليه[٢]

---

(١) نسبة الى بلدة زحلة المعروفه بلبنان بجودة خمورها .

(٢) في السنوات الاخيرة ابتلينا نحن الشيعة بلبنان بكارثة لا ندري كيف الخلاص منها ؟ ذلك ان افرادا من ايران وغيرها يؤمون لبنان مطلقين اللحى مكورين العمائم .. ينتقلون من حانوت الى حانوت ، ومن مسجد الى مسجد ببيروت مجمع العناصر والطوائف ، وبعضهم يذهب الى الكنائس بدون خجل يشحذون ويستجدون ، ولا يتقون الله في انفسهم ولا دينهم ولا طائفتهم ، حتى اظهرونا نحن الشيعة بلبنان بأبشع مظاهر الخزي والعار . فهل من مجير ؟ هل من ناصح ورادع لهم من قومهم وعنصرهم ان لم يكن رادع من دينهم وضميرهم .

أو رأوه خطيبا في المحافل يكبر ويهلل لاهل الجاه والمال ، أو سمعوا باتصالاته المشبوهة ، وما الى ذلك مما لا يتفق وكرامة العلم والدين ، وهذا الشعار المقدس ، رأوا هذا الشذوذ من البعض فقاسوا الغائب على الشاهد ، وأخذوا الطيب بوزر الخبيث ، كما هو الشأن في منطق الجموع •

وقد بليت أكثر من مرة بمن لا يعرفني بالذات ، وعاملني بما لا يشعر بالاحترام ، لا لشيء الا لانه يحمل في ذهنه صورة سيئة لاهل هذا اللباس بوجه العموم •• وكنت أعذره بيني وبين نفسي ، لاني مقصود بالنوع لا بالذات ، وألقي التبعة على أولئك الذين وقفوا المواقف المشينة ، وكانوا السبب والباعث الاول •

هذا ، الى أننا نحن رجال الدين مكلفون بحكم منصبنا أن نأمر بالمعروف ، وننهي عن المنكر •• وفي الوقت نفسه لنا أهواء وميول ، كسائر الناس ، فاذا انحرف أحدنا قليلا مع ميوله بانت مسافة الخلف بين قوله وعمله ، وجاءت المسؤولية والملامة •• واذا مال غيرنا مع شهواته فالمسؤولية عليه أقل وأخف ، لانه لم يتخذ لنفسه شعار المرشد الصالح ، لذا قال قائل لمن يلبس هذا الشعار : اما أن تفعل كما تلبس ، واما أن تلبس كما تفعل •

نصيحـــــة :

وأنصح من يبتغي الراحة وهدوء البال من الاخوان أن لا يفكر ولا يولي أي اهتمام للاحترامات والاعتبارات ، لان الاهتمام بها بالاضافة الى عدم جدواه فانه يفتح أبوابا للوهم والتخيل بدون أساس ، فيتخيل غير العدو عدوا ، لانه لم يقدم له الاحترام اللائق بزعمه ، كما يتخيل الفاسق عادلا ، والانتهازي مخلصا ، لانهما عرفا كيف يظهران له التقدير والاحترام ويستغلان ما فيه من ضعف •

لقد ظن المسكين لسذاجته أن تواضعهما له هو تواضع للعلم والدين ، وخفي عليه أنهما لم يفعلا ما فعلا الا لمآرب أخرى ، فأصدر حكمه عليهما بالعدل والاخلاص •

ولو سار على سجيته ، ولم يتطلب ويترقب التعظيم والتكريم لم يطمع أحد باستغلاله ، ولما فسر بمنطق الدين حوادث لا تمت اليه بسبب ، وبالتالي ، استطاع معرفة المزيف من الاصيل •

أقول هذا بعد أن جربت واختبرت ، فلقد بقيت أمدا غير قصير أشرح بمنطق العقل مـا لم يمله علي الا حب الذات •• ولكن طول الايام ، والدراسات المتواصلة أشعرتني بهذه الاخطاء ، والآن أحاول جهدي أن أتجنبها وأبتعد عنها •• وكثيرا ما يبلغني عن شخص ما أكره ، ويذكرني بما أنا بريء منه ، وبعيد عنه ، فأسامح وأتجاهل كبحا للنفس الامارة التي ترحب وتبتسم للخطايا والاخطاء •

بين الدافع الخاص والدافع العام :

وتقول : رأيناك تنتقد بشدة أفرادا ، أو نوعا من الناس ، وتعلن عليهم حربا لا هوادة فيها في كتبك ، وفي الصحف والمجالس والمحافل ، فأين التسامح والتجاهل ؟

الجواب :

اني اغالب نفسي واجاهدها ، حيث أخاف وأخشى أن يكون الدافع والمحرك لي هوى ذاتيا ، وشهوة شخصية ، فأمسك نفسي عندها وأتجاهل ، أما اذا شعرت من نفسي التجرد الى الحق ، وكنت على يقين من مرضاة الله والضمير فاني اقدم ، ولا اكترث بالعواقب مهما كانت وتكون •• والفرق بعيد بين الثأر للنفس ، وبين الثأر للحق •

ومن هنا أقف لمن حاول ، أو يحاول أن يمس من قريب أو بعيد المذهب أو الدين ، أو النجف الاشرف ، والهيئة العلمية الدينية بوجه العموم ، وأضرب مقاتله بأقوى سلاح وأمضاه ، ولا أدعه حتى أرد مكيدته الى قلبه مدحورا ، وحتى يصير عبرة للمعتبرين ، وعظة للمتعظين •

أجل ، قد يجتمع الامران معا ، فيسيء الي من يبالغ في الاساءة الى

الدين والعلم والانسانية وهذا أمر طبيعي ما دام كل منا يسير في طريق ، فأعلنها عليه حربا شعواء بدافع الانتصار للحق فيما أحسب وأعتقد .. ولا أدري ان كان انتصاري للحق مشوبا بالثأر لنفسي ، أو أن هذه الشائبة الخبيثة تضاعف من حماسي .. ومهما يكن ، فاني على يقين من تجردي للحق وحده . والله من وراء القصد .

الانسان الخرافي والانسان الواقعي :

ان لذهن الانسان وفكره خصائص لا يشاركه فيها شيء ، وأهمها أنه يتصور أشياء لا وجود لها ، ولا واقع ، تماما كما يتصور الشيء الموجود واقعا وحقيقة •• وليس من الضروري أن يعتقد الانسان ويؤمن بكل ما يتصوره ويدور في خلده ، فقد يتصور أشياء وأشياء ، دون أن يعتقد بها ، فنحن بامكاننا ــ مثلا ــ أن نتصور انسانا برأسين وأربعة عيون ، دون أن نعتقد بأنه موجود •• ولكن من الضروري أن نتصور الشيء الذي نعتقد به ، اذ لا اعتقاد بلا تصور ، وهل من الممكن أن تعتقد بشيء ، دون أن يخطر لك على بال ؟ •• كما أن الانسان يعتقد بأشياء لا وجود لها على الاطلاق •• وانما يستمد رأيه فيها ، واعتقاده بها من ذاته وحياته الخاصة ، غير ملتفت الى دليل وبرهان سوى نفسه ومشاعره ، ومع هذا يصر على باطله اصرار أهل الحق على الحق ، فالذي يؤمن بالسحر والتنجيم ــ مثلا ــ لا يقل ايمانا عن الذي يراه سخفا وهراء •• وليس من شك أن أحدهما ، محق ، والآخر مبطل •

وليس من غرضي في كلمتي هذه أن احدد مفهوم الحق والباطل ، وأضع مقياسا للتمييز بينهما ، وانما غرضي أن أبين أن الذي يعتمد في معرفته وعقيدته على أحاسيسه وحدها لهو انسان خرافي يحيا في شكله وصورته بين الناس ، وفي واقعه يعيش في الاخيلة والاحلام ، يعيش في سجن من ذاته وأوهامه ، حتى استحال هو نفسه وهما وخيالا ، فاذا نظر الى شيء ، أو حكم على شيء فانما ينظر اليه ، ويحكم عليه من خلال الوهم والخيال •• فلا بدع ــ اذن ــ أن يرى الحق باطلا ، والباطل حقا ، والشقي سعيدا ، والسعيد شقيا ،وأن يصطدم مع الذي ينظر الى الشيء من خلال التجربة والواقع •

وكل عاقل وعالم معرض للخطأ ما في ذلك ريب .. ولكن فرق بعيد بين من يتتبع الوقائع والحوادث ، ويتأملها ، ويستنطقها ، ثم يخطىء فيما يستنتجه منها ، وبين من لا يرجع الى شيء على الاطلاق الا الى رغباته وأحاسيسه .. ويستند الى هواه وحده ، لا الى سواه ، فرق كبير جدا بين من يحلل ويحرم وفقا لما يستحسن هو ويريد ، وبين من يعتمد النصوص في التحليل والتحريم ، ثم يخطىء لشبهة تعترضه من الخارج ، لا لهوى في الداخل .

وبالمناسبة ، قال لي قائل ، وقد رآني مكتئبا : ما لك ؟.. وأي شيء يزعجك ، وأنت موفور الكرامة ، مكفول العيش ؟..

قلت : ان الفقير يرى الغني سعيدا ، لا يزعجه شيء ، والمريض يرى المعافى في أحسن حال ، وأهدأ بال ، ولا مصدر لذلك الا شعور الذات ، ووضعها الخاص .. ان هموم النفس على أنواع ، وهي أكثر من أمراض الجسم ، ولذا قال المثل العاملي : « أكثر من الهم على القلب » كما أنها أشد وطأة من الزلازل والعواصف .. ولكن الروح أقوى من الطبيعة ، والا تصدعت من الصدمة الاولى .. هذا ، الى أن النفس المؤمنة تشعر بآلام الناس ، وتخشى سوء العاقبة ، وتخاف من غضب الله وعقابه .

قال رجل للامام الباقر (ع) : ربما حزنت من غير مصيبة ، أو أمر ينزل بي ، حتى يعرف ذلك في وجهي أهلي وأصدقائي ؟ .

قال له الامام : أجل ، ان الله عز وجل خلق المؤمنين من طينة واحدة ، فالمؤمن أخ المؤمن لامه وأبيه ، فاذا حزن مؤمن في بلد من البلدان حزن المؤمن الآخر ، لانه منه .

وتسأل : لقد حددت معنى الخرافي ، ولكن لم تذكر العلاج والدواء ، فهل من وسيلة ترجع به الى الصواب ؟ .

والجواب : ان الناس يسلكون معه ــ في الغالب ــ طريق الوعظ والارشاد ، ولكن تجربتي الخاصة مع من أردت له الخير أثبتت أن النصح

عقيم ، لانه مجرد كلام في كلام ، لا يحس معه المنصوح بألم ولا ندم ، ولا بأي شيء من الوجهة العملية •• والاولى أن يترك ، حتى تأخذ الحقيقة بخناقه ، ويقع صريع أخطائه ويلمس الخسران والخذلان بنفسه ، فان رجع الى الصواب فذاك ، والا فهو فاسد بطبيعته •• كما هو الشأن في كل من لا ينتفع بالتجارب •

وقد رسم الله سبحانه صورة جلية واضحة لهذا المخذول الخاسر ، رسمها في الآية ٤٣ من سورة ابراهيم ، فقال عز من قائل : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » •• وليس الظالم من اعتدى على الانفس والاموال فقط •• فالكاذب ظالم والمرائي ظالم ، ومن يظهر التوبة كذبا ونفاقا ، ولا يتوب ظالم ، والجاسوس ظالم ، وكل من ارتكب حراما من أي نوع كان ويكون فهو ظالم ، له يوم لا تغمض فيه عيناه ، لما ينزل به من هول ورعب •• وكل آت قريب •

والخلاصة ، ان الخرافي يتخذ من أحاسيسه وشعوره مبدأ عاما ، وضابطا كليا يقيس به كل شيء ، ويخلق من نفسه لنفسه عالما على خياله وهواه ، فلا علم ولا فلسفة ولا فن ، ولا شيء الا ما يراه هو ، اما التجربة والبرهان ، امـا العقل والاقيسة الصحيحة فأسطورة وكلام فارغ في نظره•• وهذا هو الذي يعبر عنه أهل العرف بالذي يبني قصورا في الهواء•

أما الواقعي فانه يدخل في حسابه الوقائع والحوادث والظروف والملابسات ، وينظر اليها كمجموعة لها تأثيرها وفعاليتها في معرفة الحقيقة ، والبرهنة عليها ، وينظر الى ذاته كجزء من هذه المجموعة ، لا ككل مستقل عنها •• ومن اكتفى بالنظر الى نفسه وحدها ، وتجاهل ما يحيط به من موجودات فهو خرافي مثالي ، خيالي ، مهما شئت فعبر •• ومن نظر الى ذاته ، والى غيرها من الموجودات ، وبنى أقواله وآراءه على أساسهما معا فهو واقعي حقيقي موضوعي •

رواد الفضاء ورسالة الانبياء

اذا أراد انسان ، أي انسان أن ينكر مبدأ من المبادىء ، أو يعترف به ، فهل يسوغ له أن ينكر عنادا ، أو يؤمن تقليدا ، دون أن يستند الى منطق يستدعي الايمان ، أو الجحود ؟

والجواب :

عن هذا السؤال واضح كل الوضوح .. ان النضج العقلي يحتم عليه أن يبحث ، ويضاعف الجهود في البحث والتنقيب عن الاسباب الموجبة للاعتراف ، أو الانكار ، وفي ضوئها يصدر حكمه سلبا ، أو ايجابا .. ومتى تعذرت عليه معرفة الاسباب وعجز عن اكتشاف معالم الطريق وجب عليه أن يقف موقف المحايد لا ينكر ولا يعترف ، والا كان جاهلا يؤمن ، أو يجحد من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وبديهة أن جحود الجاهل كايمانه لا وزن له من الوجهة العلمية .

سؤال ثان :

من المعقول أن نبحث ونتقب عن الاسباب الموجبة في الاشياء المادية التي تقع تحت الحس والتجربة ، كما لو أردنا أن نعرف حقيقة الماء : هل هي بسيطة كما قال القدامى ، أو مركبة من الاوكسجين والهيدروجين كما يقول الجدد ، أما ما لا يقع تحت الحس والتجربة أما الامور الغيبية ، كوجود الخالق ، واستمرار الحياة بعد الموت . وان الجنة لا شقاء فيها ولا نصب ، أما هذه وما اليها مما أخبر به الرسول الاعظم محمد بن عبدالله وغيره من الانبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام فلا يمكن البحث فيها عن طريق الحس والتجربة وبالتالي ، فلا يصح الامر بالرجوع اليها لارتفاع الموضوع .

الجواب :

أولا ــ ان أسباب المعرفة لا تنحصر بالحس والتجربة ، فان هناك الفطرة والمقاييس العقلية ، فالحس سبيل الى معرفة المادة ، وعناصرها وما تحويه من قوى ، أما العلم بما وراءها فسبيله الفطرة والعقل •

وقد شرحنا ذلك مفصلا ومطولا في أكثر من كتاب من مؤلفاتنا •

ثانيا ــ ان ما في المادة من ابداع ونظام ليس الا سلسلة للتدليل على أن وراءها قوة مبدعة ومنظمة ، تماما كدلالة الكتابة على الكاتب ، والكلام على المتكلم ، فالقول بأن المادة لا تجدي نفعا للتدليل على الحقائق الغيبية لا يستند الى اساس •

ثالثا ــ على افتراض ان المادة لا تكون وسيلة للايمان بما وراءها ، فيجب أيضا أن لا تكون وسيلة لانكاره •

رابعا ــ ان تقدم العلوم في كل مضمار قد أتاح للانسان أن يستعمل التجربة ، ووسائل العلم الحسي ، حتى في حقائق الغيب واليك الدليل :

وصف الله سبحانه أهل الجنة في كتابه الكريم الذي أنزله على نبيه العظيم ، وصفهم بقوله « لا يحزنهم الفزع الاكبر •• لا يمسهم فيها نصب » •

وقال قائل : محال أن يحيا الانسان مع هذا الجسم بدون فزع ولا نصب ••

ويكفي للرد على هذا أن نستمع الى رواد الفضاء ، وهم يصفون احساساتهم حين دخلوا منطقة انعدام الوزن ، قال جاجارين رائد الفضاء الروسي :

اني شعرت بحالة تشبه النشوة التي يحسها شارب الخمر ، ولكن بلا تعب •

وقال شبرد رائد الفضاء الامريكي : انها حالة تشبه حالة انعدام التعب ، تماما كطفل بلا ذاكرة ، ولكنه يشعر بالسعادة •

وقال كوبر الامريكي : كنت في تمام الانتعاش .

وقالت فالنتينا الروسية : كانت أسعد لحظات حياتي .. لقد شعرت بارتياح لا نظير له ، وتمنيت أن أبقى هكذا الى الابد .

اذن ، التجربة الحسية ساهمت مساهمة فعالة ، تماما كما ساهم العقل والفطرة في الشهادة بامكان الحياة بلا خوف ولا تعب التي بشر بها محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم وجميع الاديان تقول هذا . مع العلم بضآلة ما اكتشفته التجربة من حقائق الغيب غير أننا متفائلون بأن العلم الحسي سيكشف في المستقبل القريب أو البعيد عن كثير من حقائق الغيب ، ويبرزها للعيان تماما كالاشياء المحسوسة الملموسة .

وبهذا يتبين معنا أن تقدم العلم في أي مضمار هو انتصار لدين محمد صلى الله عليم وآله وسلم لانه دين العلم والحق وبديهة ان الحق لا يعاند الحق ، بل يؤازره ويناصره ، اذن يتحتم على كل انسان يؤمن بالعلم والحق أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم لان الايمان به ايمان بهما ، وتكريمه تكريم لهما ، وجحود رسالته جحود لهما ، وللانسانية من الاساس .

وقد يهتدي عالم من العلماء ، أو فيلسوف من الفلاسفة الى حقيقة تعجز عن ادراكها ، وتصورها العقول الاعتيادية ، فتردها عليه ، وتسخر منها ومنه ، حتى اذا مرت الايام ، وظهرت هذه الحقيقة للعيان آمنت بها الاجيال ، وأصبح صاحبها الذي كان بالامس موضع السخرية والاستهزاء عنوانا للتقديس والتعظيم .

لقد أعلن الفيلسوف اليوناني « اريستاركوس » القول بدوران الارض حول الشمس عام ٢٨٠ قبل الميلاد ، فعارضه « بطليموس » مؤكدا أن الشمس هي التي تدور ، وأن الارض ثابتة وسط الكون ، وظل مذهبه معتمدا مئات السنين ، حتى أعلن من جديد العالم البولوني «كوبرنيكوس» حركة الارضحركة الارض حول الشمس ، فهجر الناس القول الاول ،

واعتنقوا الرأي الثاني ، لا كرها ببطليموس ، ولا حبا بنيكوس ، بل لان العلم فرض نفسه على جميع أهل المذاهب والاديان في انحاء المعمورة ، حيث يعلو سلطانه ويسمو على كل سلطان ، وبه يخلد الانسان مدى الاجيال والازمان •• وسيأتي اليوم الذي تدين فيه برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم جميع الامم في الشرق والغرب ، لا لشيء الا لان العاقبة للحق والعلم اللذين تسير معهما هذه الرسالة المقدسة جنبا الى جنب •

ستدين الاجيال، كل الاجيال، برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق المشاهدة والتجربة اللتين هما أساس المنهج العلمي الحديث ، مع العلم بأن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم لم يستعمل في حياته التجربة والاختبار ــ اذن ــ تعين بحكم الواقع أن صلته الوثيقة بخالق الكون هي السبيل الوحيد الى معرفته بحقائق الكون وما قبله ، وما بعده •• لقد سبق محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعلومه ومعارفه التقدم الانساني بالوف السنين ، ليكون هذا السبق دليلا على وجود تلك الصلة بينه وبين العلي الاعلى •

ومن هنا افترق عن العلماء والفلاسفة والعباقرة والنابغين وكان فوق الناس أجمعين •

البيان في تفسير القران*
أو مدخل التفسير

لآية الله الخوئي

ان من أبرز علامات العالم ، بل أبرزها وأصدقها على الاطلاق آن يتابع الدرس والبحث ويستمر في الحفر والتنقيب صبورا جلدا على المصائب والمتاعب لا يمنعه عن عمله شيء بالغا ما بلغ فهو أبدا ودائما يقرأ ، أو يكتب أو يذاكر ، أويفكر ، أو يتهيأ لشيء من هذه حتى وهو مع جليسه مظهرا الاصغاء لحديثه ، بل حتى وهو يؤدي المكتوبة ، ويقول :

« اياك نعبد واياك نستعين » حتى في هذه الحال ينصرف بذهنه من حيث لا يريد الى مشكلة اعترضت طريقه ، وعرقلت سيره الى غايته المنشودة تماما كما فكر الامام (ع) في الناقة التي يتصدق بلحمها على البائسين ، وهو بين يدي خالقه وبارئه وبهذا تجد تفسير قوله (ع) نهومان لا يشبعان « طالب علم وطالب مال » .

أجل ، ان العالم مهما بلغ بعلمه يبقى طالبا من طلاب العلم ، يقرأ ويسمع بروح الطالب الراغب ، حتى الاستاذ حين يلقي الدرس على تلاميذه يتوقع الخطأ من نفسه ويتقبل النقد من تلميذه ويرجو أن يرشده الى ما ذهل عنه ، ويشكره اذا أجاد وأفاد . ومن هذا تشعب حياة العالم وكثرت فيها الصور والالوان ، وكلها طريفة وجميلة ، تلذ لسامعها وقارئها الذكي النبيه ويستخلص منها عبرا ومواعظ بل أصولا وقواعد ، وتشبع أغراضا في قلبه وعقله ، لانه وحده الذي يعرف كيف يستخرج منها العظة والتأمل .

---

* نشر في مجلة الايمان النجفية السنة الثانية عدد ٥ ــ ٦ .

وتسأل : من هذا الذي وصفت وعنيت ؟ وهل أنت على علم من مكانه ووجوده أو انك تتحدث بلغة الانظار والافكار ، أو قيل لـك فقلت ووصفت :

وأجيب بأني أبعد الناس عن الوهم والخيال ، والتقليد والمحاكاة ، لاني لست كاتبا محترفا بل انسانا يحس ويشعر ، ويتأمل ويفكر ، ثم يرسم ويصور ايمانه واحساسه ، ولو أردت وحاولت أن أرسم غير ايماني واعتقادي لجمد الفكر ، وتمرد القلم ونفرت الكلمات على أن الذي وصفت وعنيت غير مجهول ولا مستور . وانه كالشمس ترسل أشعتها في كل مكان وزمان . انه أستاذي ، وأستاذ العلماء في النجف الاشرف ، والقطب الذي تدور حوله الحركة العلمية ، وتدين له « الحوزة » بالشكر والولاء وعرفان الجميل جزاء الصغرى من أياديه ، ولولا وجوده ، ووجود القلة من أهل التحقيق والتدقيق لاخذ العهد الذهني للنجف الاشرف بالافول ــ لا سمح الله ــ وكانت الجامعة النجفية كغيرها لا تعرف سوى الظواهر والقشور وأعني بالعهد الذهني العهد الذي عرف الشيخ الانصاري ، والشيخ الخراساني ، وحوارييهما والآن هل عرفته ؟ .. أما اسمه الشهير فالسيد الخوئي واما وصفه فالعالم لحما ودما ، عالم لم يقف عند جهة واحدة من جهات العلم والفكر بل اتقن منها ما أتقن ، وألم بما ألم ، وأحاط وتعمق في أشرفها وأعظمها ، حتى أصبح علما من أعلامها الامثلين ، ورائدا من روادها المقلدين ، فقد لبث زمنا يدنو من السبعين يتعلم ويعلم ويؤلف ويخرج العلماء ويناقش الجدد منهم والقدماء .

أما أسلوبه في الجدال والنقاش فهو أسلوب سقراط ، يتجاهل ويتظاهر بتسليم قول الطرف المقابل ، ثم يعرض عليه الشكوك والتساؤلات ، ويتصنع الاستفادة والاسترشاد ، شأن الطالب والتلميذ حتى اذا أجاب المسكين ببراءة وسذاجة انقض عليه وانتقل به الى حقائق تلزم أقواله ، ولا يستطيع التخلص منها ويوقعه في التناقض من حيث لا

يشعر ، ويحمله قهرا على الاعتراف بالخطأ والجهل .

أما الذين تخرجوا عليه فلا يعلم عددهم الا الله وحده ، ولكني على علم اليقين انهم يعدون بالمئات ، انهم يملئون جامعة كبرى ، وما زالوا على ازدياد ، والآن تنضوي المئات تحت منبره ، وفيهم الشيوخ والشباب ، والاساتذة والطلاب ، والكثير منهم يهضم أفكاره وآراءه ، بل ويلتهمها بشوق .

هذا جانب واحد من جوانب السيد العدة ، ولكنك اذا عرفته فقد عرفت قيمة الكتاب الذي أقدمه .. انه احدى الثمرات اليانعة، والدراسات النافعة لتحليلاته العقلية ، وتأملاته الفلسفية وقد أسماه البيان في تفسير القرآن ، ولكنه في الحقيقة « مدخل التفسير » كما في آخر المقدمة .

والقسم الاول منه في عظمة القرآن وأعجازه ، وفي النبوة ودلالتها ، وليس من شك انه الاساس لعقيدة الاسلام ، حيث لا يستقر بناؤها لحظة بدونه ، واذا كان العالم والمجتهد ـ في الاصطلاح ـ هو الذي يستخرج الاحكام والمبادىء من الكتاب والسنة ! فأولى له ، ثم أولى أن يعرف الطريق المثبت لهذين المصدرين ، والا استمد معرفته من الجهل ـ ان صح التعبير ـ ، وبنى أحكامه على التقليد . أما دليل الاعجاز والنبوة الذي اعتمده السيد فانه يشبع حاجة الطالب ، ويستجيب لرغبة العالم ، ويتحدى كل معاند .. وأحسب اني لست بحاجة الى أن أنقل أو ألخص ما قال ، ما دام الكتاب ـ الآن ـ في يد القارىء وهو أصدق في الدلالة من النقل والتلخيص .

وتكلم في بقية الاقسام عن القراءات ، ودعوى التحريف وأبطلها بالارقام كما نفى نسبتها الى الشيعة بما لا يقوى على رده ناقد أو ماكر ، والحال الكلام عن النسخ ، وتتبع الاقوال في الناسخ والمنسوخ واستقصاها بدقة ونقلها بامانة وحاكمها بهدوء واستخرج الحقيقة من مكمنها بعقله المبدع الحكيم وذوقه الصافي السليم ، واذا قلت المبدع فلا أريد كثير

الاحتمالات والقدير على اثارة الشبهات فان هذه بالهذيان أشبه ، ولكنه هذيان منظم •• وانما أريد بالابداع الالهام والوحي بجوهر الحقيقة •

واذا كان التفسير من العلوم الجزئية لان موضوعه خاص ، وهو القرآن الكريم فانه من العلوم المعيارية أيضا لانه يضع قواعد عامة يخضع لها كل شيء ويجب التفكير على أساسها في كل شيء ولذا أشار السيد الى طرف من معارف القرآن كالفلسفة والتشريع والتاريخ •

هذا بعض المضمون والمحتوى أما العرض والشكل فان سيدنا الاستاذ يأخذ بناصية اللغة العربية وتستجيب كلماتها له وتراكيبها متى أراد ، ولا يقتلعها اقتلاعا من هنا وهناك فلا يدع معنى الا اذا جاء العرض وافيا ومعبرا • وجاءت معاني الكلمات على وفاق واتساق واذا لم يكن الكتاب فريدا في موضوعاته فانه يقدم للقارىء وجهة نظر المؤلف الذي عرفت من هو ؟ وما هي مكانته ؟ كما يحمله ـ من حيث يشعر أو لا يشعر ـ على الايمان بأن طبيعة الاسلام لا تنفك عن العلم والعقل ، وهنا تكمن قيمة الكتاب وفائدته العلمية والعملية •

وقفة قصيرة*

مع فضيلة الشيخ « ابو زهرة » في كتاب الامام الصادق

نقلنا في العدد السابع من العرفان ما قاله فضيلة الشيخ محمد « أبو زهرة » عن الامام الصادق (ع) ، وانه امام العلم والدين والفارق بين الحق والباطل ، وان الشيخ يوافق الامامية في أشياء ما عدا وجوب العصمة وثبوت الامامة بالنص .

وليس لاي انسان أن يناقش أحدا في آرائه ومعتقداته ـ أصاب أم أخطأ ـ ما دام الذي يعتقده ويراه لا يتجاوز أثره الى غيره ، أما اذا نقل أن غيره يدين بكذا ، ويرى كذا ، وكان « مشتبها في النقل ، أو مصيبا وأمينا في العرض وتصويرا لواقع ، ولكنه جرح واستنكر ، وأقام من نفسه حاكما على غيره يخطىء ويوهن ، أما هذا فقد أباح للناس أن ينتقدوه ، ويناقشوه الحساب ، لانه لو ترك لترك ، ولو سكت لسكت عنه . وعلى هذا السبيل تناقش الشيخ الفاضل « أبو زهرة » في بعض ما جاء في كتابه القيم « الامام الصادق » مع احترامنا لشخصيته وجهوده .

قال في ص ١٥ وما بعدها . « ما اتحدت فيه الرواية عن الامام جعفر في كتب الامامية وليس فيه ما يخالف الكتاب والسنة فاننا نقبله ولا نرده . وكذلك اذا لم يعارض الكتاب والسنة » . ثم فسر السنة المطلوب عدم معارضتها ، فسرها بالعامة ، أي بالسنيين دون الامامية .

الجواب :

ان المراد بالسنة المساوية للكتاب هي ما ثبت عن النبي (ص) بطريق لا يقبل التشكيك ، تماما كثبوت القرآن الكريم ، والا احتاج المثبت الى

---

* نشر في العرفان عدد نيسان ١٩٦١ .

ما يثبته ، والدليل الى ما يبرره ، وعليه يكون الاخذ بما عليه السنيون دون الامامية ترجيح بلا مرجح ، اذ المفروض ان كلتا الطائفتين تحتاج الى دليل من الكتاب أو السنة الثابتة ، فاذا فسرنا السنة النبوية بما عليه السنيون يكون الدليل عن الدعوى ، وبديهة أن الشيء لا يثبت نفسه • ثم ان الامام الصادق أمر شيعته بأن لا يقبلوا عليه ما يخالف الكتاب والسنة ، واذا أخذنا بتفسير الشيخ وجب على كل امامي أن يصير سنيا •

وقال في ص ٨٩ وما بعدها : أخذ الامام الصادق العلم عن التابعين ، وعن جده أبي امه القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وعن طريقه وصلت الى الامام أحاديث عائشة وابن عباس •

الجواب :

ان الصادق أخذ العلم عن أبيه عن آبائه عن النبي الذي لا ينطق عن الهوى ، والتابعون وغيرهم أخذوا عن الامام الصادق ، ولم يأخذ الامام عنهم • قال الرسول الاعظم عن أهل بيته : (لا تعلموهم فانهم أعلم منكم) • وقال : (ان عترتي من طينتي رزقوا علمي وفهمي مسند أحمد) • وقال : (تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ــ مسلم وأحمد) • وجعل أهل البيت عديلا للقرآن يتنافى مع أخذهم العلم عن غير جدهم الذي نزل عليه القرآن •

وقد شهد التاريخ ان الصادق كان أستاذا لابي حنيفة ومالك والثوري وغيرهم من التابعين وغير التابعين ، ولم تر مؤرخا واحدا ممن تقدم أو تأخر ذكر أستاذا للامام الصادق أو لاحد آبائه وأبنائه من الائمة والاطهار •

وقال في صفحة ٣٧٩ : « ذكر الطوسي في عدة الاصول أن الخبر الواحد انما يكون حجة في العمل اذا كان راويه من الطائفة المحقة ••• ولكن عند التحقيق تبين أنه لا يعمل بالخبر الذي يرويه الامامية مطلقا ، بل هذه الاخبار التي رويت عن الائمة (ع) ودونها الاصحاب » •

ثم استنتج من قول الشيخ الطوسي هذا ان الشرط عنده لصحة الرواية أن يرويها امامي عن امام ، فلو روى غير امامي عن الامام ، أو روى امامي عن النبي لا تقبل روايته ! ..

الجواب : يظهر ان الشيخ « أبو زهرة » يؤمن بمفهوم اللقب ، ويتخذ منه حجة يلزم بها من لا يؤمن بهذا المفهوم بدليل أنه نسب الى الطوسي القول بعدم الاخذ بالاخبار المروية عـن النبي لا لشيء الا لان الشيخ الطوسي قال : « يعمل بالاخبار المروية عن الائمة » مع العلم أنه لا الشيخ الطوسي ولا غيره من فقهاء الامامية يحتج بمفهوم اللقب ، وفضيلة الشيخ « أبو زهرة » يعلم حق العلم انه لا ملازمة بين ايمانه هو بمفهوم اللقب ، وايمان الطوسي به ! . تماما كما لا يلزم من قوله : نأخذ بحديث أبي هريرة عدم الاخذ بحديث سمرة بن جندب مثلا .

هذا ، الى أنه لا يوجد قائل من الامامية بأن الاحاديث المروية عن النبي لا يعمل بها حتى ولو كان الراوي اماميا ، كما نسب ذلك الـى الطوسي ، بل ان الامامية يعملون بأخبار أئمتهم لانها تثبت سنة جدهم ، فأقوالهم وسيلة لقول الرسول ، وليست غاية في نفسها ، وقد تنبه أبو زهرة الى هذه الحقيقة في ص ١٦٣ حيث قال ما نصه بالحرف الواحد : « ان البيت العلوي فيه علم الرواية كاملة عن علي ، رووا عنه ما رواه عـن الرسول كاملا ، أو قريبا من الكمال » وقال في ص ٤٠٨ « يقرر الامامية انه لا بد أن يتصل السند بالنبي ، أو بالمعصوم وهو الامام » .

والدليل القاطع لكل حجة ما جاء في الكتب الاربعة ، ومنها التهذيب والاستبصار للشيخ الطوسي عن الائمة الاطهار قولهم : (لا تقبلوا علينا الا ما وافق القرآن والسنة ... واذا ورد عنا خبر ، أن ينظر ما وافق حكمه حكم الكتاب والسنة فيؤخذ به) .

وليس بين الامامية قائل واحد بعدم العمل بما روي عن النبي بينما وجد في غير الامامية من يقول بطرح القرآن والسنة اذا خالفا قول مقلده ،

قال السيد سابق في الجزء الاول من كتاب الفقه على السنة ص ٢١ الطبعة السادسة سنة ١٩٥٧ : (قال الكرخي : كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ) . وهذا القول ينسجم تمام الانسجام مع القول بسد باب الاجتهاد ، ووجوب التقليد (لما عليه أصحابهم) .

والعجب العجيب أن شيخا من شيوخ الازهر الكبار كفضيلة (أبو زهرة) يستوحي ويستنتج من قول الطوسي ان الامامية لا يعملون بما روي عن النبي ، وأن ينقض هذا الزعم مستشرق أجنبي كأجناس جولد تسهير ، قال هذا المستشرق في كتاب العقيدة والشريعة ص ٢٠٣ طبعة ١٩٤٦ ما حرفيته : (تزعم الفكرة الخاطئة بأن الفرق الاساسي بين أهل السنة والشيعة ينحصر في أن مذهب أهل السنة يعتمد سنة النبي مع الكتاب كمصدر للدين بينما الشيعة تقتصر على القرآن ... وهذا خطأ جسيم يدل على جهل تام بحقيقة التشيع ، وهو خطأ كثيرا ما أثارته المقابلة بين لفظي سنة وشيعة ، والشيعة لا يحتملون أن نعدهم خصوما لمبدأ السنة) .

ان المهم عند الامامية أن يكون الراوي صادقا أمينا في النقل اماميا كان أو غير امامي ، وقد بينت ذلك في كتابي مع الشيعة مع ذكر المصادر والارقام ، ونشرت مقالا مطولا في رسالة الاسلام عدد كانون الثاني سنة ١٩٥٨ حول كتاب « محاضرات في أصول الفقه الجعفري » للشيخ (أبو زهرة) وذكرت فيه أقوال الفقهاء ، وبخاصة المتأخرين ، وان المراد بالعدالة والوثاقة في الراوي هي العدالة في النقل ، لان الفاسق قد يكون أضبط وأتقن في نقل الحديث من العادل ، كما قال المرزا النائيني في تقريرات الخراساني باب التعارض ، وقد جاء في أخبار أهل البيت عن بني فضال : « خذوا ما رووا وذروا ما رأوا » ، أي لا ملازمة بين الرأي والرواية .

ثم ان أهل السنة يختلفون فيما بينهم ، والشيعة كذلك في أن المخالف من أهل القبلة هل يحتج بروايته ؟ . وقد يكون الشيخ الطوسي من الذين

يرون أن يكون الراوي اماميا ، ولكن الرأي الذي استقر عليه فقهاء الامامية مؤخرا هو الذي ذكرناه من شرط الصدق والامانة في النقل فقط لا غير ، على أن البحث في سند الحديث لم يبق له اليوم من موضوع عند علماء الامامية كلهم أو جلهم ، لانهم لا يعملون بالحديث ، أي حديث الا اذا اشتهر العمل به بين الفقهاء ، سواء أكان الراوي اماميا أو غير امامي .

ويوجد بين علماء السنة من يشترط لصحة الرواية أن لا يكون فيها رائحة التشيع ، ومن هؤلاء الفضل بن روزبهان ، قال في كتابه « ابطال الباطل » ردا على العلامة الحلي الذي احتج بقول الطبري ، قال الفضل : « الطبري من الروافض مشهور بالتشيع » . ومعلوم أن الطبري من علماء أعلام السنة ، ولكن الفضل لما ضاقت عليه سبل الرد لجأ الى هذا الاصل « يجب طرح كل ما فيه رائحة التشيع » .

ويظهر من فضيلة الشيخ « أبو زهرة » أنه ينكر هذا الاصل نظريا ، ويؤمن به عاطفيا دون أن يعرف ذلك من نفسه . قال في ص ١٩٩ : « ان كتب السنة التي ذكرت حديث الثقلين بلفظ سنتي أوثق من الكتب التي روته بلفظ عترتي » ! ..

ولماذا يا فضيلة الشيخ ترجحون حديث سنتي على حديث عترتي ؟!.. وهل تستمعون فضيلتكم الى باحث يتقبل الفكرة مقدما . ثم يؤول النصوص على فكرته ، ويصور الواقع على عقيدته ؟! ..

منذ سنتين التقيت في احدى مكتبات بيروت بعالم من علماء السنة ترك وطنه المغرب لاسباب سياسية ، وأقام في القاهرة . وهو الشيخ أحمد ابن محمد بن الصديق ، وله كتب كثيرة قال لي فيما قال :

رأيت ، وأنا أتتبع كتب التاريخ والحديث ، تعصبا غريبا من عديد من علماء السنة ضد أهل البيت . قلت : وكيف ؟ . قال : يذكرون في كتبهم قاعدة عامة ، وهي كل حديث فيه رائحة التشيع فهو ضعيف ، حتى اذا رأوا حديثا في فضل علي أو أبنائه شكلوا قياسا منطقيا على هذا النحو :

(هذا فيه رائحة التشيع ، وكل ما فيه رائحة التشيع فهو ضعيف فهذا الحديث ضعيف ! ••• والنتيجة الحتمية لهذا التفلسف انه لا حديث صحيح أبدا في فضائل آل الرسول •••) •

ومن الخير أن نشير بهذه المناسبة الى انه وجدنا بين علماء الامامية من هاجر الى الازهر ومدارس دمشق لاخذ العلم عن شيوخ السنة ، كزين الدين العاملي المعروف بالشهيد الثاني ، والشيخ علي بـــن عبد العالي العاملي المعروف بالمحقق الثاني ، ولا نعرف أحدا من علماء السنة هاجر الى النجف أو غيرها من مدارس الامامية لهذه الغاية •

وبالتالي ، فان لنا على كتاب «الامام الصادق» لفضيلة «أبو زهرة» ملاحظات أخرى أشرنا الى بعضها في المقال السابق ، وتركنا الكثير منها لضيق المجال ، وعسى ان يدل الشاهد على الغائب ، واذا انتقدنا أشياء في هذا الكتاب فانا من المؤمنين بمكانة صاحبه العلمية ، والمكبرين لجهوده المثمرة النافعة • ولا ضير على العالم ان يخطيء ــ سهوا أو نسيانا ــ وانما الضير كل الضير ، والويل كل الويل للذين يدعون العلم ولا يعملون ••• ومهما قال القائلون عن هذا الكتاب فلا يسعهم الا الاعتراف بأنه مادة غزيرة فاق كل كتاب ومؤلف عن الامام الصادق بتعدد نواحيه وتنوعها ، وفضيلة الشيخ طويل النفس في جميع أبحاثه لا يترك القلم الا بعد أن يشعر أنه لم يبق لموضوعه من باقية ، فألف شكر على هذا التراث اليتيم ، والسلام على مؤلفه ورحمة الله وبركاته •

العرفان وصاحبه وأنصاره*

ان اتصالي وثيق بصاحب العرفان نسبا وروحا ، رحما وأخلاقا ، والوحدة الروحية أشد وأقوى ، فان القريب من قربته الاخلاق ، واني أعلم الكثير من أموره الداخلية والخارجية ، أنا في طير حرفا وهو يصطاف في مزرعته بستيات ، وبينهما أكثر من ثلاثين كيلومترا وكأنها ثلاثة آلاف لما يتخللها مـن الجبال والاودية والعقبات الصعاب التي توهي الاعصاب وتضعف من عزم سالكها ، فيصبح كعزم نوابنا على تعبيدها واصلاحها ، ولكن الذي يهون الخطب ويجعل اجتيازها خفيفا على النفس ، ان المزرعتين في دولة واحدة وتحت علم واحد ولله الحمد ، لا حدود ولا مرابطين من الاجانب الاباعد الذين يضطر المسافر أن يقف بين أيديهم ذليلا محتقرا ينتظر الاذن والامر بالدخول الى بيته أو الخروج منه .

ان تلك الحدود التي قطعت الاسباب بـين الاخ وأخيه ومزقت الاوصال بين الابن وأبيه ، هي عنوان السيادة والمجد لآبائنا العرب ودليل على ما فينا من الذل والضعف . كانت القوافل تتنقل متهمة ومنجدة ومشرقة ومغربة تسير الشهور والسنين وهي في بيتها وملكها لا ترى الا علمها العربي في وطنها العربي لسلطانها العربي ، فهنيئا لهم وان قالوا « السفر قطعة من سقر » وتعسا لنا وان ركبنا الطيارة والسيارة وأي شيء لنا منهما وفيهما غير ابتزاز الاموال وذهاب الارواح .

على ما بين المزرعتين الصغيرتين الكبيرتين بجمهورية لبنان الكبير على ما بينهما من المدى القريب البعيد ، فاني أعلم أن الاستاذ الذي يحب العمل بفطرته ، ويكره الكسل بطبيعته ، ينهض كل يوم باكرا فيسبغ وضوءه قبل

* نشر في العرفان عدد كانون الثاني ١٩٤٦ .

كل شيء ـ وقد يكتفي بالغسل الواجب عنه ـ ويشرع بالصلاة ويبقى بعدها جالسا في مصلاه يعقب بالتسبيح والادعية ، فاذا طلعت الشمس أو أوشكت حمل السلة بيمينه وتوجه نحو مزرعة الخضار ينقل الخطى بينها في حذر خشية أن تقع قدمه على الاغصان الممتدة يوزع نظره هنا وهناك ، باحثا عن خيارة أو قثاءة أو حبة طماطم محمرة أو غير ذلك مما ينبت في أرضنا ويعيش بلا ماء ، وهل يحلم العاملي بشربة من الماء النابع فكيف بأرضه . يحفر أكثر العامليين حفيرة يجمعون فيها ماء الشتاء ليشربوه في الصيف ، أليس كذلك يا نواب الجنوب ؟ فرفقا يا بكوات ! ثم رحماكم يا عشاق الكراسي .

كان في العام الماضي مخفر أحراج في طير حرفا ، فزاره الكولونيل دحروج وتناول الغداء هناك ، فأجهده العطش ، فصبر على ألمه ولم يشرب لرداءة الماء ، وما خرج من الشعب الا عد نفسه ناجيا من مفازة مهلكة ، فما حال الالوف التي تقضي فيه حياتها ..

يلتقط الشيخ من زرعه ويضع في سلته مسرورا مغتبطا اغتباط من يجني خير ما غرست يداه بلا نعمة لأحد عليه سوى الله تعالى ، فاذا ملاها عاد الى قرينته السيدة أم الاديب فتأخذها من يده وتقول وهي تقلب فيها النظر : لو أردنا شراء ذلك من سوق صيدا لتحملنا ما لا نطيق فيبسم الشيخ ويأنس ، كما يأنس من تراه زوجته ظافرا منتصرا . وما أسرع أن يعود الى ادراكه وتفكيره العميق ، ويقول أي ذنب لصيداء المسكينة وسوقها البائس ، وانما هي الجمارك والضرائب . ثم تباشر له بطعام الصباح وترتبه على شكل هندسي أنيق ، والاستاذ مفطور على حب النظافة والاناقة . ولم يكن كزملائه مشايخ الفوضى في مظهرهم ومضمرهم : فاذا جلس الى المائدة جلست الى جنبه تشاركه الطعام والحديث في شؤون البيت ولوازمه وما يصحبانه الى صيداء مما تدعو اليه مؤنة الشتاء من الدبس والمربيات والزيت والزيتون . ثم ينتقل بهما

الحديث ــ والحديث ذو شجون ــ الى تعيين طعام الغداء والعشاء ، فربما اتفقا وقد يختلفان ، فان وقع الخلاف أتى كل منهما بما عنده من الادلة والمرجحات ، ومتى تساوت من جميع الجهات لم يجريا قاعدة التعارض من التساقط أو التخيير بل يتعين الاستسلام على الشيخ بلا قيد ولا شرط ••• ومتى انتهى من كل ذلك ذهب يتفقد المعز والغنم والبقر والفرس فاذا ارتفعت الشمس وارتفع الطل عن البيدر ، آمر باعداد الفرس للدوس والرفق بها ، فاذا زالت الشمس توضأ وصلى ، ثم آكل ونام ، فاذا انتبه صحب قرينته أم الاديب وذهبا معا الى آشجار التين والفاكهة ينتقلان من شجرة الى شجرة ، يقطف الشيخ ما لذ وطاب فيطعمها ويأكل ، وينتقل من قطعة الى قطعة ، يخف في حركاته ويسرع في مشيته ليخفي عليها ما ظهر عليه من آثار التقدم في السن ، ثم يعود الى منزله يحمل شيئا من الفاكهة يتناوله بعد العشاء (فرطو) • هذا عمله في مزرعته يكرره كل يوم يفعل اليوم ما فعله بالامس ، ويفعل غدا ما فعله اليوم •

وأحب الايام عنده يوم يزوره فيه ضيف كريم واديب ظريف ، فيكاد أن يحتكره ولا يسمح له بالذهاب الا مكرها ، وما زال مقصد العلماء والادباء والوجهاء لكرم يده وأخلاقه وخفة روحه ومرح طبعه •

ان هذا الطيب الجليل قضى عليه الواجب المقدس وجهاده في سبيل الفضيلة أن يترك ذلك كله ويهمل مصالحه التي بها قوام عيشه ومعيشته ويفارق أهله ويدع الراحة والاستجمام ويذهب في هذا الصيف وفي شهر رمضان المبارك الى صيداء وحرها وضوضائها وقيودها ليخرج للناس عرفانهم ، ويقوم بجهادين في آن واحد : جهاد داخلي وهو الصيام والقيام وضبط النفس الذي ترتفع به الى مــا يحقق كيانها الاسمى ، وجهاد خارجي ، وهو ما يعود على أمته بالنفع الدائم والصلاح العام •

يقوم أرباب المصانع والمعامل في أمريكا وأوروبا بجهود جبارة ، فيملأون الارض والسماء ، والماء بالاعاجيب ، ويقوم رجال الصحافة بأشق

الاعمال ويتحملون المتاعب والآلام ليخرجوا للناس ما تحيى به المعاهد ... تصنع المعامل آلات جهنمية لاستعباد البشرية وامتلاك الشعوب وتصنع المطابع قنابل تحارب بها الجهل والظلم والاستعباد ... وتصدر تلك أدوات تحتال بها على ابتزاز الاموال والدماء وتخرج هذه قوانين تحل بها مشاكل الحياة وتبعث عواطف المحبة والرحمة في قلوب العالمين ... وتبيع تلك ملابس الابدان الفانية بالاثمان الغالية وتهدي هذه للقلوب والعقول حلل الفضل والكمال لا تسأل جزاء ولا شكورا ... ويعمل العمال هناك بالاجور ويكتب الكاتبون هنا ولا يؤجرون . يكتب أهل المعرفة ابتغاء وجه الادب والعلم ولا ينالون كثيرا ولا قليلا من عرض الدنيا ، وأي دنيا عند المشايخ ويكتب غيرهم وأجرهم عند صديقنا التشجيع جزاه الله خيرا .

بالجد والاخلاص عرفناك يا أبا الاديب وبالثبات على المبدأ المقدس والنضال في سبيل الانسانية والنهوض بها الى درجات العلى والحياة المثلى، اذن لم يذهب الصيام والقيام وفراق المال والاهل وغلاء الورق (وكسر ابريق الزيت) خسرانا وضياعا . ما أخف هذه على تمسك المؤمنة المجاهدة التي تهزأ بالمادة في سبيل الروح ، وتنكر ذاتها لتحقق أهدافها السامية ومثلها العليا .

واذا أكبرنا الاستاذ وجهاده المشكور،فمن الواجب أن نشكر المهاجرين الكرام فبفضلهم واخلاصهم استطاع العرفان أن يسيطر على ما صادفه من عقبات جسام في طريق استمراره ، ولولاهم لم تستد به الحياة الى اليوم .

وليس بوسع أي انسان أن يتصور صحفيا نزيها لم يؤد عمله الا بجهد جاهد قد أثقلته المتاعب وحيره ما نصب له من أشراك ، ولم يقبض رشوة من ظالم ، ولم يكن داعية لحاكم ، خيرا من صاحب العرفان ، فلم يكن مؤسسة استغلالية ولم يتقيد بواجب الا واجب الامة .

فباسم الله تعالى ، وباسم هذا الواجب الاقدس يخطو العرفان الى

عامه الثاني والثلاثين ، ويمضي على نهج الحق والفضيلة وصراط الدين والعدالة ، ويحمل لقرائه الادب والتاريخ والنقد والاصلاح والتجدد ، ويبعث في صدر الامة النهضة والتساك والتساند .

وفق الله سبحانه شيخنا العارف في قصده ومسعاه وسهمه ومرماه ، الى النهوض بعرفانه الى المكانة التي يرجوها له ، وحفظ الله أسرة العرفان وأنصاره العلماء والادباء الكرام وجزى الله اخواننا المهاجرين جزاء المفضل المحسن انه أرحم الراحمين .

باحث عن الحقيقة*

مستشرق من ألمانيا الغربية ، اسمه « كونتر ردمان » يتعاطى في بلاده مهنة المحاماة ، حائز على شهادة الدكتوراه في الحقوق ، وكانت أطروحته لهذه الشهادة في التشريع الكنسي ويعكف الآن على كتابة أطروحة أخرى في القياس ، ليحصل على شهادة الدكتوراه الثانية من كلية الفلسفة ، قسم الاستشراق بجامعة كولونيا ، ويتكلم العربية بصعوبة ، ويفهمها بيسر .

زارني في بيتي ببيروت مساء ١٠ / ١٠ / ١٩٦٤ ثم أعاد الزيارة في صباح اليوم الثاني ، وأطال المكث . أمّا الغاية التي زارني من أجلها فهي ــ كما حدثني ــ أنه رأى الغربيين حين يتكلمون عن الشريعة الاسلامية يقفون عند المذاهب الاربعة ، ويتجاهلون فقه الشيعة الا المتعة ، واذا تجاوزوا الى غيرها قالوا : ان الشيعة يجيزون بيع أم الولد ، ويقنتون في الصلاة ، ولا يمسحون على الخفين في الوضوء ، كما فعل « شخت » في كتابه الشريعة الاسلامية[1] .

وقال لي الدكتور « كونتر » فيما قال : لقد رأيت أن أطروحتي في القياس تكون ناقصة غير وافية اذا أهملت وتجاهلت أقوال الشيعة وآراءهم ، فذهبت الى النجف الاشرف في شهر أيلول من هذه السنة ، ولا هدف لي الا المعرفة والاطلاع ، ومكثت فيها أسبوعين ، واتصلت

---

* نشر في العرفان عدد تشرين الثاني سنة ١٩٦٤ .

(١) بلغ هذا الكتاب ٣٥٠ صفحة ، وتعرض لفقه الشيعة في ٧ صفحات .. وام الولد هي الامة تكون عند سيدها ، فيطأها بالملك ، واذا حملت منه يكون الولد حرا ، أما هي فتبقى على ملك مالكها ، ولكن لا يجوز بيعها ولا هبتها ، وتجوز له سائر التصرفات الاخرى ، كالوطء والاجارة وتزويجها من الغير ، واذا مات سيدها تحررت من نصيب ولدها ، وعلى أية حال فان نسبة بيع أم الولد الى الشيعة لا يستند الى أساس ...

بزمرة من علمائها ، وبحثت معهم في موضوع الاطروحة ، وأرشدوني الى بعض المصادر ، ورجحوا لي الاتصال بك ، واني قصدتك لهذه الغاية ، فاحترمته ورحبت به بعد أن تبينت أنه يبحث عن الحقيقة ، ويطلب المعرفة مجردا عن كل غاية .

فشرحت له القياس مفصلا ، وبكل وضوح ، وذكرت رأي الشيعة بدقة وأمانة ، وتفهمه بيسر ، ذلك أن فقهاء الشيعة ذكروا أمثلة من الشريعة الاسلامية على فساد القياس ، منها الفرق بين السارق والغاصب في الحكم ، وان الاول تقطع يده دون الثاني ، مع العلم بأن كلا منهما قد اعتدى وأخذ المال بغير حق ، فكنت قبل أن أذكر له هذا الفرق أسأله عن حكم السارق والغاصب في التشريع الالماني ، وبعد أن يبين الفرق عندهم أشرح له الحقيقة عندنا ، وهكذا سرت به على هذه السبيل ، واستعملت معه هذا الاسلوب ، حتى اطمأن قلبي الى أنه بلغ ما أردت وأراد .

ولاحظت أنه كان قد فهم بعض الاحكام الشرعية خطأ .. من ذلك أنه كان يعتقد أن المرأة اذا حاضت في شهر رمضان يجب عليها أن تصوم ، وتترك الصلاة ، فأفهمته أنه يجب عليها ترك الصوم والصلاة معا ، وانه لا فرق بينهما من حيث الاداء ، وانما الفرق في القضاء فقط ، حيث يجب أن تقضي الصوم دون الصلاة ، فاغتبط بهذا التنبيه والتصحيح .

ان من يتحرى الحقيقة يطلبها في مظانها ، ويشد الرحال اليها اينما كانت وتكون ، ان الشيعة الامامية ليسوا من الطوائف الباطنية ، وعقيدتهم وفقههم وفلسفتهم ليست من الغيبيات وكتبهم في متناول كل يد، وعلماؤهم في كل مكان ، والطريق اليهم واضح ، فاذا تجاهلهم كاتب كسلا ، أو تحاملا يكون الذنب ذنبه هو لا ذنبهم .

منذ ثلاث سنوات زارني مستشرق فرنسي ، وقال : اني وضعت كتابا في التناسخ ، وأريد أن أذكر فيه رأي الشيعة ، وقصدتك لمعرفة الحقيقة ، وحين ذكرت له أقوالهم في ابطال التناسخ وفساده استغرب ، وقال : ان

صدر المتألهين الشيرازي يقول بالتناسخ ، وينسبه الى الشيعة .. فقلت : كلا ، أما منشأ اشتباهك فهو أن من علمائنا من يقول استنادا الى ظواهر بعض الاخبار أن المجرم يحشر يوم القيامة على هيئة بعض الحيوانات والحشرات عقابا له على جريمته ، فالمتكبر يحشر على صورة نملة تداس بالاقدام جزاء على علوه وشموخه ، والمراوغ على هيئة الثعلب ، والمؤذي على صورة الافعى ، وهذا شيء ، وتناسخ الارواح في الدنيا شيء آخر .

ثم أرشدته الى المصادر المعتبرة ، وقال لي : أريد الذهاب الى النجف الاشرف لهذه الغاية ، وطلب مني أن أزوده برسائل وتوصيات ، ففعلت ، وسافر الى النجف ، وبقي فيها أسبوعين ، ورحب به العلماء ، وهيأوا له ما أراد ، وكان مسرورا ، وأرسل الي كتابا من النجف يشكرني فيه ، ويذكر علماء النجف وطلابها بكل خير ، ويصفهم بالخلق الكريم ، والعلم الغزير .

وبعد ، فان الغرض من هذه الاشارة أن أضرب مثلا من هذا المستشرق ، ومن الدكتور « كونتر » على أن من أراد معرفة ما عند الشيعة يمكنه الوصول اليها متى شاء ، وان من جهل أو تحامل فهو وحده المسؤول عن تعديه وتجنيه ، أو عن اهماله وتقصيره في طلب العلم والمعرفة .

الصدق في هجاء دعبل*

مشى الشعر مع الحياة في جميع أدوارها ، فوصف الجمل والاتان في العصر الجاهلي ، والحضارة العربية في عصر الرشيد والمأمون ، والطائرة والكهرباء في القرن العشرين ، فظهر أثر الفلسفة في شعر المعري وأبي تمام ، ووصف القصور والرياش في شعر البحتري ، والراح والمغنيات في شعر الحكمي • أما دعبل فليس في شعره أية صورة لتلك الحضارة وألوانها ، فلا فلسفة ، ولا قصور ، ولا أزهار الرياض وأنوارها ، ولا مركب البحر وجواريه ، فان ايمانه وشعوره المرهف وحبه لابناء جنسه ومقته للظلم والاستبداد صرفه عن ذلك كله الى هجاء الطغاة واعلان بغيهم وتشهير أعمالهم ، وقد ظلم دعبل من قال : انه خبيث ثائر على المجتمع وقاطع طريق بفطرته • كلا ، بل هو مصلح ناقم على الظلم والعدوان ، وثائر على الجور والطغيان ، ومن درس التاريخ واطلع على أسراره يحكم أن شعره صورة صادقة لسياسة عصره ومرآة صافية تنعكس فيها الحقيقة على وجهها ، فقد صور الخلل والنقص في سياسة العباسيين والاخطاء التي ارتكبوها • وكان من جرائها ذهاب الامبراطورية العربية ، وانما سكت من سكت عنها من الشعراء طمعا بالحطام ، وخوفا من السيف ، أما دعبل الذي حمل خشبته أربعين سنة ينشد من يصلبه عليها فلم يرض لنفسه الرياء والخيانة • بل رفع صوته عاليا ينعي على الرشيد الذي بلغ بجوره ما لم يبلغه الامويون من قتل أئمة المسلمين ، وعلمائهم الصالحين ، والخيرة من رجالات العرب :

قتـــل وأسر وتحريق ومنهبـــة فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
اري امية معذورين ان قتلوا ولا أرى لبني العباس من عذر

---

* نشر في العرفان عدد تشرين الثاني ١٩٤٧ •

ولما بويع ابراهيم بن المهدي ببغداد واحتبس العطاء ، قال الجند : ليخرج خليفتنا يغني لاهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ، ولاهل هذا الجانب مثلها ، فتكون عطاءنا ، فقال دعبل :

يـا معشر الاجناد لا تقنطوا ... وارضوا بما كان ولا تسخطوا

فسـوف تعطـون حنينيـة ... يلتذهـا الامـرد والاشمط

والمعبـديـات لقـوادكـم ... لا تدخـل الكيس ولا تربط

وهكـذا يـرزق قـواده ... خليفـة مصحفـه البربـط

ووصف جهل المعتصم والواثق والمتوكل ، وقصور نظرهم عن ادراك العواقب ، اذ جعلوا قيادة الدولة العربية الاسلامية بيد الاتراك الذين كانوا سببا مباشرا في هدم الامبراطورية وتقويض دعائمها ، قال في خلافة المعتصم :

لقد ضاع ملك الناس اذ ساس أمرهم ... وصيف واشناس وقد عظم الكرب

وصيف وأشناس من الاتراك ولاهما المعتصم القيادة العامة حينما بلغت حدود الدولة الاسلامية حدود الهند الصينية، ويدلنا قول دعبل : على أن المسلمين تنبأوا بمصير الخلافة وذهاب سلطان العرب منذ اليوم الاول الذي تولى فيه الاتراك القيادة ، مات المعتصم وقام ولده الواثق ، واستمر على خطأ أبيه في استعمال الاجانب واهمال الجيوش العربية ، عين أشناس التركي سلطانا للدولة ، وتوجه بتاج مرصع ، وسوره بسوارين من ذهب ، فيئس الناس من الاصلاح ، وأيقنوا بالاتحلال والفساد ، ومقتوه كما مقتوا أباه من قبله ، فقال دعبل لما بلغه موت المعتصم وقيام الواثق :

خليفة مات لم يحزن له أحد ... وآخر قام لم يفرح به أحد

مات الواثق ، وقام أخوه المتوكل الذي وصفه التاريخ بأنه كان غارقا في لهوه مستسلما لشهواته عاكفا على معاقرة الخمرة مفرطا في اقتنـاء

العبيد ، قال دعبل :

ولست بقائل قذعا ولكن ... لأمر ما تعبدك العبيد

هذا طرف من شعر دعبل في الهجاء الذي هو صور حقيقية ، ووقائع تاريخية ، بعثه عليها حب الخير والصلاح ، وكراهة العسف والجور ، ولم نقرأ له بيتا واحدا في الهجاء قاله في غير مستحقه افتراء ، ونظمه اعتداء . أما أولي الفضائل والكرامات فقد مدحهم ، وأثنى عليهم ثناء من لا يبتغي على قوله أجرا ، ولا يطلب شكرا :

دع عنك ذكر زمان فات مطلبه ... واقذف برجلك عن متن الجهالات

واقصد بكل مديح أنت قائله ... نحو الهداة بني بيت الكرامات

فهؤلاء هم الذين يطيب بهم القول ، ويصدق بهم المديح . ويرتفع بهم الثناء الى حضرة الجلال .

لقد ثار دعبل وصال ، ولكن وجه ثورته وصولته على المسرفين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون . ولم يكن كغيره من الشعراء الذين دلسوا على الناس ، وكذبوا على الله وعلى أنفسهم ، وابتغوا الثراء . بالركون الى الظالمين ، ومظاهرة المجرمين .

دعبل وابو عباد :

كان أبو عباد من حواشي المأمون وموظفي دولته ، فهجاه دعبل بأبيات فيها من التصوير الرائع والسخرية اللاذعة ما ملأ نفس المأمون اعجابا ، وأضحكه الناس جميعا من أبي عباد . فاذا رأى المأمون أبا عباد يضحك ويقول : والله ما كذب دعبل في قوله ، كان أبو عباد من الحمقى الذين أعصابهم أسلاك كهربائية ، فلم تمر عليه ثانية مع جلسائه حتى يعلو الصياح والصراخ ، ثم ينقلب الى الضرب باليد والتراشق بالدواة والاقلام ، وبكل ما تيسر .. فهذا مضمخ بالمداد الاسود ، وذاك بالدم الاحمر ،

وثالث بهما معا .

أولى الامور بضيعة وفساد	أمـر يدبره أبـو عبـاد
خرق على جلسائه فكأنهم	حضروا لملحمة ويوم جلاد
يسطو علـى كتابه بدواته	فمضمخ بدم ونضح مداد
وكأنه من دير هرقل مفلت	حرد يجـر سلاسل الاقياد

لا شيء أروع مـن الصورة التي يرسمها الشاعر في بيته الاخير : مجنون طال قيده وحبسه في المارستان ، وذاق من ظلم الحراس والجلاوزة شتى الالوان ، سنحت له الفرصة ، فأفلت من بينهم وأسرع يهرول في قيده . مجنونا حردا هاربا خائفا !! منظر مدهش مخيف مضحك في آن واحد !

تأثرت نفس الشاعر بمنظر أبي عباد ، فأيقظ فيـه روح العبقرية والالهام بهذا الوصف الشائق الذي حوى أعلى درجات الابداع الفني ، تجلت هذه الصورة في نفسه من نظرات كان يصوبها الى أبي عباد ، ينظر اليه ثم يرجع الى نفسه متأملا يمتحن خصائص الصورة وأشكالها ليكون على يقين من صدقه في التصوير ، وابداعه في دقة الوصف .

جمال التعبير*

التعبير لسان العبقرية ، وسر التفاهم والتعارف ، وسبيل العلوم والحضارة ، ورسول العقول والعواطف .

ان التعبير وصف دائم لكل موجود ، فلا ينفك ملازما للموضوعات الخارجية المستقلة عن الانسان وادراكه وأفكاره ، وللاعمال المنبعثة عن عقله ورويته ، وشعوره وعواطفه . اذن هو صفة ايجابية عامة ، لا تنحصر بالالفاظ والاساليب الكلامية ، فكل موجود يترجم بلغته عما لدى الموجد من ينابيع الفيض ، والى أي حد من الوجود يبلغ ذلك الفيضان .

فالكون يعبر عن ارادة الخالق وعظمته، والكهرباء عن فكر اديسون ، ويحكي التمثال والصورة ملامح الكائن المصور وأوصافه ، كما يعبران عن مقدرة الفنان ومهارته ، وينفذ الشاعر الى أعماق النفس وخفاياها ليعبر بلغة الارواح عن نوازعها وأمانيها .

أما الجمال فانه يضيف الى الموجود قيمة أجل وأسمى من وجوده المحض ، فيجعله مظهرا من مظاهر الفن ، ومثلا من المثل العليا للكمال .

وللجمال عناصر يتكون منها ، وأركان لا بد من وجودها ، كما أن له أنواعا ودرجات تبعا للعوامل والمؤثرات .

فالركن الاول : تكامل الاجزاء ، وعدم خروجها عن النظام بالزيادة والنقصان .

الثاني : الانسجام وعدم النشوز ، فينزل كل جزء في منزلته ، ويوضع على قدره ، فلا يكفي في جمال الجسم مناسبة طوله مع عرضه ، وملاءمة الجزء في حجمه للكل في كميته .

---

* نشر في العرفان عدد آذار ١٩٤٧ .

الثالث : أن لا يكون مبتذلا ، فكل مبذول يولد الجمود والسآمة ، وكل جديد يبعث على السير والتقدم ، ولا ينحصر التجديد وعدم الابتذال باختراع المعاني وخلق الموضوعات بل يكون بالعرض والاساليب ، والاشكال والازياء ، فالآنسات والسيدات يطلعن على الرجال في كل يوم بزي جديد من الملابس وآلوان المساحيق وقص الشعور ، والغربيون يقدمون لنا في كل عام طرازا حديثا من السيارات وغيرها ، وبالرغم من أن الجوهر واحد فان تغير الشكل والعرض يذهب بالملل ويجدد رغبة النفس ونشاطها ، والطعام الواحد يختلف ميل النفس اليه باختلاف طهيه وكيفية اعداده .

ان جمال الروح والشعور كجمال الطبيعة نمت عواطف الانسان بمناظرها وتكونت أخلاقه بسننها ، فجمال الطبيعة هو المقياس الوحيد لجمال آثار الانسان المادية والروحية ، وعلى ضوء هذه الحقيقة ساغ لنا القول انه اذا عبر الانسان عن شعوره بجلاء ووضوح ، وتلاءمت أفكاره بدون تشويش واضطراب ، ولم تكن ساقطة مبتذلة ، هزيلة العرض ، تحقق الجمال في الادب ، ولازمه ملازمة المسبب لسببه . ومتى فقد الوضوح فلا يكون هناك اسلوب أبدا ، لان الاسلوب كشف وبيان . واللفظ المبهم كالمعدوم الذي لم يبرز الى الوجود ، لان الموجود لا بد أن ينتهي الى نتيجة ما ، وينقلنا من ظلمة الجهل الى نور المعرفة . والغموض يزيدنا جهلا وتضليلا .

لا أظن أن امة على وجه الارض لديها من كتب التشريع وفلسفة التشريع ، ومن أسفار الحكمة والفلسفة ما في خزانة المسلمين ، ان في تلك الالوف من المجلدات جهودا جبارة ، ودراسات علمية تملأ النفس روعة ، والقلب اعجابا ، ولكنها يا للاسف ليس لها من الخطر والشأن واحد من مليون بالقياس الى ما تحويه من الكنوز ، والى ما لاقى جهابذة الفكر في سبيلها من العناء والمتاعب ، وما ذاك الا لعدم مجاراتها للعرض الحديث

بسبب ما فيها من الغموض والتشويش في الترتيب والتبويب .

ومتى تحقق الافصاح ، وافتقد الانسجام كان كقول القائل :

مات الخليفة أيهـا الثقلان   فكأنني افطرت في رمضان

واذا وجد الانسجام والبيان ، وكان كل من العرض والفكرة ساقطا مبتذلا كقوله :

أورثوني يـوم ولوا   طول حـزن وأنينا

فلا يحدث شيئا سوى الانين والعنين . وأظهر مثال يجمع حدود الجمال وقيوده قول شوقي :

نظـرة فابتسامة فسلام   فكلام فموعد فلقـاء

أجزاء متعددة متنوعة ، ذكرها الشاعر حسب ترتيبها الطبيعي ، فأنزل كل جزء في منزلته حتى جاء البيت اكليل زهر جمع بين أنواع الورود وألوانها ، ووضع كل زهرة الى جانب زهرة تباينها مبنى ، وتلائمها معنى ، فكان لكل واحدة من الروعة والجمال ما للاكليل كله ، ان الجديد في هذا البيت هو انتباه الشاعر الى الترتيب الطبيعي ، والتعبير عنه بأسلوب فني ، فاستحق من العظمة ما يستحقه مكتشف أميركا الذي لم يخلق البلاد خلقا جديدا .

ان الوضوح والانسجام وعدم الابتذال عناصر تحقق الدرجة الاولى للجمال ، ثم يرتقي الى أن يصل الى القمة العليا التي ليس فوقها شيء ودونها كل شيء .

يتفاوت الجمال تبعا لعمق الاحساس ، وسعة الخيال ، ودقة الملاحظة ، وبراعة الوصف ، وقوة السبك ، وما الى ذلك مما تداول على ألسنة المتأدبين وأقلام الكتاب في هذا العصر .

من هنا نبدأ*

منذ أشهر سمعت راديو باريس يذيع عن كتاب « من هنا نبدأ » للاستاذ الشيخ خالد محمد خالد من علماء الازهر ، وأشاد المذيع بجرأة المؤلف وآرائه الجديدة المفيدة ، ثم سمعت بالضجة التي أثيرت حول الكتاب في مصر ومصادرته ومثول صاحبه أمام القضاء بتهمة المروق من الدين والخروج على النظم والقوانين ، وان الشيخ انتصر أخيرا ، وخرج من المعركة ظافرا مؤيدا ، وأعاد طبع الكتاب ثانيا ، وثالثا ، ورابعا في بضعة أشهر ، وانه لفوز عظيم قلما بلغه كتاب عربي من قبل .

بحثت عن الكتاب في مكاتب بيروت ، وبعد صبر طويل حصلت على نسخة من الطبعة الرابعة ، فقرأته قراءة درس وتفكير من ألفه الى يائه ، مهتما — قبل كل شيء — بالبحث والتنقيب عن كلمة تمس جوهر الدين الاسلامي ، قامت الضجة حول الكتاب بحجة التعدي على الاسلام ، والترويج للشيوعية ، فكان من المألوف — وأنا متخرج من النجف — أن أستقصي الكتاب بهذا الدافع وهذه الروح ، أما النتيجة التي انتهيت اليها بعد الدرس فهي أن الكتاب في صميمه اعلان لتظلم المحرومين ، وشكوى من أدوائهم يرفعها صاحبها المحترق الى الله سبحانه والمجتمع ، وتحذير من تأثيرها السيء الذي يعم الغني والفقير ، والحاكم والمحكوم ، والظالم والمظلوم على السواء ، وان هذه الشكوى ، والاعلان ، والتحذير لا تتنافى مع نصوص الدين ومبادئه العامة — على ما أرى — وفي الكتاب أمر واحد محل للنظر من الوجهة الدينية ، سنشير اليه في ختام هذه الكلمة .

---

* نشر في العرفان عدد شباط ١٩٥١ .

وقبل أن أعرض صورا من الكتاب أود أن أمهد لها بأن كثيرا من أرباب الاقلام قد أطالوا الكلام في تشخيص أدوائنا ، وأطنبوا في وصف العلاج والدواء ، ولكن شتان ما بينهم وبين الشيخ خالد ، انك تحس وأنت تقرأ من هنا نبدأ ان كاتبه ثاكل ، وليس بمستأجر ولكنه في الوقت نفسه مؤمن عاقل ، ان العاطفة كثيرا ما تطغى على العقل والدين ، وتتسلط عليه تسلطا قاهرا ، وقد تتفق عوامل الدين والعقل والعاطفة في التأثير ، وهناك تجد الحق والحكمة والجمال ، وتلتقي السلطتان : سلطة العقل المشرع والعاطفة المنفذة ، وهذي هي ميزة كتاب من هنا نبدأ في أكثر أبحاثه ، وهذا هـو سر نجاحه ورواجه ، واليك صورا لهذا الاتحاد والتحالف بين أنواع المنطق المختلفة المتباينة بطبعها ووضعها .

الدين والكهانة

يجب التمييز التام بين الكهانة والدين ، وعلى الصحيح التمييز بين رجال الكهنوت ورجال الدين الحقيقيين ، والفارق بين الاثنين أن الكهانة تدعو الى الكسل والفقر ، ويدعو الدين الى العمل والغنى عن طريق الكسب ، وأن الكهنة يرغبون الناس في المحافظة على ما هم فيه من سغب وشقاء ، وهم أسبق العالمين الى اقتناص المغانم والبحث عن المال والجاه ، ان شعار الكهانة وشرعتها « الارض ومن عليها للملك » والناس آلة صماء يسخرها الاغنياء والرؤساء في سبيل مصالحهم ، أما شعار الدين فالحرية ، وسعادة البشر كافة على قدم الاخاء والمساواة .

الصدقات

ان الاسلام لم يعتبر الصدقات كمبدأ عام يحل به المشاكل الاقتصادية ، ويحارب به الفقر ، وانما أباحها لسد حاجات العجز الذين لا يجدون ما يقيم الاود ، ويسك الريق ، لانها أوساخ الناس ، وغسالة الذنوب ، كما نعتها الرسول (ص) ، واذا كانت الصدقات في نظر الاسلام

غسالة تورث المذلة والعبودية فكيف يجعلها مصدرا للعيش ، ومهنة للارتزاق ! أما الزكاة فليست صدقة في كنهها وحقيقتها ، ولا نافلة من نوافل البر ، وان سميت بذلك في الكتاب والسنة ، وانما هي في واقع الامر ضريبة مفروضة يعود نفعها على الصالح العام ، وتؤخذ بالجبر عن مانعها •

لا فضيلة من غير مادة

لقد أخطأ الكثيرون من ذوي النيات الطيبة الذين كرروا القول : ان الشرق خلق ليكون مصدر روحانيات ، ويجب أن يظل كذلك ، وان مادة الغرب لا تليق به • لقد أخطأ هؤلاء من غير قصد ، ووجه الخطأ أن المحروم الذي لم يجد ما يثقف به نفسه ويربيها ويطعمها ، ويسقيها لا يصير انسانا فاضلا ، وان الحرمان يفقده سكينة النفس وغبطتها ، ويمتص منه روح العزيمة والامل ، وان المجتمع المتمتع بعافية اقتصادية هو الذي تزدهر فيه الفضائل ، أما المجتمع السغبان المضني فلا وجود فيه للفضيلة ولا للروح ، ان الرخاء هو الجهاز وهو الغدد وهو الخلايا التي تحيا بها الشعوب ، واذا كانت الروحانية تعني السلام والاخاء والمحبة فان الحرمان يؤجج نار الحقد والبغضاء والتشاؤم في النفوس من الحياة وأهلها ، ولذا قال أبو ذر : اذا ذهب الفقر الى بلد قال له الكفر : خذني معك ، ان الطاقة الروحية ، والسكينة الاجتماعية ، والفضائل النبيلة لا تولد الا من الطاقة الاقتصادية ، ولا تبدأ الا من المعدة الممتلئة ، وهيهات أن يتجدد قلب المجتمع ، وتطهر طبيعته ما لم تتغير أوضاعه المالية ، اذن ايمان الانسان بحقوقه ، ورغبته في الحياة ، واصراره عليها أساس الروح وينبوع الفضيلة ، وبدون ذلك لا روح ولا فضيلة •

المنابـــر

يجب على شيوخ الازهر أن يهيئوا وعاظا وأئمة مساجد يتفق وعيهم

مع المبادىء الصحيحة ، كي يعرضوا الدين عرضا صادقا جديدا ، وأن يؤلفوا لهذه الغاية (مجمع العلماء) ليختار لكل منبر في مدينة أو قرية رجلا ذا فهم واسع ، وادراك رشيد ، ووعي جديد ، ويقصي عن المنابر الذين يعالجون مواضيع اقتصادية ، أو سياسية ، أو اجتماعية ، وهم لا يفقهون منها كثيرا أو قليلا ، كالشيخ الذي وقف فوق المنبر يوم جمعة ، وافتتح خطبته بقوله : الحمد لله الذي أمرنا أن نأخذ من الشيطان كل حذر وحيطة ، ومن أجل ذلك حرم علينا لبس البرنيطة ، وكالشيخ الآخر الذي خطب يوم جمعة قائلا : لعلكم تقرأون في الصحف الكافرة أن العلماء سيتصلون بالقمر ، وان المريخ كوكب عامر بالناس ، هذا كفر ، والقمر ليس الا مصباحا منيرا ، والشمس كذلك ، والارضون سبع ثابتة لا تدور ، والسماوات سبع : الاولى من نحاس ، والثانية من رصاص ، والثالثة والرابعة الخ .

الخبز هو السلام

ان السلام عند الدول الكبرى يعني أن تجد لبضائعها أسواقا ، ولطائراتها بترولا ، ولاطماعها مجالا ومناطق نفوذ ، أما عندنا نحن العرب والدويلات الصغيرة فيجب أن يعني السلام ــ قبل كل شيء ــ وجود الخبز للجائع ، والمأوى للمتشرد عن طريق العمل ، ان التذمر الذي نسمعه من كل لسان ، ونقرأه على كل وجه يتنافى مع السلام ، وان الحقد والضجر وما الى كل ذلك يقود الى الثورة الاجتماعية حتما ، وان الحكم بالاعدام جوعا على أمة كي تتخم أفراد عاطلة متغطرسة معناه الحرب الدامية ، وهل يسوغ لعاقل أن يقول عن بلد يصرف فيه الفقير على الغني ، وتبنى فيه الثروات بالظلم : انه يعيش بسلام وأمن وأمان ، ومن الشواهد على أن مصر ينفق فيها الفقير على الغني ان قيمة الضرائب المفروضة على أصحاب الاراضي الزراعية تبلغ ٤،٧٠٠،٠٠٠ جنيه في حين أن ميزانية مصلحة الري التي تقوم على خدمة هذه الاراضي وتنظيم ريها تبلغ ٦،٢٠٠،٠٠٠ جنيه ،

أي أن مصر تتبرع سنويا لاصحاب الاملاك بمبلغ مليون وخمسمائة ألف جنيه ومثلها الاملاك المبنية ، ومن الشواهد على أن مصر يأكل فيها الغني الفقير ان راتب فراش الازهر لا يزيد على سبعة جنيهات مع أن راتب شيخ الازهر يقرب من ألف جنيه ، ومن الموظفين في مصر من يتقاضى عشرة جنيهات ، أما رئيس الوزارة فيتقاضى ثلاثمئة جنيه ، ان التفاوت بين أفراد البشر أمر طبيعي لا مناص منه ، ولكن يجب أن يكون شريفا يرتكز على عوامل معقولة لا على الجشع والطمع ، ففي سويسرا يتقاضى الكناس ما يعادل خمسة وعشرين جنيها ، ويتقاضى رئيس الجمهورية خمسة أمثاله، وفي أميركا يتقاضى عسكري المرور ما يعادل مئة جنيه ، ويتقاضى ترومان أربعة أمثاله ، وكذلك في انكلترا وفرنسا وروسيا •

ان هذه الامور التي قدمناها بين يدي القارىء نقلا عن كتاب من هنا نبدأ تتفق — كما قدمنا — مع منطق الدين والعقل والعاطفة ، ويؤيدها القرآن والوجدان ، أما الامر الذي يتنافى — بظاهره — مع الدين فقول المؤلف في صفحة ٨٢ : ان التزام طريقة واحدة في العبادة أمر مستحيل ، مستشهدا بنسخ قبلة المسلمين الاولى ، وتطور الصلاة ، ووجه المنافاة أنه قد اتفقت كلمة المذاهب الاسلامية على أن العبادة من الامور التوقيفية لا يجوز التصرف فيها بشيء الا عن طريق الوحي ، فبه يمكن النسخ ، والتعديل بالزيادة والنقصان ، وبدونه يجب الوقوف وبديهة أنه لا وحي بعد الرسول (ص) •

وعلى أي الاحوال فان مثل هذه الملاحظة لا تحط من قيمة الكتاب الذي يصدق القول فيه : انه كتاب الشعب ومصباحه المنير ، وحبذا لو كثرت فينا هذه الاقلام الجريئة التي تنبه الغافلين ، وتوقظ فيهم الاحساس والشعور ، فأول ما يتوجب على الكاتب العربي أن يوجه مواطنيه الى السبل التي تحل مشاكلهم الكثيرة ، وتحررهم من القيود الثقيلة ، وتدفعهم الى الوعي والرغبة في الحياة •

الفقر والفقراء*

قرأت قرارات المؤتمر الثاني الذي عقده الادباء العرب في بلودان سنة ١٩٥٦ فوجدتها ترسم الطريق السوي لغد مشرق ، وبكلمة أجمع وأبلغ هي في ذاتها عمل فني أنتجه المؤتمر ، وكسب للعرب وللناس كافة . كما قال الاستاذ علي الراعي في جريدة المساء .

والذي أثار انتباهي أكثر من أي شيء ، ووقفت عنده طويلا أن المؤتمر بعدما أكد ضرورة الاهتمام بالتراث العربي القديم حدد هذا الاهتمام باعادة النظر في ذلك التراث في ضوء ما وصلت اليه الثقافة الحديثة ، ومعنى هذا أن لا نبارك ونمتدح كل قديم لا لشيء الا لانه التراث المقدس للاجداد والامجاد ، ولا نذمه ونقطع صلتنا به زاعمين أنه ذهب بذهاب وقته بل يترتب علينا أن ننقد كل أثر من آثار السلف ، ونقف منه موقفا علميا ، فاذا اكتشفنا فيه فكرة تقوم على أساس العلم أحييناه ووجهنا اليه شباب الجيل ، لينطلق من هذه السبيل الى معالجة الادواء والمشكلات ، ويجتنب كل فكرة تحتقر العلم ، ولا تقيم وزنا للتجارب ، واذا بدت ملامح الجهل والخرافة في بعض ما لدينا من تراث فان فيه الى جانب ذلك رصيدا كبيرا من الوعي والمعرفة التي ينتفع بها الناس . ان تراثنا القديم كآراء المعاصرين ، فيه الصحيح وفيه العليل ، والمحك هو النقد والدرس في ضوء الحقائق الثابتة بالتجربة الصحيحة والتطبيق العلمي .

ونقدم من ذلك التراث كتاب « الفلاكة والمفلوكون » لاحمد بن علي الدجلي .

---

* نشر في العرفان عدد كانون الثاني ١٩٥٩ .

قال المؤلف « تلقينا لفظة المفلوك من أفاضل العجم يريدون بها الرجل الغير المحظوظ المهمل في الناس لفقره واملاقه » . وكان الدجلي من الفقراء المهملين ، ومن أجل هذا وضع كتابا عنهم ، وقد روى في هذا الكتاب حياة عديد من أهل العلم والادب الذين عانوا آلام الفقر والعوز ، وأطال الحديث في فصوله الاولى عن الفقر وأسبابه وآثاره ، واذا أخطأ في بعض أقواله فقد أصاب كبد الحقيقة في كثير من مقاييسه وأحكامه ، وبخاصة في الفصل الرابع ، حيث أطنب وأسهب في الكلام عن مساوىء الفقر وتمداد آفاتــه .

وهي تتلخص في ان النفوس مجبولة على المساواة ، ولا تحب لغيرها أن يتفوق عليها ، ويمتاز عنها في شيء ، فاذا حصل التفاوت بين الناس في الغنى والفقر تولدت مساوىء كثيرة منها ان أحوال الانسان لا قوام لها الا بالتعاون « حتى الرغيف من الخبز لا يصير رغيفا الا بآلات وأعمال تفتقر الى صناع كثيرين كثرة بالغة » والتعاون الصحيح لا يتحقق الا بمساندة جميع أفراد المجتمع وفئاته ، وهذا لا يمكن بحال في مجتمع فيه غني وفقير ، لان مصالح الاغنياء تتنافى مع مصالح الفقراء ، والحجاب بينهما كثيف مظلم ، وفي هذا القول اشارة صريحة الى تصارع الطبقات وتناقضها . ومنها أن الفقر ينبت أخلاقا رديئة مــن الكذب والخيانة والخديعة والغيبة والخبث وسوء الظن بالله والحقد والانتقام ، ولذا قال الشاعر :

اذا لم يكن للمرء في دولة امرىء نصيب مــن الدنيا تمنى زوالها

ويعزز هذا القول ما انتهى اليه ممثلو الفكر الحديث الذين يبحثون عن الحقيقة في الارقام لا في الكلام من أن هذه الرذائل ناشئة عن الاوضاع الفاسدة ، عن بيئة الانسان ومعيشته لا عن نفسه وسريرته ، فاذا ما تغيرت البيئة الاجتماعية زالت تلك الادواء . ومنها أن الفقر يخفي المحاسن ، ومن أجل هذا كان بعض العلماء البائسين يؤلفون الكتب وينسبونها الى غيرهم

كي يقبل عليها الناس مثل كتاب « الورقات » نسب الى امام الحرمين ، وكتاب « السر المكنون » نسب الى الغزالي ، وكتب أخرى نسبها أصحابها الى الزمخشري والرازي وغيرهما ، ولا سبب لهذه النسبة الكاذبة الا فقر المؤلف ، كما أن رجالا من السلف بعد صيتهم ، وطار ذكرهم في الافاق ، واشتهروا بالعلم والصلاح ، وليسوا هناك ، وانما تزلف اليهم من تزلف بالثناء الكاذب والتصنع البغيض لثرائهم وجاههم ، فالتبس الامر على من لا يعلم بالحال ، وظن أن المدح واقع في موقعه . وفي هذا دليل على الايمان بقوى الشعب النامية ، ولكن النظم الجائرة أظهرت الطيب بمظهر الخبيث . والخبيث بمظهر الطيب ، ومنها أن الفقر يدعو الى التعلق بالاسباب الواهية ، كالنجوم والسحر ، لان الفقير اذا عجز عن المعاش ، وسدت في وجهه المسالك الطبيعية تشبث بالمستحيلات ، واستنشق العيش من حيث تهب ريحه ولا تهب .

وبالتالي ، فان الثقافة الحديثة تقر الدجلي بأن جرثومة هذه الادواء تكمن في الفقر ، وبخاصة الجريمة فانها تكثر وتنتشر بقدر ما يكون التفاوت بين سكان الشعب الواحد ، ولا أدل على هذه الحقيقة من انتشار الجرائم في الولايات المتحدة ، حيث ضربت الرقم القياسي وفاقت شعوب العالم في هذا المضمار . قرأت نقلا عن جريدة « نيورك تايمز » أنه خلال الـ ٢٥ سنة الاخيرة بلغ عدد الموقوفين في السجن سبعة أضعاف ما بلغ عدد السكان ، أي ان الجرائم زادت بمقدار ما زادت أرباح الشركات الاحتكارية . ولا ننسى وان طال الامد أن الجرائم كبيرها وصغيرها لو اجتمعت منذ بدء الحياة الى آخر يوم لتلاقتها اثما وعدوانا تلك القنبلة التي أفنت سبعين ألفا من اليابانيين في لحظة واحدة اكراما لعيون المحتكرين .

من هنا وهناك *

شمس تستغيث بذبالة

يقول الاستاذ الكبير ميخائل نعيمة في كتاب البيادر : « اما عجبتم لمشهد غريب فأعجبوا معي لهذا الشرق • وقد أهدى الى العالم المحبة والقناعة والتضامن والتآخي يقف اليوم على مفترق طريق البصيرة والبصر، كسير القلب ذليل الجفن ضامر الصدر والبطن ، ويمينه فارغة ممدودة نحو الغرب ، وفي يساره قائمة بأسفاره المقدسة وأسماء أنبيائه • ثم اسمعوه يستعطي بصوت متهدج فيه الانسحاق والمسكنة والاندحار • وماذا يستعطي ؟ انه يستعطي طيارات ودبابات ومدمرات ومدافع وقنابل ، واني لاسمعه يقول : من يقايضني قنبلة محرقة بآية منزلة ؟ وطيارة أو دبابة بسفر مقدس ؟ بل من يقايضني مخترعا واحدا بعشرة أنبياء ؟

ما هذا ؟ ما هذا ؟ أبصيرة تستجدي بصرا ؟ أشمس تستغيث بذبالة ؟»

ضعف الطالب والمطلوب

قال الجاحظ في كتاب الحيوان : « كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبدالله بن سوار . وكان حليما وقورا مهيبا في أصحابه ، لم يطعن عليه أحد ، وقد ضبط نفسه وملك حركته • كان يصلي الغداة ويجلس في مجلسه بالجامع ، فلا يتكيء ولا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحل حبوته ولا يضع رجلا على رجل ولا يعتمد على أحد شقيه حتى كأنه بناء مبني ! ولا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة الظهر ، ثم يعود الى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يصلي العصر ثم يرجع الى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يصلي

---

* نشر في العرفان عدد تشرين الاول ١٩٤٩ .

المغرب ثم يصلي العشاء ، وينصرف الى منزله ، يسكث على هذه الحال من الغداة الى العشاء ، فلم يقم الى الوضوء ولم يحتج الى شرب ماء ! كذلك كان شأنه ! في طوال الايام وقصاراها ، لا شيء الا أن يتكلم من غير أن يحرك يده ولا يشير برأسه ، فبينما هو كذلك ذات يوم اذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المكث ، ثم تحول الى جفن عينيه فرام القاضي الصبر على عض الذباب ونفاذ خرطومه ، ولكنه أوجعه وأحرقه ، فأطبق جفنه الاعلى على جفنه الاسفل ، فتنحى الذباب ريثما سكن الجفن ثم عاد وغمس خرطومه في مكان أدماه وأوهاه ، فألح في فتح العين وتتابع الاطباق ، فتنحى الذباب بقدر ما سكن الجفن ، ثـم عاد فاستفرغ القاضي صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدا من أن يذب عن عينيه بيده ثم بطرف كمه وقال : استغفر الله فما أكثر من أعجبته نفسه فأراد الله أن يعرفه من ضعفه ما كان مستورا ، وقد علمت اني عند نفسي من أضعف الناس ، فقد غلبني أضعف خلقه ! ثم تلا قوله تعالى : « وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » .

السنة والشيعة

من فوائد مجلة رسالة الاسلام التي تصدر عن دار التقريب بالقاهرة ما جاء في عددها الثالث من السنة الاولى بقلم الكاتب الكبير أحمد أمين صاحب فجر الاسلام وضحاه : قال تحت عنوان التسامح الديني في الاسلام : « قد يكون بين المذاهب الاسلامية اختلاف في الاجتهاد أو في تطبيق المبادىء الاسلامية ، ولكن لم يتعد هذا أن يكون في مسائل جزئية لا ينطبق عليها كلمة مذهب .. ثم قال : وشاع بين المسلمين لا يكفر أحد من أهل القبلة بارتكابه ذنبا ما دام غير مستحل له .. فلا يصح أن يكفر أحد منهم .. فالنزاع الحاد والدماء المسفوكة بين السنة والشيعة نزاع سياسة لا دين .. بل نظر الاسلام الى الاديان الاخر نظر سمح كريم فقد

سمى اليهود والنصارى أهل الكتاب ، وسماهم أهل ذمة ، وهما تسميتان في منتهى اللطف ... ومن الخطأ تحميل الدين جرائر السياسة » .

وهذه الحقيقة التي نطق بها هنا صاحب الضحى والفجر يقولها كل من اهتدى الى الصواب . ولم يتوخ الكسب والتجارة عن طريق بث روح التعصب والتفرقة بين الفرق الاسلامية .

ولا شيء أوضح في الدلالة وأصدق في الشهادة من آن كثيرا من الخصومات بين السنة والشيعة هي تجارية لا سياسية. مما حكاه فيلسوف الاسلام ومصلح المسلمين السيد جمال الدين الافغاني في كتاب « تتمة البيان في تاريخ الافغان ــ قال : يوجد في بلاد الافغان قبيلة تدعى التركمان يعيشون من السلب والنهب ، فيغيرون على بلاد ايران يأسرون الرجال والنساء ويبيعونهم باسم العبيد والاماء مستدلين بأن أسراهم من الشيعة ، وكثيرا ما يأسرون أشخاصا من السنيين ويجبرونهم بالضرب والكي على أن يعترفوا أمام الناس بالتشيع كي لا يمتنع أتقياء بخاري عن شرائهم ، واتفق أن بعضا منهم أسر عالما مــن أهل السنة فكبله بالسلاسل خوف الهرب ، ومع ذلك كان اذا حضر وقت الصلاة أطلقه ليؤم بالجماعة وكان بعد تمام الصلاة يقيده ثانية . ولما رأى العالم منه ذلك قال له آنت تعلم اني رجل سني فبأي وجه تجوز أسري وتحلل بيعي ، فأجابه انك لست بأشرف من القرآن الكريم ، فكما يجوز لي هبته ، كذلك يجوز لي هبتك أما البيع فحاشا » .

معنى الاجتهاد عند الشيعة

ان العارف بأصول الشيعة وقواعدهم الاساسية على وجهها الصحيح يلاحظ من محاورة أبناء العصر المثقفين ثقافة مدنية أنهم يخطئون الواقع في فهم الاجتهاد وفتح بابه عند الشيعة ، وسده عند السنة ، فيحاجون بما ليس لهم به علم.. مرددين قول : كيف يوجب علماء الشيعة هذا ويحرمون

ذاك مع أن الزمان تبدل وباب الاجتهاد مفتوح أمامهم على مصراعيه ؟!

والحقيقة أن الاجتهاد عند الشيعة ـ بالمعنى الذي يريده هؤلاء ـ مسدود سدا محكما مدى تعاقب الاجيال والعصور ، ولا سبيل الى فتح بابه مهما كان حظها من التقدم والرقي .

ينحصر دليل الاحكام عند الشيعة بالوحي بكلا نوعيه الكتاب والسنة ، فان السنة وحي باعتبار العصمة في تبليغ الاحكام ، أما العقل فان فقهاء الشيعة وان عدوه مع أدلة الاحكام فانهم لم يستعملوه في قياس ولا في أي مورد من موارد الظن ، وأحكام العقل المستقلة القطعية كوجوب رد الامانة وحرمة الظلم لا تتجاوز عدد الاصابع على أن الادلة عليها من طريق الوحي تجاوزت حد الاحصاء ـ وان تكن ارشادية تبعية لا مولوية مستقلة ـ وعلى أي الاحوال فان العقل لا أثر له عند الشيعة فيما يعود الى استخراج الاحكام واستنباطها منه ، وينحصر أثره في مرحلة الامتثال والتطبيق والخروج عن عهدة الاحكام بالتفصيل والاجمال كالاحتياط والتخيير ، فالعقل دليل الاحكام اسما لا عملا .

اذن الاجتهاد بهذا المعنى أي الاخذ بكل ظن سواء تولد من قياس أو استحسان لم يفتح بابه الا عند السنة فحسب ، وحقيقة الاجتهاد عند الشيعة هو استفادة الحكم من الكتاب والسنة من غير التزام بموافقة رأي أو مذهب بل يخلى الفقيه هو وظاهر الدليل ، فما توصل اليه فهمه يكون هو الحجة الوحيدة عليه ولا يلزم باتباع أي قول من الاقوال ، أما فقيه السنة فانه يستخرج الحكم من الدليل على شرط أن يكون موافقا لقول أحد الائمة الاربعة ولا يسوغ له أن يأخذ بفهمه مهما بلغت درجته من العلم والعبقرية ، يجب عليه أن يتقيد بالوحي وبرأي السلف معا ، بينما الشيعة لا يتقيدون الا بالوحي فحسب ، وبهذا الاعتبار شاع وذاع أن باب الاجتهاد مسدود عند السنة مفتوح عند الشيعة .

مع الكتاب والقلم*

تمهيـــــد

هذا صياد لا يعرف غير الشباك ، وما يقع فيها •• وذاك مزارع لا تتعدى آفاقه البذر والحصاد ، وآخر تاجر همه الكسب والربح ، ورابع موظف ينتظر آخر الشهر بفارغ الصبر ، وخامس أجير لمن دفع ، أمير على من منع •

ورجل عاش حياته في جدال ونقاش منذ الاول لدراسته الى ساعته هذه ، وربما الى آخر يوم في حياته ، فأول درس تلقاه بعد أن تعلم القراءة والكتابة « الكلمة اسم وفعل وحرف ، جاء لمعنى » •

وبعد أن ألقى الاستاذ هذه الجملة قال : لماذا قدم النحاة الاسم على الفعل ، والفعل على الحرف ، ثم لماذا قيدوا الحرف بأنه جاء لمعنى ، وأبقوا الاسم والفعل من غير قيد ؟ •

وثالثا هل هذا التقسيم مـن باب الحصر العقلي ، أو مـن باب الاستقراء ؟ •

وهكذا مضيت في دروس النحو •• تساؤلات وأجوبة ، واشكالات المحشين والشارحين ، واختلاف الكوفيين والبصريين ، والحجازيين والتميمين ، مع الادلة والطعن فيها •• وانتقلت مـن النحو الى منطق أرسطو ، وهل المنطق الا جدل ، وتأليف أقيسة للنقض والحل ، وافحام الخصم بالحق أو بالباطل ؟ ••

ومن المنطق الى مطول التفتازاني في علم المعاني والبيان ، وما عليه

* نشر في العرفان عدد تموز ١٩٦٢ •

من تعليقات للجلبي والسلكوتي والسكاكي والجرجاني •• ثم الى أصول الفقه الذي يكمن الفراكلة في جوفه ، من تحقيقات الشيخ الانصاري وجولاته الى المرزا محمد تقي ونظراته ، والشيخ الخراساني وتعقيداته ، والنائيني وتقريراته •• ثم الى البحر الخضم « الفقه » وأقوال المذاهب ، وآراء القدامى والجدد التي لها أول بلا آخر •

أما علم الكلام الذي عكفت عليه سنين طوالا فقد أنشيء للذب والدفاع عن عقيدة الاسلام ومعتنقيها باستخراج المتناقضات من أقوال الخصوم ، وأخذهم أسرى بلوازم المسلسات عندهم •

هذي هي دراستي ، وحياتي الفكرية : « ان قلت قلت ، ويرد طردا وعكسا ، ونقضا وابراما •• أولا ، وثانيا ، وثالثا الخ » •

وقد أعطيت هذه الحياة كل ما أملك من مواهب ووقت ، وتفكير ، حتى في المنام كنت أرى نفسي مع آخر اناقشه واجادله •

وماذا كانت النتيجة لهـذا الجو المتخم بالاخذ والرد ، والحوار والجدال مع أضخم العقول ، وأكثرها علما ، وأشدها مراسا على الحجاج والدفاع ؟ •

والجواب واضح ، فان النتيجة تتبع مقدماتها ، وهي فيما نحن فيه الشغف باكتشاف الحق والذب عنه •

الاصول العامة للفقه المقارن

للعلامة السيد محمد تقي الحكيم

الكتاب والكاتب

قال الامام (ع) : « رسولك ترجمان عقلك ، وكتابك أبلغ ما ينطق عنك » فالكتاب اذن صورة صادقة عن وعي كاتبه ، ومدى معرفته ـ ما في ذلك ريب ـ ولكن هل يعبر الكتاب عن مدرسة الكاتب ، تماما كما يعبر عنه بالذات .. فاذا ألف نجفي أو آزهري كتابا استطعنا أن نعرف حقيقة النجف والازهر من كتاب هذا المؤلف كائنا من كان .

ويتضح الجواب من هذا التساؤل : هل يسوغ لعاقل أن يحدد الدين والعلم ، أو الادب والفلسفة ، أو الطب والهندسة أو فن البناء والتصوير او أي معنى من المعاني العامة ، ومفهوم من المفاهيم الكلية ، هل يسوغ له أن يحدد شيئا من هذه من خلال معرفته لرجل يتسم بسمة أهلها وأربابها !؟ ...

هل يسوغ لك أن تقول : كل الاطباء مشعوذون ، لان هذا الدعي غرر بالمريض ، وأودى بحياته ؟ .. وان كل الشعراء لا يحسنون وزن الشعر ، لان هذا المتطفل لا يحسنه ولا يعرف شيئا من « التفاعيل والتفعيلات » .

كلا ، ان الغريب الدخيل على الفن لا يمثل شيئا منه ، ولا من المدرسة التي خرج منها تماما كما دخل ، مع فارق واحد : هو أنه دخلها جاهلا بسيطا لا يضر ولا ينفع ، وخرج منها جاهلا مركبا يضر ، ولا ينفع .

اما الخبير الاصيل الذي أخلص لخبرته ومهنته ، اما من أوتي الكفاءة والموهبة وأوقف قلبه وعقله ووقته لعلم من العلوم ، أو فن من

الفنون فان كتابه ـ ولا ريب ـ يمثل مدرسة المؤلف ، تماما كما يمثل الكاتب بالذات ، بل هو احدى السبل القويمة لمعرفة الفن الذي يتخصص به المؤلف ، وانصرف اليه بكله ، ومن هنا وجد تاريخ العلوم والفنون ، وبلغ في عصرنا شأوا عظيما ، بخاصة في المعاهد والجامعات .

كتب نيرة مشرقة

وعلى هذا الاساس نستطيع القول ، ان كتاب « الذريعة » للآغا بزرك ، و « الغدير » للاميني ، و « فلسفتنا » للسيد الصدر ، و « تاريخ الفقه الجعفري » للسيد هاشم معروف ، وكتاب « فلاسفة الشيعة » للشيخ عبدالله نعمة ، و « الاصول العامة » للسيد محمد تقي الحكيم[1] نستطيع القول ان هذه المؤلفات بمجموعها تمثل النجف ، كما هي ، أو قل : ان كل مؤلف منها يمثل ناحية من عظمة النجف ، وافقا من آفاقها ، ويصور مرحلة نيرة مشرقة من التاريخ العلمي للنجف الاشرف ، واسأل الله سبحانه المزيد ، فان الفراغ ما زال عميقا وشاسعا ..

ثورة في التشريع الاسلامي

نحن الآن ازاء ثورة في التشريع الاسلامي ، ثورة في عرضه وتيسيره ، وثورة في اذاعته ونشره على الدنيا ، عربها وعجمها ، قاصيها ودانيها ، المسلم منها ، وغير المسلم فمن كتاب الفقه على المذاهب الاربعة الى كتب تاريخ التشريع الاسلامي والاحوال الشخصية ومن كتاب مصادر الحق في الاسلام الى كتب التشريع الاسلامي لغير المسلمين ، والعقوبات والجنايات الى أصول الفقه والاسرة في الاسلام ، والمبادىء العامة في التشريع الاسلامي الى كتاب الحلال والحرام الى غير ذلك من الابواب والموضوعات

---

(1) ظهر في هذه الاونة آثار للكبار في النجف ، لها أهميتها ـ نظريا ـ في عالم التشريع ، ولكنها لم تخرج عن القاعدة والاستهلاك المحلي ، لاخراجها القديم ، وأسلوبها الصعب المتعصب ، ولا ادري ان كان العلماء يطبقون الصعب المتعصب على مؤلفاتهم ومهما يكن فكلامنا عن الآثار التي أوجدت للنجف أسواقا في الخارج .

التي استوعبت كتبها واجهات المكاتب ، وشغلت المطابع ليل نهار .

أما المصدر الاول لهذه اليقظة ، وهذا النشاط فهو القاهرة ، وبصورة أخص الجامع الازهر .. وماذا فعلنا نحن ازاء هذا الانتاج الضخم في التشريع ؟ .. لا شيء على علم بأن تلك الكتب على كثرتها وتنوعها قد تجاهلت الشيعة ، وتشريعهم أصولا وفروعا .

وهنا مكان الخطر .. لقد انتشرت هذه الكتب بين المحامين والحقوقيين في كليات الحقوق وأكثر طلابها أو الكثير منهم من شباب الشيعة .. وغير بعيد أن تكون هذه الكتب في يوم ما مجالا لرجال التشريع الحديث ، يرجعون اليها ويخرجون بعض تشريعاتهم عليها بمعزل عن أصول الشيعة وقواعدهم وأحكامهم مع أن في فقه الشيعة وأصولهم من السعة واليسر والاجتهاد الذي يتجاوب مع الحياة ما ليس في فقه أي مذهب من مذاهب السنة اطلاقا .

وأظن ــ وان كان الظن لا يغني عن الحق شيئا ــ أن هناك مؤامرة مدروسة ضد فقه الشيعة ، وما يتصل به ، وان هذه المؤامرة جاءت بوحي من الخارج .. والا بماذا نفسر ترجمة كتاب لا شيء فيه يذكر للشيعة ترجمته الى اللغة الفارسية وتدريسه في جامعة طهران لطلاب الشيعة وشبابهم ؟! لماذا ترجم هذا الكتاب ولم يترجم كتاب « المبادىء العامة للفقه الجعفري » مثلا مع أن اسم الكتابين واحد وموضوعهما واحد ولا فرق سوى أن المترجم للسنة والمهمل للشيعة .

هذا ، وايران شيعية جعفرية اثني عشرية دولة وشعبا ، تماما كصاحب الكتاب الذي لم يترجم ..

لقد فهمنا السر لترجمة كتاب الامام علي ، وكتاب فلاسفة الشيعة وكتاب أهل البيت الى اللغة الفارسية أما ترجمة كتاب في التشريع السني فقط لا غير وتدريسه والعمل على انتشاره في بلد شيعي كايران فلا نفهم

له سرا الا على أساس المؤامرة الاستعمارية الصهيونية البابية .

ومهما يكن فقد تنبه لهذا الخطر الداهم العلامتان : السيد هاشم معروف ، والسيد محمد تقي الحكيم ، فأخرج الاول كتاب « تاريخ الفقه الجعفري » وكتاب « المبادىء العامة للفقه الجعفري » وسد الكتابان فراغا كبيرا ولله الحمد ونحن على موعد مع صاحبهما لانجاز غيرهما ان شاء الله . وألف الثاني كتاب « الاصول العامة للفقه المقارن » الذي نحن بصدده والامل وطيد أن تتوافر الجهود لنقرأ المزيد في هذا الميدان .

ولو وجد الوعي والاخلاص معا لكرسنا جميع القوى لتحقيق هذا الهدف الاسمى ، ولسلك أولي الشأن اليه كل سبيل ، ولكنه - يا للأسف - أبعد ما يكون عن أذهانهم وأفهامهم .. بل أقول بلا تحفظ : ان سكوتهم يومىء الى أنهم لا يشعرون بتخلفنا عن الركب ، ولا بالحاجة الى نشر تراث الآل وعلومهم على الملأ ولا بالتبشير والتعريف بالمذهب وعلمائه .. وأي شيء أدل على ذلك من تجاهلهم أو تجاهل الكثير منهم لتلك الكتب التي أشرنا اليها في الفقرة السابقة ، والتي أسمعت صوت النجف من لا يعرف عنها شيئا ورفعت من شأن الدين والمذهب ، بوجه عام ومن شأنهم أنفسهم بوجه خاص !؟ .

ومن يصدق أن كتاب « الاصول العامة » لولا دار الاندلس ببيروت لم ير النور الا أن يشاء الله ؟ .. مع العلم بأن صاحبه من أساتذة النجف ووضع كتابه من ألفه الى يائه في النجف والله سبحانه المسؤول أن لا يقف بعض الاخوان من تلك الآثار التي أدت رسالة الدين والعلم بجدارة واخلاص أن لا يقف منها موقف المعارض المتطرف ، لمجرد أنها لم تصدر عن قلمه الشريف .

الاصول العامة

قلت : ان كلامي الآن عن الكتاب الاخير « الاصول العامة للفقه

المقارن » بقلم السيد محمد تقي الحكيم • وقد توجد مضامين الكتاب متفرقة في العديد من كتب الاصول ولكن هذا الجمع بين أصول الشيعة والسنة ، والمقارنة بينها على أساس المنطق وهذا العرض من الترتيب والتبويب والايضاح ان هذه لا توجد مجتمعة في كتاب الا كتاب السيد الحكيم ، فانه ــ على وجه العموم ــ يهدم جانبا غير يسير من أسوار الغموض والتعقيد التي أحيطت بكتب الاصول قديمها وحديثها ويجعل هذا العلم أكثر وضوحا وأقرب الى الافهام من ذي قبل •• كما قضى على الحدود والحواجز التي بقيت قرونا تفصل بين أقوال السنة والشيعة من حيث الجمع والتأليف رغم ما بينها من التداخل والاشتراك في كثير من الاصول والمبادىء •

ان كتب الاصول التي بين آيدينا فيها عرض وتسجيل ، وفيها نقد وتحليل ولكن لا مقارنة فيها بين أقوال المذاهب ، كما أن العرض جاف وموحش ، والنقد لا يعرف منهجه الا العليم الخبير •• أما السيد الحكيم فقد ابتدأ أولا بعرض منهجه والطريقة التي اعتمدها في أبحاثه ، وهي الانتقال مباشرة أو بالواسطة مـن الاوليات البديهيـة والمحسوسات الضرورية الى القضايا النظرية فالمؤلف لا يقبل شيئا مهما كان الا اذا رجع الى أصل يقبله الجميع ، أما اذا رجع الى شيء خاص ، كعلم زيد دون عمرو فليس بشيء يعتمد عليه للفصل بين الخطأ والصواب والحق والباطل ، وهذا النهج ــ كما ترى ــ يحمل اشارات فلسفية واضحة •

وقد اعتمده كبار الاصوليين ، ولكنهم لم يكشفوا عنه صراحة بل تركوه الى فهم القارىء الذي افترضوا فيه المعرفة بالمنطق يتصيده مـن الثنايا والزوايا فكان الطالب المسكين ومعه أكثر من أستاذ يرون العبارات والاقوال ولا يرون منهج أصحابها أما السيد فقد طرح منهجه أمام كل طالب وقارىء قبل أن يخط كلمة واحدة ، ليكون الاستاذ والتلميذ على بصيرة من الاسباب والنتائج •

وبعد أن ذكر المنهج شرع في تفسير الالفاظ التي دأب الاصوليون على استخدامها ، وحددها تحديدا علميا دقيقا ، وبين ما تنطوي عليه من عناصر وأجزاء ليكون القارىء على علم من الآراء والافكار التي ترتبط بهذه الالفاظ ارتباطا وثيقا .

ثم عرف الفقه المقارن ، وغير المقارن ، والاصول المقارنة وغير المقارنة وفسر الاحكام وأنواعها وأصنافها .. وقد وقفت عند قوله في الصفحات الاولى وهو يحدد موضوع علم الخلاف .. « والمراد بالموضوع هنا ما يبحث عن عوارضه الذاتية والغريبة .. لان الاختصار على الذاتية وحدها لا يفي بموضوعات المسائل لاي علم من العلوم » .. وقفت هنا ، لان العلوم انما تتمايز بتمايز موضوعاتها والعوارض الغريبة ليس لها موضوع معين ، فكيف واين وبماذا يبحث عنها ؟ .. اللهم أن يقال .. انها غريبة . وكفى .

الكتاب والسنة

ثم انتقل المؤلف الى الكلام عن الكتاب والسنة ، ووفى الاصل الاول حقه واستدل على الاخذ بظاهره ، وتنزيهه عن التحريف برجوع المسلمين اليه وأخذهم الدين عنه أصولا وفروعا في كل مصر وعصر ، بخاصة أهل البيت الاطهار ورد على مـن قال بالتحريف واستدل عليه بقوله تعالى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » رده بلزوم الدور ، اذ مع الشك في تحريف القرآن لا يصح الاستدلال به على عدم تحريفه ، لانه استدلال بالشيء على الشيء نفسه .

ويلاحظ بأن الذين استدلوا بهذه الآية وما اليها انما استدلوا بها على نفي النقصان مع التسالم على أن هذه الآية قطعية الصدور وعليه فلا دور ، والحق ان ما قاله المؤلف لا يتنافى مع ملاحظتنا هذه ، لانه بنى لزوم الدور على فرض الشك بالآية لا على فرض التسالم عليها كما هو فرضنا نحن .

وأما الاصل الثاني وهو السنة فقد بحث السيد أقسامها وطرق اثباتها القطعية وغير القطعية ونسبتها الى الكتاب ، وما يتصل بهذا الباب وأشبعها درسا وتحقيقا بما لا يقبل المزيد وقد تجلت مقدرته في ايراد الحجج الدامغة التي أبطل بها أدلة القائلين بأن سنة الصحابة حجة متبعة ، وفيما أورده من البراهين والشواهد على أن سنة أهل البيت هي سنة الرسول بالذات ، وان الراد عليهم راد على الله وكتابه وعلى النبي وسنته .

ورغم ان هذا البحث ليس من صميم أصول الفقه ، وان مت اليه بسبب ولذا لم يتعرض له الاصوليون في كتبهم ، وتركوه الى كتب العقائد فاني رأيت التعرض له أمرا تستدعيه الضرورة لان المؤلف تعرض لسنة الصحابة ونقدها نقدا علميا مجردا وأبطل الركون اليها فكان لا بد وأن يذكر سنة أهل البيت ويوضح مكان الفرق والتضاد بينهما كي لا يربط متوهم بين الاثنتين ويخلط بين الضدين .

أجل ذكر المؤلف في صفحة ١٢٩ « اشكال ودفع » يتصلان بالسنة النبوية فتمنيت لو أهمل ذكرهما ، بخاصة أن عرض الاشكال وتقريره جاء بأسلوب أسهل وأوضح من عرض الدفع .

الحسن والقبح

ثم ذكر بقية الاصول والقواعد المتفق عليها ، والمختلف فيها بين السنة من جهة ، وبين الشيعة من جهة ، وبين أفراد كل مذهب بعضهم ببعض ، وكلمتنا تضيق عن الاشارة الى الجميع ولا بد وان ضاق المقال ، من ابداء الاعجاب بفصل التحسين والتقبيح العقليين فان من قرأه يخرج بالنتيجة التالية :

ان كل من أنكر ادراك العقل للحسن والقبح فقد أنكر ــ من حيث يريد أو لا يريد ــ الخير والشر في الواقع وانه لا مصدر لهذين ، تماما كما يقول المثاليون والسفسطائيون من أنه لا سماء ولا أرض ولا شيء الا ما

يتصوره المتصور .

القيـــاس

ونبه السيد في فصل القياس الى خطأ الذين نسبوا الى الشيعة نفي القياس عقلا بقول مطلق وأثبت أنهم يعملون به اذا كان الطريق اليه قطعيا[1] ويهملونه اذا كان ظنيا ، لتحريم العمل بالظن بوجه عام ، ولورود النهي الخاص عن الاخذ بالقياسات الظنية .

وكان يخيل الي اني سأقرأ في فصل القياس تنبيها جديرا بعناية المؤلف واهتمامه ولكنه تخطاه لسبب هو أعلم به ، أما التنبيه فهو اني لاحظت وأنا أتتبع فقه المذاهب ومصادره أن أبا حنيفة كان يقدم القياس على نص القرآن الكريم في جملة من فتاويه .. من ذلك .

ان الله سبحانه يقول : « فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم » آية ٤ من النساء وقال أبو حنيفة : بل تعطى اليهم أموالهم ، وان لم يؤنس منهم الرشد (ابن عابدين ج ٥ باب الحجر) وهذه عبارته بالحرف الواحد « واعلم ان الحجر عند أبي حنيفة على الحر البالغ العاقل لا يجوز بسبب السفه »[2] .

هذا مع العلم بأن الامامية والشافعية والمالكية والحنابلة وأبا يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي أبي حنيفة اتفقوا جميعا على الاخذ بظاهر الآيـة .

وأيضا قال تعالى « وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » وقال أبو

---

(١) مع وجود القطع يكون هو الحجة لا القياس وعليه تكون النسبة صحيحة . هذا الى ان القياس من وظيفة المجتهد والمجتهد هو الذي يعمل بظنه الذي قام الدليل عليه من الشرع والشيعة يقولون كل ظن ينشأ من القياس لا دليل عليه .. اذن القياس بوجه العموم عندهم لا يعول عليه ، لانه من الظنون غير المعتبرة .

(٢) المراد بالسفيه هو المبذر الذي يضع أمواله في غير مواضعها العادية ، وهذا قد يكون بالغا عاقلا ، ولكنه غير رشيد .

حنيفة « ان لم يكن للمفلس مال ، وطلب غرماؤه حبسه ، وهو يقول « لا مال لي » حبسه الحاكم (فتح القدير) ٧ باب الحجر » .

ولعل السيد المؤلف ، ترك هذا التنبيه في فصل القياس الى ما ذكره في (صفحة ٣٩٢) من غلو الطوفي في تقديم المصالح المرسلة على النصوص والاجماع .. ومهما يكن فقد كشف المؤلف عن مساوىء القياس كأصل للتشريع وأثبت بالارقام أنه لا يقف أمام النقد والتمحيص واذا أشار علماء الاصول الجعفريون الى القياس اشارة عابرة في كتبهم ، ولم يطيلوا الكلام فيه ، لان بطلانه عندهم من المسلمات فان المؤلف ، قد تبسط وأطال ، ليثبت للمؤمنين به انهم على ضلال .

وهكذا لم يكتف السيد بالاشارة والنظرة السريعة السطحية الى الاستحسان والمصالح المرسلة والذرائع والتصويب وسد باب الاجتهاد بل توغل في استطلاعها ومعرفة حقائقها وأسبابها ومداركها وبين النتائج الوخيمة المترتبة على تطبيقها والاخذ بها وبالتالي صفى بمنطق العلم والدين أصول الفقه ومصادره من كل شائبة تشين الاسلام ، وكل ما هو دخيل على شريعة سيد الانام كالقياس والاستحسان وما اليهما .

جهد وصبر

ولا أدري كم قضى المؤلف في وضع هذا الكتاب ولكني أعلم علم اليقين أنه يستند الى كفاح وصبر طويلين ودراسات واسعة ، ونظرات ثاقبة . واليك واحدة من هذه النظرات .

قال الامام الصادق « اعرضوهما ــ أي الحديثين المتعارضين ــ على أخبار العامة ، فما وافق أخبارهم فذروه ، وما خالف أخبارهم فخذوه » .

وقال السيد الحكيم في تفسير العامة ص ٣٦٩ : « المراد بالعامة هنا أولئك الرعاع وقادتهم من الفقهاء الذين كانوا يسيرون بركاب الحكام ، ويبررون لهم تصرفاتهم بما يضعون من أحاديث حتى انتشر الوضع على

عهدهم انتشارا فظيعا » .

وهكذا يسلم الذكي الحاذق اذا فوجيء بمثل هذا الموقف الحرج والموضوع الشائك ، دون أن يتعسف في التأويل ويجني على الحق ..

خطر الكتاب

وبعد ، فاني أعرف الناس بخطر هذا الكتاب ، وكل كتاب جديد يعكس ما لدى الشيعة من تراث وكنوز في التشريع والفلسفة والعقيدة حتى أسماء الكتب والمؤلفات يعكس هذه وما اليها بأسلوب يقربها من الاذواق والافهام .. ولست أعرف تراثا أعظم وأضخم من التراث الذي تركه لنا أهل البيت عليهم السلام ولا تعاليم تتقارب وتتجاوب مع القلوب والعقول في جميع العصور كتعاليمهم ولكن المشكلة مشكلة الخبراء الفنيين ، والعلماء الاختصاصيين .

ان آثار أئمتنا الاطهار ، وعلمائهم الابرار كقوى الطبيعة لا يبلغها الاحصاء وكما أن استخراج هذه والانتفاع بها يحتاج الى العلم والعمل كذلك كنوز الآل تحتاج الى العلماء العاملين في هذا المضمار ، ومن المؤسف أنهم لا يتجاوزون عدد الاصابع ومنهم صاحب « الاصول العامة » .. ولو أمكن استثمار قوى الطبيعة بكاملها لعم الرخاء العالم بأسره ، ونفس الشيء يقال في آثارهم عليهم أفضل الصلوات لو أمكن فهمها وتفهيمها ونشرها كاملة على حقيقتها لعمت بركاتها ودامت الى يوم يبعثون .

وبالتالي ، فهذه اشارة سريعة الى الكتاب ، وليست تعريفا به وله من جميع جهاته ، كيف ؟ .. وقد بلغ قرابة الـ ٧٠٠ صفحة بالقطع الكبير ، وكلها عرض لاقوال الكبار ، وتراث السالفين ، ودراسات ومقارنات على أساس العلم والمنطق .

أكثر الله سبحانه فينا من أمثال السيد التقي الحكيم الدائبين على العلم والعمل لنشر الحق واعلاء كلمته .

سيرة الحسين (ع)

بقلم الشيخ عبدالله العلايلي

في سنة ١٩٣٩ كان الشيخ عبدالله العلايلي طالبا في الازهر ، وكنت انا في طير حرفا ، وما تذكرت هذه القرية المتواضعة الا شكرتها ، وشكرت ايامها الهادئة الوادعة .. عشر سنوات انصرفت فيها الى القراءة والمطالعة في الوان من الكتب والمطالعات ، لا يصدني عنها شيء ، ولا يزعجني شيء من الداخل ولا من الخارج ، واني مدين لايامها في كل ما انتجت ونشرت ، مدين لتلك القراءات ، مع العلم باني لم اكن اهدف منها يومذاك ان اكون مؤلفا ، او غير مؤلف ، وانما قرأت وطالعت لاني وجدت متعة في القراءة وكفى .

اما مهمتي الدينية في طير حرفا فكانت علي ايسر من اليسير ، واسهل من التهليل والتكبير .. صلاة جماعة ، وعلى الجنازة ، وعقد زواج، وفصل بين المتداعيين ببيان الحق وحكم الشرع . واجوبة عن اسئلة الحلال والحرام والطاهر والنجس ، واقامة مأتم الحسين (ع) في العشر المحرم ، ولا شيء بعد هذه .

امـا العيش فغاية في البساطة ، لا تراكم حاجات ومتطلبات ، ولا تسابق الى المظاهر والعنعنات .. فكل شيء مقنع وكاف ولذيذ ، حتى الخبز الحار مع البصل والملح كنت استلذه اكثر من الفروج المشوي والسمك الفريدي اليوم ، وحتى التين كان اطيب من الخوخ والتفاح ، اما الحصير فكنت اراها ابهى من هذه السجادة الايرانية ، وهذا القاعد القائم على اربع .. واذا قارنت بين حياتي اليوم في بيروت ، وحياتي في تلك القرية من حيث الهدوء وراحة البال لرأيتني هنا في بيروت كالذي يعيش في قصر منيف بين المدافع والقذائف ، وفي طير حرفا كمن يعيش في كوخ آمنا مطمئنا .

ولا ادري لماذا ألفت الناس وأنست بهم ، وانا في القرية، واستوحشت

منهم ، وانا في المدينة ؟ ألاني قربت منهم وقربوا مني ؟ •• « واحب شيء الى الانسان ما منعا » أولأني خبرتهم وعرفتهم •• واخشى ما اخشاه ان استوحش من نفسي ان امتدت بي الحياة •

ولست الآن بصدد الحديث عن ايامي في القرية ، ولا تضايقي من المدينة واهلها فقد تكلمت عن ذلك في آخر كتاب « الاسلام مع الحياة » ، وما هذه الاشارة الا حسرات وآهات لذكريات عزيزة طيبة •

وبعد ، فقد ألف العلايلي يوم كان طالبا في الازهر كتاب « اشعة من حياة الحسين » وكشف فيه بصراحة عن حقيقة الامويين ، وربط الفتن والثورات الاسلامية بيوم السقيفة ، وصرف الخلافة عن اهل البيت ، فثارت عليه ثائرة النواصب ، ورموه بالقبيح ، والدعوة ضد الاسلام ، ونشروا عنه الاباطيل في الصحف •• هذا ، ولم يدافع عنه مدافع ، ويناصره مناصر ، وسكت هو ولم يرد على احد بحرف يومذاك •

فتطوعت لتأييده والذب عنه في جريدة الهاتف العراقية ، ومجلة العرفان عدد شوال ١٣٥٨ هـ ، ونقلته صحيفة سورية ، نسيت اسمها ، وقدمته بكلمة تقدير ، وهذا هو بلا تقليم وتطعيم :

من الامور العسيرة تحليل النفسيات وتصوير الشخصيات تصويرا صادقا واضحا ويكاد يمتنع ويستعصي الا على من نهيأت فيه ادوات ثلاث (١) ان يكون للكاتب قلب كبير حساس وفهم حاد ينفذ به الى اعماق النفس من مناطقها الخفية ويسيطر عليها سيطرة الاسباب حتى يرى كل ما تكنه في زواياها فلا تخفى عليه كبيرة ولا صغيرة (٢) ان يكون صاحب قلم قدير يصور الشيء على اشكاله الواضحة ويحده بحدوده فلا ينطق الا بما يحس به القلب ويحكم به العقل بلسان فصيح لا حشو فيه ولا نقصان (٣) ان يتحرر من شتى النوازع ولا يسيطر عليه التقليد ويميل به التعصب عن جادة الحق والصواب والذي اعهده ان هذه الصفات لم تجتمع لكاتب شرقي الا الى الاستاذ العلايلي فكثير من الشرقيين يجمع الوصفين

الاوليين المقدرة العلمية والبيانية ولكن تفوته الحرية والصراحة ومهما بلغ الكاتب الشرقي من العلم والبلاغة يبقى عبدا للتعصب رقا للتقليد من اي دين كان وفي اي شعب نشأ الا من شذ وهذا هو الداء الوحيد الذي يعانيه كتابنا وهو داء عضال قد تأصل في نفوسهم حتى افقدها الشعور الحي وصدها عن ادراك الاشياء كما هي في طبيعتها شأن عليل الجسم الذي افقدته العلة حاسة الذوق فيرى الحلو مرا ومن الغرابة بمكان ان يقوم العلايلي وحده من بين الكتاب واهل البحث والتحقيق فيلقي عنه تلك القيود ويتحرر من كل النزعات الممقوتة فيفوه بالصدق وينطق بالصواب واذا اسندنا علوم العلايلي وبلاغته الى الاساتذة والمدارس فلا يسعنا ان نسند صراحته وعدم ميله مع الهوى الى حسن التربية واعتدالها فان المدارس الشرقية واساتذتها لهم عناية خاصة في بث روح التعصب يلقونها على تلامذتهم بالفعل قبل القول ليكون ابلغ في النفوس والسبب هو صفاء فطرة العلايلي ورجحان عقله الذي بلغ من الحصانة حدا لا يؤثر عليه شيء ايا كان نوعه وانك لتلمس ذلك في كتابه (سيرة الحسين السبط «ع») الذي جعله حلقات اصدر منها الحلقة الاولى قرأتها فكأني أقرأ عن شخصية لا عهد لي بها ولا علم رغم تتبعي لاكثر السير المؤلفة بهذا الموضوع من عهد المفيد (قده) الى اليوم ورغم ملازمتي لمجالس التعزية واستماعي من كبار الخطباء والمعزين في النجف وعاملة فقد كشف العلايلي عن اسرار ما زالت مجهولة حتى لدى الاعلام من العلماء والاساتذة المختصين بدرس تاريخ الحسين وحياته وقد اثبت امورا انكرها بعض المعاندين ودفع اشياء اثبتها من عرف بالنصب والتعصب واستدل بأدلة لا تقبل الشك والريب فاذا تأملت بما يذكره من الاسباب وكيف يرجع اليها المسببات جزمت ان كل ما يقوله ضروري من الضروريات البديهية وانه لا يسوغ ايراد النقل والبرهان ضد اقواله لانهما يطرحان في قبال البديهة المحسوسة فمن الحقائق التي كشف عنها ــ وكل

كتابه حقائق ـ ان الامويين هم الذين اغتالوا الخليفة الثاني لانه العقبة الوحيدة في سبيل تحقيق مآربهم ولابعاد الشبهة استخدموا فارسيا وهم الذين اعانوا على مصرع الخليفة الثالث وانه كان حزبيا محضا وان ما ابداه من اللين لم يرجع لطبيعته وضعفه بل لحزبيته وانه لا غرابة مما فعل يزيد وان الغرابة ان لا يفعل مثل ما فعل لان نزعته نزعة مسيحية تربى وهو طفل تربية مسيحية وتلمذ على مسيحي واكثر بطانه مسيحيون وعهد بتربية ولده الى مسيحي فهو عدو الاسلام والمسلمين ومتولي امورهم وان امية اداة فساد وفي طبيعتها بعث الحياة الجاهلية وان كل بلبلات وبليات المحيط الاسلامي تعلل بالاصبع الاموي وان وقعة الحرة لم تكن وليدة فكر يزيد بل جالت في فكر معاوية ايضا واذا قرأت ما كتبه عن حياة الحسين (ع) اعتقدت ان الحسين (روحي الهي في طبيعة بشرية ومعنى غيبي في حروف من اشباح الوجود ، وان الحسين جاء به القرآن شاهدا ومثالا على ما هو وفوق ما هو اي ان الحسين هو القرآن الناطق وذاك القرآن الصامت ـ وان النبي صلى الله عليه وآله وسلم افهم الناس بأقواله وافعاله مشيرا الى الحسين انا هنا) ولا بد ان تاخذك الدهشة والاعجاب عندما تقف على تحليله لكلمات النبي في حق ولده الحسين كيف يستخرج من الكلمة الصغيرة عدة معاني قد بلغ كل منها من السمو والرفعة حدا ليس فوقه سمو ولا رفعة ثم ذكر المؤلف السقيفة واثرها واثر الخلفاء وملوك الاسلام من بعدهم وارجع الاحداث التي حصلت في صدر الاسلام الى الروح الجاهلية التي كان يحملها كثير من المسلمين وانها هي السبب الاكبر في جر الويلات على الاسلام وهي التي حالت دون ازكى ثماره وما ذكرناه هو اجمال لما جاء في الكتاب واني ادعو العلماء والمتأدبين ان يقرأوا برهان ما ادعيت وتفصيل ما اجملت فانه جدير بالاهتمام كما ان صاحبه جدير بالشكر والثناء اكثر الله في الامة الاسلامية امثاله واحسن اليه بقدر ما احسن في تأييد الحق وابدع في اظهار الحقيقة •

مع الصادقين*

« يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين »

الصدق هو السبيل الوحيد لهذا المهرجان الخالد ، ولمثله فليعمل العاملون ، مهرجان خالص لوجه الله ، لا رغبة ولا رهبة ، ولكنه انتصار للحق على الباطل ، والعلم على الجهل ، والامانة على الخيانة ، والاخلاص على الرياء ، والتضحية والعمل على الجبن والكسل .

اين العلم والادب ! واين الجاه والنسب ! واين الملك والذهب ! اذا لم يكن الاساس صدقا واخلاصا ، فالعلم بلا صلاح اداة اللصوصية ، والنسب بلا مروءة مدعاة للغرور ، والمال بلا انسانية مفسد للاخلاق ، والجاه بلا اخلاص سبيل البغي والضلال .

ان هذا الحفل الذي يكرم الصدق والجهاد ـ بروح الصدق ـ في شخص المحتفى به الشيخ عارف ما هو الا تمثال التضحية والثبات مزدان بوسام الوطنية والاخلاص ، لقد ابتغى الشيخ عارف الوسيلة الى الخير والصالح العام فأفلح ، جاهد وكابد فكان جهاده وصبره نورا وحكمة ترشد الى الحياة ، الى الحرية والكمال .

سمعت الشيوخ من أئمة العلم والدين في النجف الاشرف يثنون على العرفان وصاحبها ، يقرظون وينتقدون ما فيها في مجالس العلم ، واندية الادب ، فبعث في هذا الاهتمام حافزا للاطلاع عليها ، فكنت ألتهم اعدادها بشغف من الغلاف الى الغلاف .

---

* تليت في يوبيل العرفان الذهبي . ونشرت في العرفان ربيع الاول ١٣٧١ هـ .

وقد عرفت فيها الكثير من العلماء والادباء والشعراء ، وكان قلبي ينفتح لآثارهم ، فالمقالات الادبية والتاريخية كانت تنير منـــي العقل ، والقصائد الوطنية كانت تثير في الحماس والاحساس وما انا الا واحد من مئات ممن ايقظت فيهم العرفان وجدانا وطنيا ، وبسطت لهم آفاقا علمية وادبية، وشجعتهم على الدرس والمثابرة، فاصبحوا بفضلها رجالا معروفين.

« يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسـط »

وان من الشهادة بالعدل والقسط ان نشهد في هذا الحفل بأن لكرام المهاجرين فضلا على العرفان يذكر فيشكر ، بل هم الجزء المتمم لتأدية رسالتها كاملة وافية .

ان للعرفان نورا لن يغيب ، وان للعارف فضلا لن يزول ، نورا يدوم ما دام العلم هاديا ، وفضلا يبقى ما وجد الحق اهلا .

ليس محل التكريم والتعظيم في العرفان بلوغها هذا العمر الطويل ، ولكن محل التكريم والتعظيم ان تمتد بالعرفان هذه الحياة المديدة ، ثم لم تثنها العقبات ، ولم تكدر صفوها الشهوات ، ولم تغرها الاباطيل ، فلم تستجد رضا زعيم ، ولا هوى مستعمر — وما لطاغية عندها من نعمة تجزى — .

اجل ليست المسألة مسألة اعمار وارقام ، ولكنها مسألة اخلاص وتضحية وثبات ونزاهة ، لقد اشرقت العرفان على سن الخمسين ، ولكنها ما زالت قوية فتية ، لا فتور فيها ، ولا قصور يسير بها العارف على مبدئه القويم ، وخلقه الكريم ، وصبره العظيم ، فكلما تقدمت بها السن اضافت فضلا الى فضل ، ونورا الى نور . يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم .

اين الصائمون ؟*

الشباب مع الاهواء ، والشيوخ مع من غلب

لقد دأبنا نحن رجال الدين ، وبخاصة في هذا الشهر المبارك ، شهر رمضان ، على الشكوى من تهاون شباب هـذا العصر بالدين وتعاليمه ، وانصرافهم الى الملذات والشهوات ، ونددنا بالذين يعصون الله ، ويخالفون عن أمره ، وأطلنا الكلام على المنابر وفي المجالس عـن الاسلام وفضائله ، وضربنا الامثال من المسلمين الاول في الورع والقداسة، والفداء والتضحية، وتجاوز البعض حد الكتابة والخطابة ، وحاول ان يصلح الشباب بالرجوع الى الدين عن طريق المنظمات والجمعيات الدينية ، ولكن لـم يتغير شيء ، وبقي ما كان على ما هو ، بل أسوأ مما كان ، فما هو السبب يا ترى ؟

ربما يقال : ان السر يكمن في رجال الدين بالذات ، لان دعوتهم لم تكن خالصة لوجه الله سبحانه ، وانما يتكلمون ويخطبون حبـا بالظهور وابرازا للشخصية ، ويطلبون الجاه من كل سبيل الا من سبيل الله والحق .

ويسيرون دائما مع الغالب محقا كان او مبطلا ولا ادل على ذلك مـن فتوى الشيخ عبد العزيز الجايط مفتي تونس نزولا على رغبة ابـي رقيبة « بالغاء صيام شهر رمضان اذا تعارض مع تطور البلاد وعدم صيام الشبان الذين يجب عليهم ان يغذوا انفسهم للمحافظة على صحتهم » ولهذا الشيخ الجايط تلاميذ في كل بلد معروفون بأسمائهم وسيمائهم .

اذن فشيوخ الحاضر غير شيوخ الماضي تماما كما ان شباب الحاضر غير شباب الماضي .

---

* نشر في العرفان رمضان ١٣٧٩ هـ .

والجواب : نحن لا ننكر اننا دون من مضى من السلف الصالح ، ومثل من بقي في آخر الزمان ، ولكننا نتساءل بدورنا : هل هذا الشر الفادح الذي عم الجميع جاء من الافراد او من الاوضاع ؟! أليست الاوضاع الفاسدة هي التي جرأت كل واحد منا ، وفسحت له المجال على ان يطلب ويتطاول الى ما ليس له ؟! ولست اعني بالاوضاع الشرائع والانظمة ، فان لدينا منها خير ما انتجته العقول ، وانما اردت القائمين على تطبيقها الذين ابعدوا الرعية وشريعتها وفسحوا المجال للشفعاء والوسطاء •

ولندع الاوضاع والافراد ، ومن كان ويكون من الشيوخ والامجاد ونتحاكم لدى عقل الشاب العصري المثقف ، ونطلب منه الجواب على هذه الاسئلة :

بماذا تعبر عن مروءتك ، وتثبت قوة ارادتك اذا استسلمت الى الاهواء والشهوات ؟ وكيف تكون انسانا ينتصر على ذاته اذا لم تصبر بضع ساعات عن طعامك وشرابك؟ وهل معرفتك بقوانين الجاذبية وجغرافية الكرة الارضية تغنيك عن الاخلاق والدين والسلوك المستقيم ؟ وهل النعيم المادي هو كل شيء في الحياة ؟ وهل الحضارة هي اللاتدين واللامبالاة والفوضى والهرتقة ؟ واذا كان على هذا فكيف تتحمس للحق وتحلف بشرفك ؟!

اطرح هذه الاسئلة على نفسك ، واسترسل مع التأملات ، وأجب بما شئت فلا بد ان تنتهي الى ان اي انسان لم يتحكم في نفسه فهو اما مجنون، واما فوضوي ، واذا لم تنته الى هذه النتيجة فأنت واحد من هذين لا محالة •

واذا قلت : اني اعرف افرادا بلغوا الذروة من الرقي والتمدن ، ومع ذلك لا يدينون بدين •

واجيب بأن كل قلب يستغني عن الله فهو في الحقيقة خاو لا خير فيه ولا حياة ، هو اشبه بغرفة من كرتون مزخرفة بالصور والالوان ظاهرها

الرحمة وباطنها لا شيء ، ولقـد شعر كثير من المفكرين بهذا العصر بـأن العقيدة ضرورية للحياة ، كأشياء الطبيعة ، وان القلب لا يجـد الراحـة والاطمئنان الا بالركون الى قوة عليا ، أدركوا ان الانسان لم يخلق للارض فقط ، بل لغاية اجل واسمى •

ان العلم يملأ الرؤوس ، اما القلوب فلا يملأها الا الدين ، والكامل من جمع بين الامرين وانك لتستطيع ـ اذا كنت رجلا ـ ان تصبح عالما او فنانا او بطلا رياضيا ، وفي نفس الوقت تؤمن بالله وبدين الآباء والاجداد ، تماما كما تستطيع ان تشتري سيارة موديل سنة ١٩٦٠ ، وتسير بهـا في الطرق المقررة للسير ، وتوقفها في الموقف المعين للسيارات •

هذا ، الـى ان علماء النفس اثبتوا ان للصلاة فوائد جمـة ، منهـا الاحتفاظ بالوازع الخلقي والزواجر الادبيـة ، والشعور برضى الخالق ، والتسامي الى حب الناس كافة ، والتطلع الى النعيم الدائم ، وقـد رأينا اناسـا يعتقدون بالسخافات والخرافات لا لشيء الا ليمـلأوا الفراغ في قلوبهم ، فأولى لك ثم أولى ان تملأ قلبك بنور الحق والانسانية • ورأينا آخرين يؤمنون بالله اقوى الايمان ، ولا يذعنون لرجال الدين والسلطات الروحية فكن واحدا من هؤلاء اذا أسأت الظن بمن يعظ ولا يتعظ ، فليس المهم ان يكون بينك وبين الله وسيط ، وانما المهم ان تسير على طريقه بقلب نقي مخلص •

وبالتالي ، اكرر القول مع الشاعر الانكليزي فانسترت : « ان فقدان الثقة بمـا فوق الطبيعة على صلة بفقدان الثقة بأنفسنا » • وماذا يبقـى للانسان اذا خسر نفسه ؟! وهـل ينتفع الميت بما سجل على اسمه في دائرة العقارات ؟!

باع دينه للشيطان

قرأت فيما قرأت ان الولايات المتحدة قائـدة الاستعمار الجديد ، والصهيونية العالمية قد استأجرتا بعض المعممين ليفسروا الديـن تفسيرا مواليا لاسرائيل ، ويحددوه تحديدا يخدم مصالحها واهدافها ، وبقيت في شك مما قرأت ، حتى شاع وذاع عن شيخ معمم انه ينشط في بث الدعاية لاسرائيل بين البسطاء السذج ، ويبرر بكل وسيلة يسلكها عدوان اسرائيل على البلاد العربيـة ، واغتصابها بيت المقدس ، وهجماتها المتكررة علـى الاردن ، وقتلها الالوف ، وتشريدها مليونا ونصف المليون من ديارهم .

ولست اشك ان هذا المعمم قد بـاع دينه وضميره للشيطان بعد ان قبض الثمن .. والا كيف وبماذا نفسر تبريره للعدوان المسلح علـى عيال الله وعباده !.. ان اسرائيل ليست مجرد دولة كغيرها من الدول ، ولا هي فئة انسانية تريد العيش بعدل وسلام ، وانما هي عصابة عسكرية عنصرية صهيونية اوجدها الاستعمار لخدمة مصالحه وحمايتها في العالم كله ، لا في البلاد العربية ، ولا في الشرق الاوسط فقط .. انها السمـار المخلص لكل عدوان في كل مكان ، بخاصة الاستعمار الامريكي .

ومن اجل هـذا وحده تستمر في عملية الابـادة والتهجير للسكان العرب ، ولا تلتزم بعهد وميثاق ولا بشيء يمت الـى الانسانية والعدالة بسبب ، فمعركتنا ــ اذن ــ معها ليست معركة اقليمية ، بل معركة انسانية بحت .. فعلى كل شريف شرقيا كان او غربيا ان يحارب وجود اسرائيل ، ويجاهده بلسانه وقلمه ودمه ان استطاع .

وبعد ، فان هذا المعمم يطلب ــ من حيث يريد او لا يريد ــ ان يركع العرب للعدوان عليهـم ، ويسجدوا للصهيونية والاستعمار ، وان يبارك

المسلمون الطعن في دينهم ، والتحريف في قرآنهم ، فقد حرفت اسرائيل القرآن الكريم ، وطبعت مئات الالوف من النسخ بالمانيا الغربية على ورق فاخر ، وباعتها بثمن التراب على مسلمين افريقيا وآسيا الذين يجهلون اللغة العربية واسرارها .

وعلى سبيل المثال دون الحصر نذكر بعض الآيات التي حرفتها اسرائيل ، فقد جاء في كتاب الله الآية ٨٥ من آل عمران هكذا : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » فاصبحت « ومن يبتغ غير الاسلام دينا يقبل منه » . وجاءت الآية ٤٢ من الانفال : « ليقضي الله امرا كان مفعولا » بالضاد فاصبحت : « ليقصي الله امرا كان مفعولا » بالصاد .. وقد اهتز الازهر لهذا النبأ ، ووقف موقفا حازما ومشرفا ، فارسل الوفود الى الاقطار الاسيوية والافريقية ، وجمع النسخ المحرفة واحرقها ، ثم طبع المجلس الاسلامي الاعلى في القاهرة اكثر من اربعة ملايين نسخة من المصحف ، ووزعها بالمجان .. اما النجف وكربلاء وقم وخراسان فلم تبدر من احداها اية بادرة ، حتى كأن لم يكن شيء . او كأن الامر لا يعنيها .. وصح فيها قول من قال :

فان كنت لا تدري فتلك مصيبة   وان كنت تدري فالمصيبة اعظم

تجنبوا موارد التهم*

لا نعلم عصرا مر على رجال الدين اشد حرجا وعسرا من عصرنا هذا الذي نعيش فيه . ولم يأت هذا العسر والحرج من شخص او فئة وما هو من نوع التقتيل والتشريد، او التضيق في العيش، او حرية القول والتعبير، والمنع عن الدعوة والتبشير . انه اشد خطرا ، واعظم ضررا . انه انتشار الالحاد في شتى صوره واسراره ، والفساد في جميع الوانه واوزاره ، والاستبداد على اختلاف اشكاله واخطاره .

فهذا كتاب صدر سنة ٥٧ يحمل اسم «الله والانسان» وتوقيع مصطفى محمود المحرر بمجلة روز اليوسف يقول بالحرف الواحد في صفحة ١١١ :

الله في العقل الحديث .. معناه الطاقة التي في داخلنا ..

والحركة التي كشفها العلم في الذرة والافلاك .. هو الحيوية الخالقة في كل شيء » .

وكتاب آخر اضخم والام صدر في سنة ٥٨ لمحمود الشرقاوي اسماه « الدين والضمير » يقول بالحرف الواحد ايضا في صفحة ٩٨ : ان الله يدخل جنته ويبسط رحمته على من يعلم انه صادق طيب رشيد ، ولو لم يؤد صلاة واحدة ، ولم يعمل حسنة واحدة . ونشرت صحيفة استفتاء بين طلاب الجامعة على وجود الله سبحانه ، فكانت النتيجة ان الاغلبية ادلوا باصواتهم ضد الخالق جل وعلا عما يقول الملحدون . وثانية نشرت ان نفرا من الشباب اجتمعوا وتساءلوا : هل وجود الآخرة حق او باطل ؟! وبعد البحث تم التصويت ، فجاءت النتيجة انها وهم وخيال ، وثالثة نشرت ان جماعة صوتوا على قضية اللواط ثم قرروا اباحته ، ورابعة ناقشت موضوع

---

* نشرت في جريدة التلغراف البيروتية ٢١ - ٤ - ٥٩ .

التقتيل في الشارع العام ، وانتهت الى جوازه واستحسانه ! .

ان هذه الامثلة غيض من فيض وواحد من الوف نقدمها للتدليل على ان واجبنا نحن رجال الدين قد تضاعف عن ذي قبل الف مرة ومرة وان علينا ان نجاهد ونعمل ليل نهار للوقوف ضد هذا التيار الملحد الجارف . وان نتجرد ونخلص لله مدافعين بكل وسيلة عن ايماننا وعقيدتنا .

ان عددنا ، ولله الحمد ، يفوق الحصر ، وان ثقتنا بمعارفنا ارسخ من الجبال ، وان حبنا لله يتعالى عن حب الجاه والمال ، وان احاديثنا عن المثل العليا تمتد الى ما لا نهاية . وقد قام البعض بعمل يشكر عليه ، فخطب وكتب ونشر ، وادى واجبه حسبما يعتقد ويستطيع ، وسكت البعض الآخر ، لعذر هو اعرف به واعلم ، وقسم ثالث لم يقف موقف الاول يكافح ويدافع ، ولم يسكت سكوت الثاني ، حتى كأن لم يكن شيء ، بل سكت عن امثال مصطفى محمود ، والشرقاوي وصحف الالحاد والزندقة ، حيث الحلال بين والحرام بين ولا شبهات واتهامات . وتكلم في موارد الشبهة والاتهام ، حتى ظن الناس به الظنون . وانه اداة في يد المستغلين والساسة الذين لا يدينون بدين يستعينون به على خصومهم واعدائهم ، واشباع رغباتهم ونزعاتهم . ومهما حسنت النية ، وتنزه القصد فان الابتعاد عن مورد التهمة اسلم واحزم ، كي لا يتساءل سائل .

لماذا سكت هؤلاء ولم يحركوا ساكنا ضد موجات الالحاد والطغيان والفساد ، حيث لا صراع ولا نزاع بين فئتين سياسيتين ، ولا استغلال لمستغل ، ولا مجال للتفسير والتأويل ، ولا للقال والقيل ، وتكلموا حيث يستغلهم ارباب الاهواء والشهوات ؟! لماذا لا يغارون ويحرصون على الدين الا حين يغار ويحرص عليه الاستعمار وعملاء الاستعمار ؟! اصحيح ما قاله مصطفى محمود : ان اصحاب اللحى قد اصبحوا في خدمة الاستعمار والاقطاع ، وانهما قد اكتشفا فينا نقطة الضعف ، وهو الدين فتسللا منه

الى جيوبنا وقلوبنا ؟! • ان الله الذي يتكلم عنه الساسة هو الشيطان بعينه هو استغلالهم وسيطرتهم •

وبالتالي ، فان الدين حقيقة خالصة لا تشوبها شائبة ، فاذا ما حل في قلب انسان كرس حياته من اجل هـذه الحقيقة وحدها ، وضحى بالنفس والنفيس في سبيلها • والله سبحانه المسئول والمأمول ان يعصمنا من الزلل ، ويجعل اقوالنا وافعالنا للذي لا اله سواه •

تلخيص البيان في مجازات القران

نقـرأ في كتب التاريخ والتراجم اسماء مؤلفات في مواضيع شتـى لمشاهير العلماء والادباء والمؤرخين القدامى • ومن المعروف ان قسما كبيرا من هذه المؤلفات قد ابادتها الحوادث ، وحالت بيننا وبين اروع ما انتجه الفكر العربي في عصر التمدن الاسلامي •

وكان يظن ان من جملة ما فقد كتاب « تلخيص البيان في مجازات القرآن » للشاعر العربي الشريف الرضي ، ولكـن تبين اخـيرا ان احدى المكاتب القديسة في ايـران تحتفظ بنـسخة منه يرجع تاريخها الـى القرن الخامس الهجري ، ومن حسن الصدف ان تقع هذه النسخة في يد السيد الجليل الاستاذ محمد المشكوة ، فعمل على نشر الكتاب ، وطبع الف نسخة بالصورة الفوتوغرافية ، فجاءت النسخ كما هـي في المخطوطة ، واشترط الناشر ان توزع النسخ مجانا على من يستحقها ، ورجا من تصل الى يده نسخة منـه ، واراد بيعها ان يدفع ثمنها لمـن لا يكون كذابا ، ولا تاركا للصلاة •

ان قارىء هذا الكتاب ليزداد اعتقادا بمرونة اللغة العربية ومطاوعتها في تقلب الاساليب وتعدد انواعها ، وانها تكافىء حياة اهلها ، مهما كثرت اغراض هذه الحياة • ان الفاظ كل لغة محدودة ، اما المعاني فهي كالحياة تكاد تتناهى ، ولكن اللغة الحية تسير مع التطور ، وتشايع كـل جديد ، وكتاب مجازات القرآن يقيم الدليل على ان لغة القرآن نامية فيها من ثروة الاوضاع ، وبدائع الاسرار • وننقل الى القراء طرفا يسيرا مـن الكتاب ، ليعرفهم عن نفسه بنفسه •

قال الشريف في تفسير الآية ١٩/الجن « وانه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » : اللبد هنا كناية عن الجماعات المتكاثرة التي تظاهرت على النبي (ص) ، واجتمعوا عليه متألبين فكانوا عليه كلبد الشعر ، وهي طرائقه وقطعه التي يركب بعضها بعضا ، واحدتها لبدة ، ومنه قيل لبدة الاسد وهي الشعر المتراكم على مناكبه ، وذلك ابلغ ما شهدت به الجسوع المتعاضدة ، والاحزاب المتألفة .

وقال في تفسير الآية ٤٣/الرعد « او لم ير انا نأتي الارض ننقصها من اطرافها » : المراد بنقص الارض موت كرامها ، وتكون الاطراف هنا جمع طرف بكسر الطاء لا جمع طرف بالفتح ، والطرف هو الشيء الكريم ، ومنه سمي الفرس طرفا اذا كان كريما .

وقال في تفسير الآية ٤٨/سبأ « قل جاء الحق ، فما يبدي الباطل ، وما يعيد » : الابداء والاعادة يكونان في الفعل وفي القول ، اما في الفعل فقوله سبحانه وهو الذي يبدأ الخلق ، ثم يعيده ، واما في القول فقولهم سكت فلان فلم يبد ولم يعد ، والابداء الحال الاولى ، والاعادة الحال الاخرى ، وهاتان الصفتان لا يوصف بهما الباطل الاعلى طريق الاتساع والمجاز ، والمراد ان الحق قوي وظهر ، والباطل ضعف واستتر ، ولم يبق له بقية يقوى بها .

وقال عند تفسير الآية ٧٦/الكهف « فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض » : ان الارادة على حقيقتها لا تصلح على الجماد ، والمعنى يكاد ان ينقض ، لانه لما ظهرت فيه امارات الانقضاض من ميل بعد انتصاب ، واضطراب بعد ثبات وحسن ان يطلق عليه ارادة الوقوع على طريقة الاتساع ، ويأتي في كلامهم كاد بمعنى اراد ، واراد بمعنى كاد ، وجاء في القرآن العظيم « كذلك كدنا ليوسف » اي اردنا ليوسف ، وقوله سبحانه « ان الساعة آتية اكاد اخفيها » معناه على احد الاقوال اريد اخفيها .

وقال عند تفسير الآية ١٠٧ , الكهف « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس » : معنى فرقناه بيناه للناس بنصوع مصباحه ، وشدوخ اوضاحه حتى صار كمفرق الرأس في وضوح مخطه او كفرق الصبح في بيان منبلجه.

وقال عند تفسير الآية ٤٤ , يوسف « قالوا اضغاث احلام » : هذه ابلغ استعارة ، واحسن عبارة ، لان احد الاضغاث ضغث ، وهو الخليط من الحشيش المضحوم بعضه الى بعض ، فشبه سبحانه اختلاط الاحلام باختلاط الحشيش المجموع من اصناف كثيرة .

وقال عند تفسير الآية ٦ , المزمل « ان ناشئة الليل هي اشد وطأ » : المراد بناشئة الليل ما ينشأ فعله اي يبتدىء به من عمل الليل . ومعنى اشد وطأ في قول بعضهم اي اشد مواطأة . وهو مصدر يقال واطأه مواطأة ووطاء اي يواطىء فيها السمع القلب ، واللسان العمل لقلة الشواغل العارضة واللوافت الصارفة ، ولان البال فيه اجمع ، والقلب افرغ .

نكتفي بهذا القليل، وفيه الدلالة الكافية الوافية على ان في لغة العرب اسرار جمة كاسرار الطبيعة لا يحصيها العد . ولو قيض الله لها اذهانا ثاقبة . وقرائح نافذة كما هيأ للطبيعة عقولا نيرة لتغير فهم اللغة العربية كما تغير فهم الكون ، لو اتاح لهذه اللغة من يكشف عن كنوزها ودقائقها لظهر للاجيال ان اللغة العربية من اغنى اللغات واغزرها مادة ، وانها تضيق عن معنى الحضارة واشياءها ، وان بلغت ارقى احوالها واعلى درجاتها .

وما كان الله ليخلي الارض من أئمة في اللغة يرشدون الناس الى ما اودع فيها من فوائد واسرار، كما لم يخلها من علماء الطبيعة ، وأئمة الحق. وقد من الله في عصرنا هذا على لغة العرب بالعلامة العلايلي ، حيث اثبت في معجمه القيم ان اللغة العربية هي لغة العلم بشتى فروعه ومراحله ، كما انها لغة الادب والتشريع .

رجل الدين ومصدر الاحكام الشرعية*

يمكن التعبير عن رجل الدين ووظيفته بأنه « مأمور تبليغ » مجتهدا كان او مقلدا ، فالمجتهد ينقل عن الكتاب والسنة ، والمقلد ينقل عمن يقلده.

وليس لرجل الدين ايــة سلطة تشريعية مهما بلغت مقدرته العقلية ، ومنزلته العلمية والدينية ، بل ليس لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله مجتمعين ، ولا للتابعين وعلماء المسلمين كافــة ان يضعوا احكاما وقوانين دينية من عند انفسهم ، بــل ان تعاليم الرسول ما هي الا وحي يوحى ، وتبليغ عن الله سبحانه ، وليس للرسول فيها سوى شرف الرسالة الالهية ، وفضل الامانة في تبليغها ، وعظمة الجهاد في سبيل بثها واحيائها « ما على الرسول الا البلاغ ».

اذن على رجل الدين ان يبني احكامه واقيسته وتحقيقاته في كل امر من امور الشرع على اساس الكتاب والسنة ، فان تجاوزهما الى اجتهاد لا يستند ابتداء ولا ينتهي بوسيلة مشروعة الى احد هذين الاصلين فقد تجاوز حده ، واتخذ لنفسه سلطة الاستقلال في التشريع التي لـم يخلوها الدين للانبياء والاوصياء ، وهذه بديهة ليست محلا للنظر والبحث في اي مذهب من المذاهب الاسلامية ، ومرجعها الى قول الله تعالى : « ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ». « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون ». « يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا » فلم يأمر الله سبحانه ــ عنــد

* نشرت في مجلة رسالة الاسلام لدار التقريب بين المذاهب الاسلامية.

التنازع والالتباس ــ بالرجوع الى المحسنات والتعليلات التي لا تمت الى الكتاب والسنة بصلة قريبة او بعيدة ، وقد اتفقت كلمة المذاهب على ان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

اما الشيء الذي لا نص عليه بالذات فيستخرج حكمه من عمومات الكتاب والسنة « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » فقول الله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » يدل بعمومه على حلية كل قديم وجديد لم يقم الدليل على حرمته ، وأظهر منه في الدلالة حديث : (رفع عن امتي ما لا يعلمون) كما دل قوله سبحانه : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وحديث « لا ضرر ولا ضرار » على ان الاحكام الثابتة لعناوينها لا تشمل مورد الحرج والضرر ، فوجوب جلد الزاني الثابت بآية « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » لا يتجه على من يؤدي جلده الى هلاكه ، وصوم شهر رمضان لا يطلب من المريض .

ان الآيات والاحاديث الدالة على احكام عامة لا يحصيها العد والبيان ، ومعها لا نحتاج الى تصريح خاص في حادثة تعرض لنا من جديد ، بل نثبت بها احكاما لموضوعات لم يرد فيها نص بالخصوص، وننفي احكاما عن بعض افراد المفاهيم التي ثبت حكمها بالدليل القطعي ، ننفي الحكم الثابت في مرحلة التشريع والانشاء لمصلحة أهم واقوى وغاية انفع واسمى ، وهذا الميدان الفسيح يغني عن كل تعليل لا شاهد عليه من التنزيل .

ولو تتبعنا اقوال الفقهاء ولاحظنا الادلة التي يعتمدونها لاستخراج الحكم ، لرأينا كثيرا منهم يخرج احيانا عن هذه الجادة القويمة من حيث يقصد السير عليها والتعبد بسلوكها ، فمنهم من شدد في اتباعها ، وبالغ في التضييق الى حد استلزم اهمال الدليل ومخالفته مع قيامه ووضوحه .

نقل عن مؤمن انه دعي الى حضور ختان ، فلم يجب ، وقال : لم يكن يدعى له على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وتجد هذا النوع من التشديد عند المتقدمين ـ في الغالب ـ ومنهم من افرط واندفع مع خياله يعلل ويحلل ، ويبني المقدمات ، ويستخرج نتائج يزعم انها شرعية وهي بعيدة عن نصوص الشرع وروحه بعد السماء عن الارض ، ويكثر هذا النوع في الكتب المؤلفة في العصور الاخيرة للشيعة والسنة .

فالقدامى يكادون يقفون عند النص الخاص ، حتى كأن لم يكن في الكتاب والسنة عمومات وقواعد كلية ، ومن المتأخرين من يتجاوز حد المطلقات والعمومات ، ويطلق العنان لخياله وفلسفته .

والطريقة المثلى ان يخرج اولئك من افقهم الضيق المحدود ، وينظروا نظرة ابعد واكمل ، وان يقف هؤلاء عند المصدر الوحيد للدين ، عند القرآن واحاديث الرسول ، فان الوقوف عند هذين الاصلين يركز الفقه على اسس علمية صحيحة ثابتة ، ويقضي على الخلاف والارتباك السائدين بين فقهاء المسلمين وأئمة المذاهب .

لقد علق بالدين من جراء العادات والتقاليد والحضارات المختلفة المتباينة اشياء حسبها كثير من الناس جزءا منه وركنا من اركانه ، وكانت السبب الاكبر في انقسام المسلمين ، وتعدد مذاهبهم ، وتناحرهم ، وما هي من الدين في كثير او قليل .

لقد رأينا رجالا ينعتهم الناس بلقب الفلاسفة والعلماء والادباء ، يعللون ويفسرون اعمالهم بمنطق العلم والعقل ، مع ان الكثير منهم يستمد تفكيره من نفسه وظروفه، فمن الجائز ـ والحالة هذه ـ ان يستنبط الفقيه احكاما بهذا الدافع ، وهو يحسب ان رائده منطق العلم والدين .

ان الاسلام قد حذر من الظالم لنفسه ولغيره ، ومن كثرت اوهامه ولم يثبت على رأي ، فألغى شك كثير الشك في الصلاة والطهارة . ولم يعول على شهادته اذا شهد بنجاسة شيء في يده او يد غيره .

ان الغرض من هذه الاشارة ان يتنبه المصلحون من رجالات الاسلام الى تنقية الدين من الشوائب وتحريف المبطلين ، وان يقيسوا الاحكام الشرعية بقياس الكتاب والسنة فقط ، لا بما جاء في كتاب قديم ، او بما قاله عالم كبير ، ولا يؤيدوا احكام الشرع الا بقول كفء عرف بالعلم والاعتدال في الذوق ، والسلامة في التفكير ، ونبذ العصبيات ، ولم يتغلب على عقله ودينه شيء من السياسة والوراثة •

بهذه الوسيلة ، وهي الرجوع الى دستور الاسلام الخالد نستطيع ان نقرب بين المذاهب الاسلامية في اصولها وفروعها ، واذا كان من خلاف فينحصر في مفاد بعض الآيات ودلالتها ، وفي ثقة الراوي ، وضبطه •

لقد رأينا الشيعة يعولون على نقل من خالف مذهبهم اذا كان امينا صادقا ، كما رأينا السنة يعتمدون على رواة الشيعة الثقات في كثير من الموارد •

ومتى كانت اصول الاستنباط ، ومؤهلات الاجتهاد ، وشرائط النقل معلومة متفقا عليها لدى الجميع، قل الخلاف والتنازع ، وحصل القرب والوئام في اكثر المسائل التي اوجبت التفرقة ، وابعدت شقة الخلاف بين المسلمين ، ولم يبق بين المذاهب سوى فوارق عادية، وامور جزئية ، كتفسير لفظ ، او تقييد مطلق ، او تخصيص عام ، او نسخ آية ، او النظر في مدى ثقة راو ، او نحو ذلك ، ومثل هذا لا يؤسس مذاهب مستقلة ، ولا يكون طوائف عدة •

القياس عند ابن حزم والشيعة الامامية

اتفقت المذاهب الاسلامية علـى ان واجب الفقيه اذا اراد ان يعرف حكم واقعة مـن الوقائع ان يبحث عنـه اولا وقبل كـل شيء في الكتاب والسنة ، واذ يتفق الفقهاء على هذا الاصل ويرونه ضرورة دينية لا تقبل الاجتهاد والتقليد يختلفون فيما اذا تحرى الفقيه ، وافرغ الجهد والوسع في البحث عن الحكم الشرعي ، ولم يجد في الكتاب والسنة نصا خاصا ولا عاما ، يختلفون في وظيفته ، والحال هذه ، في نظر الشرع ؟ اي ان الشرع اذا لم ينص على الحكم المطلوب معرفته فهل نص على مـا يجب ان يفعله المجتهد[1] المتحير ؟ هل امر الكتاب والسنة في مثل هـذه الحال بالرجوع الى اصل عام يستخرج المجتهد منه الحكم الشرعي ؟

وقد اتفقوا كلمة واحدة على ان الشرع قد نص على وظيفة المجتهد ، وامره بسلوك طريق خاص لا يجوز ان يتعداه بحال ، ولكنهم اختلفوا في تعيين هذا الطريق : هل هو القياس ، او الاباحة ، والبناء على عدم المسئولية على الفعل والترك ؟

قال الامامية وابن حزم : اذا فحص الفقيه عن الحكم ، ويئس مـن العثور على النص في الكتاب والسنة ينتقل رأسا الى الاباحة ، لقوله (ص) : رفع عن امتي ما لا يعلمون ، ويكون عدم النص على حكم الشيء بمنزلة النص على الاباحة ، وجواز الفعل والترك . ان معنى الاجتهاد هـو طلب حكم الله من الكتاب والسنة ، فاذا لم نجد النص فيهما على الحكم يكون

---

(١) يسمى العالم مجتهدا بلحاظ كونه يستنبط الحكم الشرعي من مصدره ، ويسمى فقيها بلحاظ معرفته بالحكم ، ومن أجل ذلك يسمي أهل جبل عامل الشيوخ الذين يحفظون الفروع ، ولا يعرفون شيئا من أدلتها يسمونهم الفقهاء .

ساقطا عنا ، ونحن غير مسئولين عنه ، ولا يجوز الاعتماد لا على القياس والتعليل ، ولا على الاستحسان والتقليد .

وقال آخرون : بل يعتمد على القياس ، ولا يرجع الى اصل الاباحة الا اذا تعذر الاخذ بالقياس ، لان اصل الاباحة مورده عدم البيان، والقياس بيان من الشرع ، وبتعبير ثاني ان المراد من قول الرسول (ص) : رفع ما لا يعلمون ان المكلف غير مسئول عن الفعل او الترك مع الجهل وعدم وجود الدليل ، والقياس علم ودليل شرعي .

واستدل الامامية وابن حزم على عدم الاخذ بالقياس بادلة :

١ — ان القياس لو كان دليلا شرعيا ، واصلا تستخرج منه الاحكام لوجب ان يبين الكتاب والسنة معنى القياس ، وما نقيسه ونقيس عليه ، حيث يكون القياس ، والحال هذه ، من الاهمية بمكان ، ولم يدع احد مثل هذه الدعوى ، ولم ينقل ناقل ان النبي (ص) ، قال : الاشياء المتشابهة يجب ان تتشابه احكامها ، او قال : هذا حكمه كذا ، وقيسوا عليه ما سواه[1] ولو وجد شيء من هذا لما احتاج اصحاب القياس الى الاستدلال عليه بقوله تعالى : « فاعتبروا يا اولي الالباب » وبقوله سبحانه : « قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي انشأها اول مرة » .

ورد ابن حزم هذا الاستدلال بأن قوله تعالى « اعتبروا » جاء بعد قوله « يخربون بيوتهم » فلو كان معنى اعتبروا قيسوا لكان امر الناس بأن نخرب بيوتنا كما اخربوا بيوتهم ، اما قوله « قل من يحي العظام » فدليل على ابطال القياس ، لان الانشاء الاول للاختبار ، والانشاء الثاني للجزاء والخلود ، فالله سوى بين هذا وذاك في القدرة ، وفرق بين احكامهما .

ثم قال ابن حزم في كتاب «ملخص ابطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل » ص ٣٥ طبعة ١٩٦٠ : « امـا قول اصحاب القياس :

---

(١) نقل محمد حسن القمي في الجزء الثاني من القوانين عن البيضاوي ان النبي قال : تعمل هذه الامة برهة بالكتاب وبرهة بالسنة ، وبرهة بالقياس ، واذا فعلوا ذلك فقد ضلوا .

اجمعت الصحابة على ولاية ابي بكر قياسا على تقديم النبي (ص) ، اياه للصلاة فكذب لاجماع الامة على ان ليس كل من صلح للامامة في الصلاة صلح للامامة في الخلافة ، فقد اتفقوا على جواز امامة التركي وغيره . وقال طوائف من الصحابة والتابعين والفقهاء بامامة من لم يبلغ الحلم في الفريضة راتبا للرجال ، وبامامة المرأة للنساء وهؤلاء لا تجوز خلافتهم » .

٢ ــ « ان الامور والاحكام العرفية والعادية يصلح قياس بعضها على بعض ، لان اسبابها بيد العرف ، اما الاحكام الشرعية فلا يصح فيها القياس ، لان مبنى الشرع على تفريق المجتمعات ، وجمع المتفرقات »[1] وذكر ابن حزم في كتاب « ابطال القياس » والقمي محمد حسن في الجزء الثاني من القوانين امثلة كثيرة على تفريق الشرع بين المجتمعات ، وجمع المتفرقات .

« منها » ما جاء في صفحة ٤٢ من كتاب « ابطال القياس » قال بعضكم ــ الخطاب لاهل القياس ــ : طلاق العبد طلقتان ، وصيام العبد في الظهار شهر (لا شهران متتابعان) فهلا تماديتم وقلتم : صلاته ركعتان ، وصيامه نصف رمضان ، ووضوؤه عضوان ، وغسله نصف جسده فوالله لان جاز القياس هناك ليجوزون هنا ؛ لانه كله قياس ، وكله خلاف النص . ثم قال ابن حزم في صفحة ٤٨ من الكتاب المذكور : ان الله جعل الحد في الزنا ، ولم يجعله في اتيان البهيمة ، وكلاهما محرم ، وجعل الحد بالقذف بالزنا ، ولم يجعله في القذف بالكفر ، وجعل الحد في جرعة خمر . ولم يجعله في شرب ارطال من الدم .

و « منها » ما ذكره القمي في الجزء الثاني من القوانين : ان الشرع جمع بين المختلفات ، كما في موجبات الوضوء ؛ حيث سوى بين النوم والبول والغائط ، وفرق بين المجتمعات ، فامر بقطع يد من سرق درهما ، دون من غصب مئات الالوف ،وحرم صوم يوم عيد الفطر ، مع ان سابقه واجب ، ولاحقه ندب ، الى غير ذلك مما لا يعد ولا يحصى .

---

(١) تقريرات الخراساني للميرزا النائيني ، وفرائد الشيخ الانصاري المعروف بالرسائل .

٣ ـ ان معنى القياس هـو الحاق امر غـير منصوص عليـه بآخر منصوص عليه في الحكم الشرعي ، لا اتحاد بينهما في العلة ، مثال ذلك ان الشرع قد نص على ايجاب الكفارة على من جامع في رمضان عامداً، وسكت عن ايجابها في الاكل والشرب ، فنقيسهما على الجماع ، لان الله حرم الجميع في الصوم على السواء .

قال ابن حزم ص ٤٨ : ان هذا اخراج لاحكام الله بالعقل ، وادعاء بلا برهان، ولا نص، واخبار عن الله بما لم يخبر، وتقويل لرسوله بما لم يقل .

وقال الامامية : ان ديـن الله لا يصاب بالعقول ، فليس لاي انسان كائنا من كان ، وبالغا من العلم والعقل ما بلغ ان يستخرج من تلقائه عللا واسبابا يسندها الى الله مـن غـير نص الشارع العالم بالاسباب الخفية والمصالح الكامنة ، ولا سيما مع ملاحظة قوله تعالى : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم » وقوله سبحانه : « وحرمنا عليهم كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما » فقد دل هذا على ان علة التحريم عصيانهم لا وصف ثابت للمذكورات . وعلى ذلك فلا يمكن الجزم بان الجامع بين المقيس والمقيس عليه علة للحكم، بـل من الجائز ان تكون خصوصية الاصل المقيس عليـه شرطا للحكم المنصوص ، او تكون خصوصية الفرع مانعة مـن الحاق غـير المنصوص بالمنصوص ، او تكون صفة المكلف هي الموجبة للحكم .

وقال ابن حزم في صفحة ٤٩ : « فاول ذنب عصي الله به التعليل لاوامر الله بلا نص . وترك اتباع ظاهرها . وذلك قول ابليس : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين » استنبط ابليس علة النهي عن اكل الشجرة ، ولم يصح التعليل عن صحابي . ولا قال به قط » اي ان التعليل محرم اذا لم ينص عليه الشرع ، امـا اذا نص عليه فيكون حجة متبعة . وقال الامامية : لو نص الشرع على علـة الحكم لعديناه الى حيث توجد العلة ، كما لو قال : الخمرة حرام ، لانها مسكرة بحيث فهمنا من النص

على التعليل ان الحرام هو المسكر ، فنحكم حينئذ بتحريم كل مسكر نبيذا كان او غيره دون ان تكون للخمرة اية خصوصية توجب التحريم ، وانما الوصف بالسكر هو العلة التامة للحكم ، اما اذا سكت الشرع عن العلة فليس لنا ان نستنبطها تلقائيا ، فاذا قال الشرع : لا تجمعوا بين الاختين ، ولم ينص صراحة على علة تحريم الجمع فلا يحق للمجتهد ان يقول : ان علة تحريم الجمع بين الاختين ان احداهما لو كانت ذكرا لحرم عليه تزويج الاخرى ، ثم يحكم بتحريم الجمع بين العمة وبنت الاخ ، لان العم لا يجوز له التزويج بابنة اخيه ، نعم لو قال : لا تجمعوا بين الاختين ، لانه لو كانت احداهما ذكرا لحرم عليه تزويج الاخرى لحرم حينئذ الجمع بين العمة وبنت الاخ ، وبين الخالة وبنت الاخ ، تماما كما يحرم الجمع بين الاختين .

المصـــــادر

كل ما نقلناه عن ابن حزم فمصدره كتاب له اسمه « ملخص ابطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل » وقد طبع حديثا بدمشق، وحققه الاستاذ سعيد الافغاني ، وهو جدير بالعناية والدرس ، لانه فريد من نوعه ، فجزى الله الاستاذ الافغاني عن الدين والعلم احسن الجزاء .

وما نقلنا عن الامامية فمصدره الجزء الثاني من القوانين لمحمد حسن القمي، وفرائـد الاصول للشيخ الانصاري ، وحاشيتـه للاشتياني ، وتقريرات الخراساني ، وتقريرات الخونساري للميرز النائيني .

المتعة عند الشيعة

وظيفة رجل الدين

لقد كثر الكلام قديما وحديثا حول المتعة ، وبالاصح كثر الخلاف والنقاش في حكمها ، وهل هي حلال ، او حرام في الشريعة الاسلامية ؟ .. وان كثيرا من الناس يحسبونها ضربا من الزنا والفجور جهلا بحقيقتها ، ويعتقدون ان ابن المتعة عند الشيعة لا نصيب له من ميراث ابيه ، ولا يشارك اخوته من الزواج الدائم في شيء .. وان المتمتع بها لا عدة لها ، وانها تستطيع ان تنتقل من رجل الى رجل ان شاءت بمجرد ان ينتهي امد الاتفاق بينها وبينه .. ومن اجل هذا استقبحوا المتعة ، واستنكروها ، وشنعوا على من اباحها .

وبما ان الواجب على رجل الدين ان يقوم بدور ايجابي في توعية الناس ، بخاصة في المسائل الدينية ، وارشادهم الى الحقيقة بعيدا عن التعصب والطائفية التي يستنكرها العقل والدين فقد رأيت ان اعرض المتعة ، واكشف عن حقيقتها كما هي عند الشيعة ، دون ان ابدي رأيا ، او اوحي بفكرة او اقارن واوازن .

من معاني المتعة

للمتعة معان ، منها المنفعة ، قال تعالى : « متاع الحياة الدنيا » . ومنها الزاد ، قال سبحانه : « متاعا لكم وللسيارة » . ومنها البقاء ، قال عز من قال : « فامتعه قليلا » . ومنها العطاء ، قال تباركت اسماؤه : « متاعا بالمعروف » .

اما الفقهاء فقد تكلموا عن المتعة بمعنى العطاء ، واوجبوه على الذي يتزوج امرأة دون ان يسمي لها مهرا حين العقد ، ثم يطلقها قبل الدخول ،

اوجبوا عليه ان يهدي المطلقة شيئا يتناسب مع وضعه المادي من الثراء والعوز ، واستدلوا على ذلك بالآية ٢٣٦ من سورة البقرة : « لا جناح عليكم اذا طلقتم النساء ما لم تمسوهن او تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين » .

زواج المتعة

وايضا تكلم الفقهاء عن المتعة بمعنى الزواج الموقت ، واجمعوا قولا واحدا السنة منهم والشيعة على ان الاسلام شرعها ، ورسول الله (ص) اباحها ، واستدلوا بالآية ٢٤ من سورة النساء : « فما استمتعتم به منهن فأتوهن اجورهن فريضة » .

وبما جاء في صحيح البخاري ؟ ٩ كتاب النكاح ان رسول الله (ص) قال لاصحابه في بعض حروبه : « قد اذن لكم ان تستمتعوا ، فاستمتعوا .. ايما رجل وامرأة توافقا فعشرة ما بينهما ثلاث ليالي ، فان احبا ان يتزايدا ، او يتتاركا تركا » .

وبما جاء في صحيح مسلم ج ٢ باب نكاح المتعة ص ٦٢٣ طبعة ١٣٤٨ هـ عن جابر بن عبدالله الانصاري انه قال : « استمتعنا على عهد رسول الله وابي بكر وعمر » وفي الصفحة نفسها حديث آخر عن جابر قال فيه : ثم نهانا عنها عمر .

وبعد ان اتفق المسلمون جميعا على شرعيتها واباحتها في عهد الرسول الاعظم (ص) اختلفوا في نسخها ، وهل صارت حراما بعد ان احلها الله سبحانه . ذهب السنة الى انها نسخت ، وحرمت بعد الاذن بها ، قال ابن حجر العسقلاني في كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ١١ ص ٧٠ طبعة ١٩٥٩ : « وردت عدة احاديث صحيحة صريحة بالنهي عن المتعة بعد الاذن بها » .. وجاء في الجزء السادس من كتاب المغني لابن قدامة ص ٦٤٥ طبعة ثالثة ما نصه بالحرف : « قال الشافعي : لا اعلم شيئا احله الله ، ثم حرمه ، ثم احله ، ثم حرمه الا المتعة » .

وقال الشيعة : اجمع المسلمون كافة على اباحة المتعة ، واختلفوا في نسخها ، ومـا ثبت باليقين لا ينفى ويزون بمجرد الشك والظن ، وايضا استدلوا على عدم النسخ بروايات كثيرة عن اهل البيت ذكرها الحر العاملي في كتاب الوسائل ، منها ان الامام الصادق (ع) سئل : هل نسخ آية المتعة شيء ؟ قال : لا ، ولولا ما نهى عنها عمر ما زنى الا شقي .

وليس من شك ان النسخ لو ثبت عند السنة لقالوا بمقالة الشيعة ، ولو لم يثبت عند الشيعة لقالوا بمقالة السنة ، وليست آية المتعة وحدها محلا للاختلاف من حيث النسخ وعدمه ، فقد اختلف السنة والشيعة في غيرها من هذه الحيثية ، كما اختلف فقهاء السنة بعضهم مع بعض ، وفقهاء الشيعة كذلك في جملة من الاحكام والآيات[1] .

ومهما يكن ، فان الزواج المنقطع ــ اي المتعة ــ يجتمع مع الزواج الدائم في اشياء ، ويفترق عنه في اشياء عند الشيعة ، وفيما يلي نذكر ملخصا لما يجتمعان فيه ، ويفترقان :

المساواة بين الزواج الدائم والمنقطع

اجمع فقهاء المذهب الجعفري علـى ان الزواج الدائـم والمنقطع يشتركان في الامور التالية :

١ ــ لا بد في كل منهما ان تكون المرأة عاقلة بالغة راشدة خالية من جميع الموانع فلا يجوز التمتع بالمتزوجة ، ولا بالمعتدة من طلاق او وفاة ، ولا بالمحرمة نسبا او مصاهرة او رضاعا ، ولا بالمشركة . وما الى هذه مما ذكر مفصلا في عنوان مستقل للمحرمات .. وايضا لا يجوز لها هي ان تتمتع الا بالمسلم الخالي من جميع الموانع .

---

(١) تكلمنا عن شرعية المتعة مفصلا عند تفسير الآية ٢٤ من النساء في المجلد الثاني من تفسير الكاشف ص ٢٩٥ ، ونقلنا شرعيتها من صحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرهما ، وان عمر حرم ثلاثة اشياء ، لا شيئين : متعة الحج ، ومتعة النساء ، وحي على خير العمل .

٢ ـ لا يصح الزواج المنقطع بالمعاطاة ومجرد المراضاة ، بل لا بد فيه من العقد اللفظي الدال صراحة على قصد الزواج ، تماما كالزواج الدائم ، ولا يقع عقد المتعة بلفظ وهبت وابحت واجرت ونحوه ، بل ينحصر لفظ العقد بخصوص انكحت وزوجت ومتعت ، قال صاحب الجواهر ، « اما صيغة زواج المتعة فهي اللفظ الذي وضعه الشرع للايجاب كزوجتك وانكحتك ومتعتك ، ايها حصل وقع الايجاب به ، ولا ينعقد بغيرها ، كلفظ التمليك والهبة والاجارة ، ويقع القبول باللفظ الدال على الانشاء كقبلت ورضيت » •

٣ ـ عقد الزواج المنقطع كالدائم لازم في حق الرجل والمرأة ، •• اجل ، للزوج ان يهب المدة المتفق عليها للتمتع بها ، كما له ان يطلق الزوجة الدائمة •

٤ ـ الزواج المنقطع ينشر الحرمة ، تماما كالدائم ، فام المتمتع بها تحرم على الزوج مؤبدا ، وبنتها ربيبته ، ولا يجمع بين الاختين متعة كما لا يجمع بينهما دواما ، والرضاع من المتمتع بها كالرضاع من الدائمة من غير تفاوت ، اما الرضاع من الزانية فلا اثر له اطلاقا ، والفرق ان المتمتع بها زوجة شرعية ، وفراش صحيح ، اما الزانية فلها الحجر •

٥ ـ الولد من الزوجة المنقطعة كالولد من الدائمة في وجوب التوارث والانفاق ، وسائر الحقوق المادية والادبية ، فقد سئل الامام الصادق (ع) عن المرأة المتمتع بها اذا حملت ؟ • فقال : هو ولده •

٦ ـ يلحق الولد بالزوج بمجرد الجماع ، حتى ولو عزل ، واراق ماءه في الخارج ، لان المتمتع بها فراش شرعي كالدائمة ، والولد للفراش اجماعا ونصا •

٧ ـ المهر في الزواج المنقطع كالمهر في الزواج الدائم ، من حيث عدم تقديره قلة او كثرة ، فيصح بكل ما يقع عليه التراضي واحدا كان او

مليونا ، عملا بالآية الكريمة : « وان آتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » .

٨ ــ اذا طلق الزوجة قبل الدخول يثبت لها نصف المهر المسمى ، وكذا اذا وهب المدة للزوجة الموقتة قبل ان يدخل ، اما اذا انقضت المدة دون ان يدخل لاي سبب فلها المهر كاملا .

٩ ــ لا اثر للخلوة من غير الدخول في الزواج الدائم والمنقطع بالنسبة الى المهر والعدة .

١٠ ــ على المتمتع بها ان تعتد مع الدخول بها بعد الاجل . ولا عدة عليها اذا لم يدخل ،تماما كالزوجة الدائمة اذا طلقت من غير تفاوت ، وعليهما معا العدة الكاملة من وفاة الزوج ، سواء ادخل او لم يدخل .

١١ ــ كل شرط سائغ في الشريعة الاسلامية تشترطه المرأة او الرجل في متن العقد فهو نافذ كالشرط في الزواج الدائم ، لحديث : « المؤمنون عند شروطهم » .

١٢ ــ تحرم مقاربة الزوجة ، وهي في الحيض منقطعة كانت او دائمة.

١٣ ــ اذا عقد عليها متعة . ثم تبين فساد العقد ، لسبب موجب للتحريم فسد العقد ، ولا شيء لها من المهر ان لم يدخل ، اما اذا تبين فساد العقد بعد الدخول فينظر : فان كانت عالمة بالتحريم ، ومع ذلك اقدمت ومكنت من نفسها فلا شيء لها ، لانها بغي ، وقد جاء في الحديث : « لا مهر لبغي »وانكانت جاهلة فلها المهر ، كما هو الحكم في الدائمة .

١٤ ــ لا يجوز ان يدخل على المتمتع بها بنت اختها ، او بنت اخيها الا باذنها ، كما هو الحكم في الدائم .

التباين بين الزواج الدائم والمنقطع

ويفترق الزواج الدائم عن الزواج المنقطع في الامور التالية :

١ ــ لا بد في الزواج المنقطع ان يذكر في متن العقد اجل معين لا يقبل

الزيادة والنقصان ، اما الزواج الدائم فلا يصح ذكر الاجل فيه بحال ، وهذه الحقيقة تدل على نفسها بنفسها ، وتحمل قياسها معها .

واذا قصد كل من الرجل والمرأة الزواج المنقطع ، وتركا ذكر الاجل في متن العقد نسيانا ، فهل يقع الزواج دواما ، او متعة ، او يكون العقد لغوا ، ولا يقع هذا ولا ذاك ؟

ذهب المشهور بشهادة صاحب المسالك الى ان الزواج ، والحال هذي ، يقع دائما بل قال صاحب الجواهر : « لعله مجمع على ذلك ، لصلاحية اللفظ للدوام ، ولقول الامام الصادق (ع) : اذا سمى الاجل فهو متعة ، وان لم يسم فهو نكاح ثابت .

وقال بعض الفقهاء : بل يقع لغوا لا دائما ولا منقطعا ، لان ما قصد لم يقع ، وما وقع لم يقصد .

٢ ــ المهر ركن من اركان العقد في الزواج المنقطع ، فلو اخل بذكره في متن العقد بطل من راس ، قال الامام الصادق (ع) : لا تكون متعة الا بامرين : اجل مسمى ،واجر مسمى ، وعنه في رواية ثانية : اجل معلوم ، ومهر معلوم .

اما الزواج الدائم فالمهر ليس ركنا له ، ويصح مع المهر ، ودونه ، فمن تزوج امرأة ، ولم يذكر لها مهرا في متن العقد ، ودخل بها فعليه مهر المثل .

٣ ــ اذا طلقت الزوجة الدائمة قبل الدخول فلا عدة لها ، ومثلها المنقطعة اذا انتهى الاجل قبل الدخول ، واذا طلقت الدائمة بعد الدخول وكانت غير حامل فعدتها ثلاث حيضات ، او ثلاثة اشهر ، وان كانت حاملا فعدتها وضع الحمل ، اما المنقطعة فعدتها بعد الدخول وانقضاء الاجل حيضتان ، او خمسة واربعون يوما ، ان كانت غير حامل ، وان كانت حاملا فعدتها وضع الحمل .. هذا ، بالقياس الى طلاق الدائمة ، وانتهاء اجل المنقطعة ، اما بالنسبة الى عدة الوفاة فلا فرق بينهما اطلاقا ، فكل منهما تعتد اربعة اشهر وعشرة ايام ، سواء اكان قد دخل الزوج ، ام لم يدخل ،

هذا مع عدم الحمل ، اما معه فتعتدان بابعد الاجلين من وضع الحمل ، ومن اربعة اشهر وعشرة ايام .

٤ ــ اختلف فقهــاء المذهب الجعفري في توارث الزوجين في الزواج المنقطع ، فذهب جماعة ، منهم الشهيد الاول محمد بن مكي (ت ٧٨٦ هـ) والشهيد الثاني زين العاملي الجبعي (ت ٩٦٥) ذهبوا الى انه لا توارث الا مع الشرط ، لان عقد الزواج بطبيعته لا يقتضي التوارث ، ولا عدمه ، ومتى حصل الشرط وجب العمل به ، «لحديث : «المؤمنون عند شروطهم» . ولقول الامام الصادق (ع) : « ان اشترطا الميراث فهما على شرطهما » .

٥ ــ لا نفقة للمنقطعة الا مع الشرط ، اما الدائمة فلها النفقة ، حتى ولو اشترط عليها عدم الانفاق .

٦ ــ يكره التمتع بالابكار ، اما الزواج بهن دواما فمندوب ، قــال صاحب الحدائق : « سئل الامام الصادق (ع) عن المتعة ؟ . فقال : ان امرها شديد ، فاتقوا الابكار » .

٧ ــ قال الفقهاء : للزوجة الدائمة حق على الروج ان ينام في فراش قريب من فراشها ليلة واحدة من كل اربع ليالي معطيا لها وجهه ، وان لــم يتلاصق الجسدان . والمهم ان لا يعد هاجرا . اما المواقعة فتجب عليه في كل اربعة اشهر مرة ، ولها ان تطالب ان امتنع عن المبيت ، او المواقعة .

ولا يجب شيء من ذلك للمنقطعة ، بل يترك له الخيار ، وليس لها ان تطالبه ، لا بالمبيت ، ولا بالمواقعة .

٨ ــ اذا طلقت الزوجة الدائمة طلاقا رجعيا بعد الدخول فللمطلق ان يرجع اليها قبل انقضاء العدة ... واذا كان الطلاق خلعيا ، وعن كره وبذل منها له ، فلها الحق ان ترجع بالبذل ما دامت في العدة .

اما المنقطعة فانها تبين منه بمجرد انتهاء المدة ، او هبتها ، ولا يحق له ولا لها الرجوع اثناء العدة ، وبالاولى بعد انتهائها . اجل ، يجوز له ان يجدد العقد عليها دواما او انقطاعا . وهي في العدة منه ، ولا يجوز ذلك

لغيره الا بعد انقضاء العدة .

وبالجملة ان كل ما يثبت للزوجة الدائمة يثبت للمنقطعة الا ما خرج بالدليل ، وقد دل الدليل على ما ذكرناه من الفروق ، فيبقى غيرها من الآثار والاحكام على حكم العموم ، قال صاحب الجواهر : « الاصل اشتراك الدائم والمنقطع في الاحكام التي موضوعها النكاح والتزويج مما يشمل المنقطع الا ما خرج بالدليل » وجاء في كتاب اللمعة وشرحها ما نصه بالحرف : « حكم الزواج المنقطع كالدائم في جميع ما سلف من الاحكام شرطا وولاية وتحريما الا ما استثني » .

ومن هنا قال كثير من الفقهاء : ان حقيقة المنقطع والدائم واحدة ، وان لفظ الزواج موضوع لمعنى له فردان : احدهما الزواج الدائم ، والآخر الزواج المنقطع ، تماما كالانسان الشامل للذكر والانثى .

التمتع بالعفيفة

ومن الخير ان نختم الكلام عن المتعة ببعض ما جاء فيها عن اهل البيت (ع) فقد سئل الامام الصادق عن المتعة ؟ . فقال : هي حلال ، ولا تتزوج الا عفيفة ، ان الله سبحانه يقول : والذين هم لفروجهم حافظون .. وفي رواية اخرى انه قال : ان الله عز وجل يقول : الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك وحرم ذلك على المؤمنين .

ومن هنا قال الشيخ الصدوق : « ان من تمتع بزانية فهو زان » كما جاء في كتاب الحدائق .

وجاء في كتاب وسائل الشيعة مجلد ٣ ص ٧٤ طبعة ١٣٢٤ هـ ان علي ابن يقطين سأل الامام الرضا حفيد الامام الصادق (ع) عن المتعة ؟ فقال له : ما انت وذاك قد اغناك الله عنها .

وسأله آخر ، فقال : هي حلال مباح مطلق لمن لم يغنه الله بالتزويج ، فليستعفف بالمتعة ، فان استغنى عنها بالتزويج فهي مباح له اذا غاب عنها . اي عن زوجته .

المسئولية السلبية في الشريعة الاسلامية وبعض القوانين

رجل رأى اعمى يكاد يتردى ، او غريقا اوشك ان يبتلعه الماء ، او رأى اية نفس مصونة الدم ، في سبيل التهلكة ، وهـو قادر على اسعافها وانقاذها ، ومع ذلك اهمل ولم يفعل ، فهل يكون مسئولا ؟ .

ايضا رجل رأى سارقا يأخذ محفظة نقود لآخـر ، او رأى المحفظة تسقط من صاحبها ، ولم ينبهه الى ذلك ، فهل يكون مسئولا ؟ اي هـل الترك في هذه الامثلة ، وما اليها يعد جريمة ؟

ولكي يتضح الجواب نمهد بما يلي :

١ ــ ان المسئولية تارة تكون ادبية لا يترتب عليها تعويض مالي، كمن عـق والديه بترك زيارتهما ، او كالمغرور والمرائي او المتكبر ، او كالذي يتحدث عن نفسه ، ويلفق عنها الحكايات ليظهر شخصيته ، فهؤلاء ومن اليهم مسئولون امام الله والضمير ، وغير مسئولين امام القانون ، امـا في الشريعة الاسلامية فللحاكم ان يعزرهم بما يراه من التوبيخ او غيره ، كما سنشير الى ذلك ، واخرى تكون المسئولية « مادية » ونريد بها المسئولية التي يترتب عليها التعويض المالي والعقاب الدنيوي معا ، كمن سرق مال غيره ، فانه يعاقب من اجـل السرقة ، لانها ضرر يصيب المجتمع ، ويخل بالامن ، ويحكم عليه ايضا برد المسروق مع بقائه ، او رد عوضه مع التلف ، وتشمل هذه المسئولية ايضا الحكم بالتعويض المالي فقط ، كمن كسر اناء غيره دون قصد واختيار .

٢ ــ تتفق الشريعة الاسلامية مع الشرائع الحديثة على انه « لا جريمة بلا نص » اي ان الانسان لا يسأل عما يفعل اذا لـم يرد نهي عن الفعل ،

ولكن فقهاء الاسلام يختلفون مع اهل القانون في تحديد الجريمة ، اذ يكفي لتحقق معنى الجريمة عند الفقهاء مجرد النص على التحريم ، وان لم يصرح النص بتقدير العقوبة عليها ، اما اهل القانون فيشترطون وجود النص الصريح على تحديد العقوبة عليها ، فالنص عندهم على مقدار العقوبة شرط في تحقق معنى الجريمة ، فلو افترضنا ان النص ورد على التحريم فقط دون العقوبة فلا جريمة حينئذ في عرف القانون ، هذا مع العلم انه لا نهي في القانون مجردا عن تقدير العقوبة كما هي الحال في الاديان السماوية .

٣ ـ قال فقهاء الاسلام ، كل ما له عقوبة مقدرة في النصوص يسمى حدا ، وكل ما ليس كذلك يسمى تعزيرا ، فمن ارتكب عملا نص الشرع على تحريمه وعلى عقوبته معا يحد بالعقوبة المنصوص عليها كقطع يد السارق وقتل القاتل ، واذا نص الشرع على التحريم دون العقوبة عاقبه الحاكم بما يراه بقصد الردع والزجر عن المعصية وانتشارها ، وقد ثبت في الحديث « ان الله جعل لكل شيء حدا ، ولمن تجاوز عن الحد حدا » ، ومنه يتبين ان الشريعة الاسلامية في حال كهذه قد جعلت من الحاكم مشرعا وقاضيا في آن واحد ، غير ان هذه السلطة لا تشمل الحكم بالمال على العاصي ، بل تختصر العقوبة الادبية كالتوبيخ او الضرب او الحبس او النفي حسبما يراه الحاكم من المصلحة .

٤ ـ اوجب الدين التعاون والتعاضد بين الناس بخاصة في حفظ النفس وصيانتها من التلف ورتب الفقهاء على ذلك احكاما واستنباطات مبعثرة في ابواب الفقه هنا وهناك . نذكر منها المسائل التالية :

من رأى طفلا في فلاة لا يستقل بدفع الاذى عن نفسه وجب التقاطه[1] .

ولو اضطر انسان الى طعام غيره ، ويعجز عن دفع الثمن ، ولم يكن

(١) كتاب المسالك للشهيد الثاني باب اللقطة .

صاحب الطعام محتاجا اليه يجب على مالك الطعام ان يبذله للمضطر مسلما كان او ذميا او مستأمنا ولو منعه صاحب الطعام كان للمضطر ان يقاتله[1].

اذا باشر انسان بالصلاة ، ثم عرض ما يخشى منه على نفس المصلي او غيره او على مال يجب حفظه شرعا قطع المصلي الصلاة ، ودفع الخطر الداهم .

اذا كان لدى انسان قليل من الماء يكفي لوضوئه فقط ، واحتاجت اليه نفس غير شريرة ، وجب ان يسقيها الماء ، ويتيمم للصلاة .

اذا وجد يتيم ، له مال ، وليس له ولي ولا وصي يجب على الامناء واهل الوثاقة ان يحفظوا ماله ، ويستعملوه فيما يصلحه[2] .

قال الشيخ الطوسي كبير فقهاء الامامية وعظيمهم ، وابو حنيفة ، واصحاب الشافعي :

اذا حفر الانسان بئرا او عينا فعليه ان يبذل الفاضل عن حاجته من الماء لشرب الناس ودوابهم مجانا اذا احتاجوا اليه ، ولا يلزمه ذلك لزرعهم واشجارهم ، وعن مالك وابن حنبل في احدى روايتيه انه يلزم بالبذل لسقي الارض والاشجار ايضا ما دام غير محتاج له[3] .

قال الفقهاء : ان التبرع بالشهادة قبل سؤال القاضي يوجب سقوطها اذا كانت على حق خاص ، ولانسان معين ، كالشهادة له بمال او زواج او غيره ، لان التبرع بهاوالاسراع اليها يبعث على التهمة ، اما في المصالح العامة كالشهادة على المساجد والقناطر والوقف على المسلمين ، وفي حقوق الله كالزكاة والزنا وشرب الخمر فتقبل من المتبرع ، ولا تفتقر الشهادة الى سؤال ولا الى تقدم الدعوى .

قال الشهيد الثاني : « ان التبرع بهذه الشهادة نوع من الامر

---

(١) كتاب المسالك والجواهر وغيرهما .

(٢) كتاب المكاسب للشيخ الانصاري وبلغة الفقيه للسيد محمد بحر العلوم وغيرهما .

(٣) كتاب الجواهر وميزان الشعراني باب احياء الموات .

بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو واجب وأداء الواجب لا يعد تبرعا ، وهذا هـو الاقوى[1] . ومن هـذا الحكم يتبين معنا ان الفقه الاسلامي سبق القوانين الحديثة التي اوجبت على من علم بجناية على أمن الدولة ان يخبر السلطة والا عوقب .

وروى ان ثلاثة نفر رفعوا الى الامام علي : واحد امسك رجلا والثاني قتله ، والثالث رأى ولم يحرك ساكنا ، فقضى بقتل القاتل وسجن الممسك مؤبدا ، وان تسمل عينا الرائي[2] .

هذا مـا وجدناه في كتب الفقـه ، وفي مطاوي ابـواب العبادات والمعاملات ، وليس من شك في ان الباحث المنقب سيجد فيها الكثير مما يدخل في هذا الباب ، ومهما يكـن ففيما ذكرناه كفاية للتدليل على ان الاسلام يتخذ مـن نجدة الانسان لاخيه مبدأ مـن مبادىء التشريع اذا توقف عليها صيانة امر هـام ، واذا لم تستلزم النجدة الاضرار بالمنجد . وقوانين البلاد العربية لا تعترف بهذا المبدأ كقاعدة عامة ، لان القانون كما قال الدكتور حومد في كتاب « الحقوق الجزائية العامة » « لا يفرض على الناس التعاون والتعاضد » ومع ذلك وردت مادة او اكثر في بعض هذه القوانين تتضمن النص على عقوبة الممتنع ، فقد نصت المادة ٤٩٨ من قانون العقوبات اللبناني على ان من طرح او سيب ولدا دون السابعة من عمره ، او اي شخص يعجز عن صيانة نفسـه عوقب بالحبس من ثلاثة اشهر الى سنة . واذا طرح الولد او العاجز . او سيب في مكان قفر عوقب من سنة الى ثلاث سنوات ، ونصت المادة ٧٥٥ من قانون العقوبات السوري على « فرض غرامة تتراوح بـين خمسة ليرات على كـل شخص يستنكف او يتوانى دون عذر عن الاغاثة ، او اجراء اي عمل او خدمة يطلبها منه رجال

---

(١) كتاب المسالك في فقه الشيعة الامامية ، وكتاب المغني لابن قدامه في فقه السنة باب الشهادات .

(٢) قال صاحب المسالك في باب القصاص : عمل الشيخ بهذه الرواية وتبعه الاصحاب .

السلطة عند حصول حادث او غرق او فيضان او حريق او عند الجرم المشهود او الاستنجاد »[1] .

وهذه المواد ، كما نرى ، تنص على موارد خاصة ، ولا تتعرض للتعاون كمبدأ عام كما هي الحال في الشريعة الاسلامية . وقد رأيت القانون الفرنسي اقرب القوانين الحديثة التي اطلعت عليها الى الفقه الاسلامي ، حتى كأن رجال القانون الفرنسيين قد استوحوا من فقهاء المسلمين ، جاء في المادة ٦٣ من قانون الجزاء الفرنسي :

« يعاقب بالحبس من شهر الى ثلاث سنوات ، وبغرامة تتراوح بين ١٢ الف فرنك او ٥٠٠ الف فرنك ، او باحدى هاتين العقوبتين كل من يمتنع مختارا عن الحؤول دون وقوع عمل جنائي او جنحة ضد سلامة الشخص ، وكان قادرا على اسعافه دون ان يعرض نفسه او غيره للخطر . ويعاقب ايضا بالعقوبات نفسها كل من امتنع عن مساعدة شخص وجد في حالة خطر مع قدرته على ذلك ، وعدم تعرضه او تعرض غيره للخطر »[2] .

وهذا الشرط ، وهو عدم تعرض المنجد للخطر هو عين ما نصت عليه الشريعة الاسلامية من انه لا يجب ان يتحمل الانسان الضرر ليدفعه عن غيره ، كما لا يجوز ان يدفعه عن نفسه بادخاله على غيره .

هذا ما تيسر لي الاطلاع عليه من القوانين الحديثة ، ومنه نعلم ان الاسلام سبق الشرائع الى الاعتماد على التعاون كمبدأ للتشريع ، وان القيم الاخلاقية تظهر جلية واضحة في الكثير من احكامه ، بل ان القواعد الفقهية ليست الا قيما اخلاقية تحولت في كتب الفقه الى مصدر من مصادر التشريع ، فعلى الفقيه والقاضي اللذين يريدان تطبيق الشريعة الاسلامية ان يراعيا ويحرصا على عنصر الاخلاق فيما يحكمان ويفتيان . ولا شيء ادل على ان الفقه الاسلامي يرتكز على القيم الاخلاقية من حرصه

---

(١) الحقوق الجزائية العامة لعومد ص ١٥٧ .

(٢) كما ترجم لي من كتاب قانون الجزاء الفرنسي لبيارنوازا .

البالغ على تطبيق المساواة في جميع احكامه ، ومنها ان العقوبة على الحق العام لا يجوز بحال ان تكون من نوع التغريم بالمال في الفقه الاسلامي بينما القوانين الحديثة تحكم على من خالفها بالجزاء النقدي ، وهذا اقرار لمبدأ الجريمة وتشجيع لانتشارها ، وبيعها على الاغنياء الذين يقدرون على دفع الثمن ، وافساح المجال لهم كي يفعلوا ما يعجز عنه الفقير المعدم ، وفي هذا من الظلم وعدم المساواة مـا تأباه مبادىء القانون الطبيعي وقواعد العدالة .

هذا الى ان التعزير الادبي اشد ايذاء للنفس والشعور من التغريم المالي ، لانه يمس الشرف والاعتبار ، ويضم الجاني بالعار مدى حياته ، ويسيء الى سمعته وكرامته ، ومن هنا اشترط كثير من الفقهاء ان يكون التعزير علنا ، وعلى رؤوس الاشهاد ، ليكون اقوى في الزجر واحكم في الردع عن الجرائم .

ان الشريعة لا تغرم احدا بالمال الا اذا اتلف مـال غيره مباشرة او بسبب من الاسباب، سواء افعل ذلك عن قصد او غير قصد ، اي ان التغريم بالمال لا يكون الا بدلا عن المال ، مـا عدا قتل الخطأ ، كمن رمى طائرا فأصاب انسانا ، والقتل الشبيه بالعمد . كمن ضرب طفلا للتأديب فمات ، اما قتل العمد « فالواجب الاول هـو القود ــ القتل ــ ولا تجب الدية الا صلحا »[1] .

وبالتالي ، فكما حرم الاسلام التعاون على الاثم فقد اوجب التعاون على البر ، وجعله مبدأ من مبادىء التشريع ، كانقاذ الغريق واطفاء الحريق وارشاد الاعمى ، وما الى ذلك ، فان امتنع القادر على النجدة دون معذرة فقد فعل محرما واستحق التعزير بما يراه الحاكم من الاهانة او الضرب او الحبس او النفي ، ولا يحكم عليه بشيء من المال ، وقد سألت المرجع السيد

(١) كتاب المسالك للشهيد الثاني باب الديات .

محسن الحكيم عن بعض هذه الفروع فاجاب بما يتلخص بأنه لا ضمان على الممتنع المقصر لعدم وجود الدليل الا اذا كان للانسان رقابة على الشيء التالف ، كالامانات ونحوها ، ولكنه يعزر لفعل الحرام •

وهكذا لا يترك الاسلام حساب الممتنع عن العون الى يوم القيامة فحسب ، بل يعاقبه بما يستحق ، لغاية الردع والزجر ، ويساوي في هذا العقاب بين الصغير والكبير والغني والفقير •

ولعلك ادركت ــ ايها القارىء الكريم ــ مما قدمنا مزايا الشريعة الاسلامية وفضلها على سائر القوانين الحديثة، وانها ادخلت القيم الاخلاقية في نطاق الفقه من اجل صيانة الحق وحمايته ، وان القواعد الشرعية كابطال العقود المنافية للآداب ، وحرمة الاثراء بلا سبب ، والاضرار بالغير ، والغش والتدليس ، ورفع الغبن ، والعسر والحرج ، وما الى ذلك كلها قيم اخلاقية تحولت في كتب الفقه الى مصدر للتشريع • فجدير اذن بأساتذة الحقوق ان يدرسوا الشريعة الاسلامية في ضوء القانون المقارن ، ولو من الناحية النظرية على الاقل •

مع كتاب
(محاضرات في اصول الفقه الجعفري للشيخ أبي زهرة)

عرفت جماعة مـن علماء السنة المعاصرين ، وبلوت افكار بعضهم وميوله بأحاديثه ومحاوراته ، وتذاكره في العقيدة والشريعة ، وبخاصة في المسائل الخلافية بين السنة والشيعة ، ومنهم من عرفته بكتابه ، او مقالاته ، ولم استمع اليه بالذات ، ومن هؤلاء العلامة الشيخ محمد ابو زهرة ، فقد تسامع به الناس ، ولم استمع اليه ، ولكني على بينة مـن علمه واهدافه ، لاني قرأت الكثير له وعنه .

وابرز آثاره التي اطلعت عليها كتاباته القيمة في الشريعة الاسلامية ، والمقابلة بين مذاهبها في كثير من المسائل ، وموازنتها مع بعض القوانين الوضعية وبيان اسرارها ، واعلان فضائلها في عبارة صريحة ، واسلوب واضح يقربها الى ذهن كل طالب وراغب في معرفتها .

وآخر ما قرأت له كتاب « محاضرات في اصول الفقه الجعفري » القاها على طلبة قسم الدراسات القانونية ، فشعرت بالغبطة والاطمئنان ، لا لان الاستاذ المؤلف بث ونشر بعض معارف الشيعة ، بل لان هذا العمل في ذاته يعد اسهاما مجديا في التقريب بين المذاهب الاسلامية ، ويصبح دليلا على ان في رجال الدين من يحاول السير على طريق الحياد وعدم الانحياز .

وعلى اساس الحياد ابدي بعض الملاحظات ، والغاية منها الزيادة في المعلومات عن اصول الفقه عند الجعفرية . لان المؤلف ذكر بعض مباحث الاصول ، ولم يتعرض للكثير منها او لاكثرها ، واعتمد على مصادر بعضها لم يؤلف في الاصـول ، ككتاب تأسيس الشيعة للسيد الصدر ، وكتاب

اصل الشيعة لكاشف الغطاء ، وبعضها وضع في الاصـــول ، ولكنها كتب ابتدائية مختصرة ، تعتبر الخطوة الاولى من الاصول عند الشيعة ، ككتاب عـــدة الاصول للشيخ الطوسي المتوفي سنة ٤٦٠ هـ ، وكتـــاب التهذيب للعلامة الحلي المتوفي سنة ٧٢٦ هـ[١] ، وكتاب المعالم للشيخ حسن المتوفي سنة ١٠١١ هـ . وهذه الكتب كانت في القديم مقررة للتدريس ، حيث لم يكن غيرها ، ثم اهملت ما عدا كتاب المعالم الذي يبدأ الطالب اول ما يبدأ به تمهيدا وتسهيلا الى معرفة غيره من المطولات ، وتفهم المطالب العالية ، والنظريات الدقيقة ، ثم ينتقل من المعالم الى كتاب القوانين للمحقق القمي ، او الكفاية للشيخ كاظم الخراساني ، ومنها الى الرسائل للشيخ الانصاري ، وكتاب التقريرات للمرزا النائيني[٢] ، هـــذا ، الى مصادر اخـــرى ، لها اهميتها وفوائدها يرجع اليهـــا الاساتذة ، والمحققون ، ككتاب الفصول للشيخ محمد حسين ، وتقريرات الانصاري ، وكتاب الشيخ عبد الكريم القمي ، وحاشية المعالم هداية المسترشدين للشيخ محمد تقي وتبلغ عشرة اضعاف المعالم على الاقل ، وحاشية الاشتياني على الرسائل في الاصول العقلية وتزيد صفحاتها على الالفين بقطع النصف ، وكتاب حقائق الاصول للسيد محسن الحكيم ، وهو اكثر مـــن الف صفحة ، وما الى ذلك مـــن عشرات الكتب المطولة والمختصرة ، وعلى الاجمال فان نسبة المعالم الى هذه الكتب كنسبة الارقـــام الحسابية الى علم الجبر ، فلقـــد تطور علم الاصول عند الشيعة تطورا ابعد الشقة بين طرفي البداية والنهاية ، وتوصل المتأخرون الى نتائج لا تصح بحال مقارنتها بما يحتوي عليه كتاب التهذيب

---

(١) ذكر الشيخ ابو زهرة في ص ١٤٢ أن العلامة الحلي توفى سنة ٦٤٩ هـ ، والصحيح ما ذكرناه ، واظن انه اشتبه بين المحقق الحلي جعفر بن حسن وبين العلامة الحلي تلميذ المحقق المذكور .

(٢) في القديم كانوا يصطلحون على ما يلقيه الاستاذ على تلاميذه بالامالي ، واليوم يعبرون عنه بالتقريرات ، اي ما اثبته الاستاذ .

والمعالم ، وفيما يلي نقدم للقراء طرفا من الشواهد على هذه الحقيقة . مع الاشارة الى تحديد بعض المفاهيم التي التبس معناها على المؤلف ، لتعقيد او نقص في عبارة المصدر الذي نقل عنه ، او لاصطلاح خاص لا يعرفه الا ابناء المدرسة النجفية .

المجتهد المطلق :

١ ــ قال المؤلف ص ٢٩ : ان الاستنباط عند الامامية له دوران : الاول الذي كان ــ اي الاستنباط ــ فيه مطلقا ، وهو دور حضور الائمة وظهورهم ، وفي هذا الدور كان الاجتهاد المطلق ، وكان للامام وحده .. الدور الثاني : الاجتهاد في حال غيبة الامام وفي هذه الحال يكون ــ اي الاجتهاد ــ لعلماء المذهب ، وانه بحسب الاصطلاح في الاجتهاد لا يسمي المجتهد في هذا العصر ــ اي عصر الغيبة ــ مجتهدا مطلقا » .

وللشيعة ان يعلقوا على هذا القول بانهم لا يجيزون بحال نسبة الاجتهاد والاستنباط الى احد ائمتهم ، لان المجتهد يفتي بعد البحث وافراغ الوسع ، وقد يصيب في فتواه ، وقد يخطىء ، وهو في كلتا الحالين مأجور ، فان اصاب يؤجر للاصابة ، ولما بذله من جهد . وان اخطأ يعذر لخطئه ، ويؤجر على جهده ، والامام في عقيدة الشيعة راو عن آبائه عن جده ، فجميع اقواله تنتهي الى الرسول حتى لو ارسل . ولم يذكر السند . والفرق بينه وبين غيره من الرواة ان صفة الكذب والخطأ والنسيان لا تحتمل في حقه ، وهي جائزة في حق سواه .

فالاجتهاد والاستنباط عند الشيعة لا ينسبان الا الى الفقيه . وقد ادرك المؤلف هذه الحقيقة حيث قال في ص ٣٨ : « انهم ــ اي الشيعة ــ لا يعتبرون علم الامام علم امكان واجتهاد . بل علم احاطة في موضوع امامته » . وعرّف الشيعة الاجتهاد بانه ملكة يقتدر بها على استنباط الحكم الشرعي من الاصل ، وقسموا المجتهد الى مطلق ومتجزىء .

والمجتهد المطلق هو الفقيه الذي يقدر على استنباط جميع الاحكام من اصولها في الموارد التي يظفر بها ، اي انه يستطيع فعلا او قوة ان يرجع كل حكم الى دليله ، سواء اكان هذا الحكم من العبادات او العقود والموجبات او الجنايات او الاحوال الشخصية او السياسية ، اما المتجزىء فهو الذي يقدر على استنباط بعض الاحكام دون بعض ، تماما كمن يتخصص ، بقانون العقوبات ، ولا يعرف شيئا من قانون العقود والموجبات ، والذي يجب ان ترجع اليه العامة في امور دينها هو الاول ، اما الثاني فقد اطال علماء الامامية الكلام فيه ، فمنهم من احال وجوده ، وجزم بعدم امكانه وتصوره ، لان الملكة لا تتجزأ ، فمن قدر على البعض قدر على الكل ، والعكس بالعكس ، ثم الذين قالوا بامكانه اختلفوا في جواز الرجوع اليه فتوى وقضاء ، واكثر فقهاء الامامية قالوا بعدم جواز الرجوع الى المجتهد المتجزي في الفتوى وفي القضاء . وان قوله جائز على نفسه . ولا ينفذ في حق غيره . ويظهر ان الشيخ المؤلف يفهم من الاجتهاد المطلق الاجتهاد غير المقيد بمذهب من المذاهب ، ولا بقول من اقوال الائمة ، وغير المطلق الاجتهاد المقيد بمذهب خاص وبقول الامام ، ولهذا نسب الاول الى الامام ، لانه لا يلتزم اقوال غيره، والثاني الى فقهاء الشيعة. لانهم يخرجون اجتهاداتهم على اقوال ائمتهم ، ويتعبدون بها •

٢ ــ قال في ص ٣٠ : « لا ينعقد الاجماع عند الشيعة الا اذا كان الامام في ضمن المجمعين . حتى لا تكون ضلالة من المجمعين بوجود المعصوم بينهم » •

ونسبة هذا القول الى مذهب الامامية تتنافى مع ما ذكروه في الاصول عند بحث الاجماع . لان اضافته الى المذهب تشعر باتفاق كلمتهم عليه ، مع ان فقهاء الامامية بعد ان اتفقوا على العمل بالاجماع اختلفوا في المدرك لاعتباره وسبب حجته ، فمن قائل بان السبب هو دخول شخص الامام بالذات في المجمعين ، وحكي هذا القول عن السيد

المرتضى ، ومنهم من قال بانه قاعدة اللطف ، اي ان اجماع الكل يدل على ان المجمع عليه هو حكم الله والا وجب على الامام ان يوجد ما يرجعهم عنه ، فكما ان سكوت الشارع عن عمل وقع بمرأى منه يعد اقرارا له ، كذلك سكوته عن المجمعين يعد اقرارا لما اجمعوا عليه ، وبالحقيقة ان هذا عمل بما رواه السنة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تجتمع امتي على ضلالة او خطأ » مع ان الشيعة لا يثقون بهذا الحديث ، وقيل بان سبب العمل بالاجماع هو الظن القوي القريب عن القطع ، تماما كالحديث المتواتر ، وقيل بان الاجماع يكشف عن وجود دليل صحيح عند المجمعين ظهر لهم ، وخفي علينا ، وقيل غير ذلك .

ومن هنا يتبين التسامح في نسبة القول الى المذهب[1] بقول مطلق ؛ لان اختلاف اهل المذهب ينفي النسبة الى المذهب ، كما هو معلوم .

وعلى اية حال فان في الاجماع قولا من اربعة او خمسة اقوال ، اما في التواتر فلا قائل بانه لايكون حجة الا اذا كان المعصوم فيه ، كما جاء في الكتاب ص ٣٩ ،حيث قال المؤلف ما نصه بالحرف الواحد : « فالتواتر لا يعد تواترا مأمون التواطؤ على الكذب صحيح النقل لاحكام الدين الا اذا كان المعصوم فيه » .

لقد اتفق علماء الامامية على ان التواتر هو خبر جماعة بلغوا من الكثرة حدا يحصل العلم من اخبارهم ، لامتناع اتفاقهم وتواطئهم على الكذب عادة ، والتقيد بلفظ « عادة » يخرج المعصوم قهرا ، لان الكذب يمتنع عليه دينا لاعادة في عقيدة الامامية ، على انهم نصوا صراحة على انه

---

(١) رسائل الشيخ الانصاري ، وكفاية الشيخ كاظم الخراساني ، وحاشيه الاصفهاني . وتقريرات الخراساني للمرزا النائيني باب الاجماع ، وقد توفى النائيني سنة ١٩٣٦ . وكان مرجعا في الاصول لكبار العلماء والاساتذة العظماء ، فالعلامة الكبير من تفهم أقواله ، واحاط بآرائه ، اما من دونها واذاعها فهو المجتهد المطلق . لذا تسابق الكبار الى كتابة بحوثه وطبعها في كتب مستقلة ، منها تقريرات الخوئي ، وتقريرات الخراساني ، وتقريرات الخونساري .

اذا كان في الرواة معصوم لا يكون الحديث متواترا في الاصطلاح ، وان افاد العلم[1] .

٣ ــ قال المؤلف في ص ٣٩ : « ومعاني القرآن لا يمكن ان تكون مستقيمة ــ اي عندالشيعةــالا اذا كانت بتعليم الامام وارشاده ، فهو المفسر للقرآن المبين لمعانيه » .

وفي كتب اصول الفقه الجعفري فصل بعنوان « حجية الظواهر الالفاظ » صرح فيه الاصوليون بانه يجب العمل بما دل عليه ظاهر اللفظ اي لفظ ، سواء اكان في القرآن ام في السنة ام الصكوك الرسمية ام العادية ام في الخطابات الشفهية ام الكتب والرسائل . قال النائيني في تقريرات الخراساني : « لا اشكال في اعتبار الظواهر من غير فرق بين ظواهر كلام الشارع وغيره ، ومن غير فرق بين ظواهر الكتاب العزيز وغيره ، وان نسب الى الاخباريين عدم جواز العمل بظاهر الكتاب العزيز » . وقال الشيخ كاظم في الكفاية المقررة للتدريس : « لا شبهة في لزوم اتباع ظاهر كلام الشارع ، ولا فرق في ذلك بين الكتاب المبين واحاديث سيد المرسلين والائمة الطاهرين ، وان ذهب بعض الاصحاب ــ اي الاخباريين ــ الى عدم حجية ظاهر الكتاب » . ومن جملة الردود التي ردوا بها على الاخباريين سيرة العقلاء واوامر القرآن التي حثت على التمسك به « افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها » . وانه لولا الاخذ بالكتاب ما كان لله على الناس حجة بكتابه الكريم ، هذا الى ان للشيعة كتبا عديدة في التفسير ، واول شيء يعتمدون عليه ظاهر الآيات ، فيذكرون المعنى الذي يتحمله الظاهر ، واذا استشهدوا بحديث فانما يفعلون ذلك كما يفعل سائر المفسرين من السنة دون فرق .

---

(١) كتاب القوانين للمحقق القمي ج ١ ص ٤٢٠ طبعة سنة ١٢١٥ هـ ، وكتاب مقباس الهداية في علم الدراية للشيخ عبدالله المامقاني ص ٨ طبعة سنة ١٢٤٥ هـ . وقال في ص ١٤ ، لقد اجاد من قال بأن نسبة وجود الامام في التواتر الى الشيعة افتراء أو اشتباه .

العقـــل :

٤ ـ وقال في ص ٧١ : « المستفاد من الشيعة العقل اصلا رابعا من مصادر الفقه يؤخذ منه ان العقل في غير مورد النص او الاجماع يكون مناط التكليف » .

مصادر الفقه عند الشيعة ، كما قال المؤلف : الكتاب والسنة والاجماع والعقل ، وان العقل يكون حجة مع عدم النص والاجماع ، ولكن القول بان العقل من مصادر الفقه يحتاج الى تفسير وتحديد ، لانه متشعب النواحي والجهات فاذا ، اطلقنا ولم نحدد ذهب كل الى ناحية ، وبهذا تكون الفوضى والخلافات التي لا ترجع الى قياس ، اذن علينا ان نذكر الاحكام العقلية التي بسببها اعتبرنا العقل اصلا من اصول الفقه .

وليس من شك ان للعقل احكاما يستقل بها ، ولو عزل عن الحكم لهدم اساس الشريعة ، كما قال النائيني ، غير ان العقل لا يتعرض للتفاصيل والاشياء الخارجية ، ولا يتخذ منها موضوعات لاحكامه ، وانما يحكم بامور كلية عامة ، فهو ـ مثلا ـ لا يحكم بوجوب الصوم والصلاة وانما يحكم باطاعة الشارع ، وامتثال اوامره التي منها الامر بالصوم والصلاة ، وهو لا يتعرض للبيع والاجارة ، والزواج والطلاق ، بل يقر كل ما يصلح الجميع ، ويحفظ النظام العام ، وهو لا يحلل هذا ويحرم ذاك ، وانما يحكم بقبح العقاب فلا بيان ، وبوجوب دفع الضرر عن النفس ، وبحرمة ادخاله على الغير ، يحكم العقل بهذه الكليات العامة ، وما اليها حكما مستقلا ، ونحن نكتشفها ونطبقها على مواردها دون اية واسطة ، اما ما جاء في لسان الشرع من الاحكام في الموارد التي استقل العقل بها فمحمول على الارشاد والتأكيد لحكم العقل ، لا على التأسيس والتجديد . ومن هذه الموارد .

الاحتيـــــاط :

اذا علم المكلف بوجود تكليف شرعي الزمه العقل بالاطاعة والامتثال، واوجب عليه ان يعلم بامتثال التكليف على وجهه والخروج مــن عهدته ، كما علم بوجوده ، وهــذا معنى قولهم : « العلم باشتغال الذمة يستدعي العلم بفراغها » . ثم ان المكلف تارة يعلم المكلف به بالذات ، كما لو تيقنت انك لم تصل العشاء ـــ مثلا ـــ فتكتفي بالاتيان بها فقط ، واخرى يعلم نوع التكليف ، ويتردد المكلف به بين امرين متباينين ، كما لو كان لديك اناءان : احدهما طاهر ، والآخر نجس ، ولم تستطـع التمييز بينهما ، او تيقنت انه قد فاتك فرض العشاء او المغرب ، وفي مثل هذه الحــال يحكم العقل بوجوب الاحتياط ، باجتناب الاناءين معا في المثــال الاول ، وبفعل الصلاتين في المثــال الثاني . لان العلم بوجــود التكليف يستدعي العلـم بالخروج عن عهدته ، وفراغ الذمة منه ، فالشرع قال لك : اجتنب النجس ، واقض ما فات من الصلاة ، والعقل قال لك : امتثل ، وبما ان موافقة الشرع لا تكون الا بالاحتياط وجب عليك ان تأتي بجميع الاحتمالات ، حتى تكون على يقين من الخروج عــن المسئولية . ومن اجــل حكم العقل بوجوب الاطاعة تكلم الاصوليون مطولا عن الاحتياط ، وعقدوا له فصلا مستقلا في اصول الفقه العقلية بعنوان ـــ الاشتغال ـــ ذكروا فيه كل ما يمت الى تحقق الامتثال بسبب ، كتعلم الاحكام الشرعية ونحوها .

البـــــراءة :

اذا عرضت للفقيه قضية لا يعرف حكمها ، وهل يجب عليــه الفعل او الترك ، او يجوز الامران ، كشرب التبغ ـــ مثلا ـــ وجب عليه ان يبحث عن الحكم في مظان وجوده من الكتاب والسنة واقــوال العلماء ، فاذا لم تسعفه النصوص التجأ الى العقــل ، وهو يحكــم بقبح المؤاخذة وعدم استحقاق العقاب على الفعل او على الترك ، لعدم وصول البيــان ، سواء

اصدر من الشارع ، ولم يصل الى الفقيه ، ام لم يصدر اصلا ، واستنادا الى حكم العقل هذا يفتي الفقيه بجواز الفعل والترك ، وقد جاء في الشرع ما يعزز هذا الحكم ، كقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . وكقول الرسوم الاعظم : « رفع عن امتي ما لا يعلمـون » ، بـل ورد في الشرع ما يدل على الاباحة والطهارة فيما لا نص فيه كقول الامام : « كل شيء لك حلال حتى تعلم انـه حرام .. وكل شيء طاهر حتى تعلم انـه نجس » . وقـد عقد الاصوليون بابا خاصا للبراءة نبهوا فيـه الى اشياء كثيرة تتصل بقاعدة قبح العقاب بلا بيان ، وذهب الاخباريون الى وجوب الاحتياط فيما لا نص عليه . وعلى اية حال فان مورد البراءة هو الشك في اصل وجود التكليف ، ومورد الاحتياط هو الشك في المكلف به بعد العلم بوجود التكليف .

دفـع الضرر :

كما يحكم العقل بقبح العقاب بلا بيـان يحكم ايضا بوجوب دفـع الضرر ، سواء اكان الضرر دنيويا كالنقص في النفس والحـال ، ام اخرويا كالعقاب علـى مخالفة امر الشرع ، وقـال السيد محسن الحكيم في كتابه حقائق الاصول ج ٢ ص ١٤٨ : « ان وجوب دفع الضرر ليس من احكام العقل ، وانما هو مـن احكام الفطرة التـي فطرت عليها النفوس ، حتى الحيوانات فانها تنفر مـن الضرر ، وتسعى الى النفـع دون توسط حكم العقل بالحسن والقبح » . غـير ان الاصوليين لم يخصصوا لهذه القاعدة فصلا مستقلا ، وانما تكلموا عنهـا استطرادا في باب الظن والاحتيـاط والبراءة . وتتلخص اقوالهـم بان الضرر اما ان يكـون دنيويا ، واما ان يكون اخرويا ، وكل منهما اما ان يكون معلوم الوقوع ، واما مظنونا واما محتملا ، فالضرر المعلوم يحكم العقل بوجوب دفعه مهما كـان نوعه ، اما الظنون والمحتمل فان كان اخرويا ، وكان ناشئا عن العلم بوجود التكليف

والشك في المكلف به فهو واجب الدفع ، لانه يعـود الى وجوب الاطاعة فيدخل في باب الاحتياط ، وان كان الخوف من الضرر الاخروي ناشئا من الشك في اصل وجود التكليف فالعقـل لا يحكم بوجوب الدفـع لوجود المؤمن العقلي ، وهو قبح العقاب بلا بيان ، اي ان عـدم البيان امان مـن العقاب ، ويدخل في باب البراءة ، اما الضرر الدنيوي المظنون والمحتمل فان العقل يحكم بوجوب دفعه ؛ كالمعلوم ، لان الاقدام علـى ما لا يؤمن معه الضرر قبيح عقلا ، مثلا ــ اذا تردد سائل موجود في اناء بين كونه ماءا او سما يحكم العقل بوجوب الاجتناب عنه •

وعلى اية حال فان الضرر الدنيوي يحكم العقل بوجوب الابتعاد عنه معلوما كان او مظنونا او محتملا ؛ اما الاخروي فيجب دفعه عقلا اذا كان مسببا عن الشك في المكلف به بعـد العلم بالتكليف ، ولا يجب دفعه ان نشأ عن الشك في اصل وجود التكلف ، او قل في مثل هذه الحال لا نحتمل وجود الضرر كلية لقبح العقاب بلا بيان :

ومما تقدم يتبين ان العقل يحكم مستقلا وبداهة بوجوب اطاعة الله والرسول ، وبقبح العقاب بلا بيـان ، وبوجوب دفـع الضرر الدنيوي في جميع الحالات ، والاخروي مع عدم وجود المؤمن ، ومن اجل هذه الاحكام اعتبروا الشيعة العقل اصلا من اصول الفقه •

وبالتالي ، فان ما ذكرته عن حكم العقـل لا يعدو ان يكـون اشارة عابرة الى مبادىء عامة ، وقد تكلم عنـه الاصوليون في مجلدات ضخمة واني ارشد من يحب الاطـلاع والتفصيل الى الجزء الثاني مـن تقريرات الخراساني للمرزا النائيني •

القـــرآن :

٥ ــ وتكلم المؤلف عـن القرآن الكريـم ؛ وتمسك الشيعة بـه ، وتعظيمهم له ، وانـه المصدر الاول عندهـم للاصول والفروع ، واصاب

كبد الحقيقة بقوله : « لقد رووا روايات عن الامام جعفر الصادق نقطع بكذبها عليه تفيد نقصا في بعض آي القرآن ••• وان العلية من علماء الامامية ضعفوا هذه الروايات المنسوبة الى بعض آل البيت » • ونحن نقطع ايضا بان العلية من علماء السنة قد تبرءوا ممن شذ منهم • وقال بان النقصان حاصل من بعض آي القرآن ، كما نقل احمد بن حنبل في الجزء الخامس من مستنده ، وابن الاثير الجزري في جامع الاصول ، والسيوطي في الاتقان[1] • ونشكر المؤلف على انصافه ، حيث نفى القول بالنقصان عن مذهب الامامية ، ولكن يحق لنا ان نعتب ـ كما اظن ـ لانه اعتمد ، وهو يتكلم عن القرآن عند الشيعة ، على تفسير الصافي ، وتفسير علي بن ابراهيم القمي ، وكان من نتيجة ذلك ان نسب الامامية القول بانهم يسعون عن تفسير القرآن : « من لا يقتدي بائمتهم ، ولا تكون افكاره ومنازعه متجهة اليهم ، وقلبه قد تشبع بحبهم » • ولا ادري لماذا لم يعتمد المؤلف على تفسير مجمع البيان ، مع انه اعرف واشهر واكثر تداولا ، واجود طباعة وصاحبه الشيخ الطبرسي قدوة عند الامامية في التفسير ، وقد قال في مقدمة المجمع : ان تفسير ظاهر القرآن جائز لكل من عرف العربية والاعراب ، ورد الحديث الذي رواه السنة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، « من فسر القرآن برأيه فأصاب فقد اخطأ » • رده بقوله ان معناه ان صح : ان من فسره على رأيه بغير شاهد من كلمات القرآن ، او ان معناه من فسر مثل آية : « اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » • فعين اعيان الصلاة واعداد ركعاتها ، ومقادير النصب في الزكاة من غير بيان الرسول الاعظم •

وقد اشرنا فيما سبق الى ان الاصوليين من الامامية لا يفرقون بين ظاهر الكتاب العزيز وغيره ، وهم جمهور الامامية والاكثرية الغالبة ، وعليهم وحدهم المعول لمعرفة المذهب ، وهم لا يعترفون بتفسير الصافي ،

(١) نقلا عن الجزء الاول من اعيان الشيعة للسيد محسن الامين •

ولا بتفسير القمي ، وبخاصة فيما ذهبا اليه من عدم الاخذ بظاهر القرآن ، وما نقلاه مما يشعر بالغلو ، وتلك اقوال الاصوليين وآراؤهم صريحة واضحة في كتب الاصول التي عددناها ، وهي المصدر الى معرفة الواقع فليرجع اليها من اراد .

الحديث :

٦ ــ وتكلم عن الحديث ، واسلام الراوي وعدالته . وقال عند الكلام عن شرط الاسلام ص ١٤٠ : « يستخلص من مجموع اقوال الشيعة انهم لا يقبلون احاديث العامة التي تتصل مباشرة بالنبي ، بل لا بد من توسط احد من آل البيت ، وانهم لا يقبلون رواية غير الامامي الا اذا وجدت قرينة ترجح صدق روايته ، ومن جملة القرائن وجود غير الامامي متوسطا بين راويين كلاهما امامي » .

واني اؤكد للشيخ الجليل انه لا يصح بحال نسبة هذا القول الى مذهب الامامية ، لان اكثر المحققين من علمائهم ، وبخاصة المتأخرين لا يقرونه ولا يعترفون به ، وتلك كلماتهم صريحة واضحة بانه لو كان في السند الف راو امين ، وواحد كاذب يكون الخبر ضعيفا ، لانه يتبع السند الاخس ، تماما كالنتيجة ، حيث تتبع دائما اخس المقدمات واضعفها ، وعلى مبدئهم هذا يكون الحديث الذي يرويه السني منفردا كالحديث الذي يرويه السني والشيعي بدون فرق ، اجل ، ان القرائن على الصدق لا بد منها ، لان المهم عندهم هو الصدق وليس التسنن او التشيع . لذا قال المرزا النائيني في تقريرات الخراساني باب التعارض : « ان المراد بالاصدق والاوثق في الرواية : الاوثق في النقل ضرورة انه ليس كل صفة في الراوي ترجح روايته ، فان الورع والتقوى والمواظبة على اداء الفرائض والسنن لا دخل لها في نقل الرواية . اذ ربما يكون الفاسق اضبط واتقن في نقل الحديث من العادل ، فالاعدل والاورع بمعنى الزهد في الدنيا غير مراد ،

بل المراد به الاعدلي في نقل الاحاديث » • وليس ببعيد ان يكون اشتراط ضم الامامي الى غير الامامي جوابا ورد فعل من فقيه امامي لقول من قال من السنة بان الشرط لصحة الحديث الا تكــون فيه رائحة التشيع ، وان شهادة الشيعي لا تقبل •

لقد كان في الفقهاء القدامى من يتكلم عن الدين بدافع التعصب الذي فرضته عليه ظروفه وتربيته ، وفضيلة الشيخ ابي زهرة اعرف الناس بهذه الحقيقة ، وما لنا ومن تقدم ، فان ظروفنا غير ظروفهم ، وبيئتنا غير بيئتهم ، فعلينا ان تتجرد للحق ، ونأخذ بجوهر الدين ، ولا نعتمد الا على نصوص الكتاب والسنة وحكم العقل ، وهي بكاملها جملة وتفصيلا لا توجب علينا شيئا سوى التثبت مما ننقله او ينقل الينا ، كي لا نصيب احدا بجهالة ، ان الاسلام لا يشترط ان يكون الراوي سنيا او شيعيا ، بــل امينا ، وكفى ، وهذا ما عليــه علماء الامامية المتأخرون ، ونقلته في كتابــي « مع الشيعة الامامية » ، واوضحه اخــي الفاضل المنصف الشيخ محمد المدني في مجلة رسالة الاسلام العدد الرابع من السنة الثامنة ، وقد اطال علماء الاصول في هذا العصر الكلام عن الخبر الواحد في الكتب المقررة للتدريس وغيرها ، ولم يعتبروا اي شرط في الراوي غير الوثوق ، واستدلوا على الاخذ بحديث الثقة بان العقلاء يعتمدون على خبره في جميع امورهم ، ويتخذونه طريقة لاطاعة الاوامر التي يلتزمونها ، وطريقة العقلاء والعرف حجة متبعــة ما لم يثبت النهي عنها من الشرع •

بل وردت نصوص من الكتاب والسنة[1] تؤكد طريقة العقلاء هذه ، وبديهة انهم ، وهم الحجة والمستند ، لا يفرقون بين رواية السني ورواية الشيعي ما دام الراوي ثقة في النقل •

على ان البحث عن سند الحديث لم يبق له موضــوع عنــد الشيعة

---

(١) الجزء السادس من الكفاية للخراساني ، ورسائل الشيخ الانصاري ، وهذان الكتابان مقرران لتدريس الصفوف العالية ، وتقريرات الميرزا النائيني وفيها ما في الحاشية وزيادة •

اليوم ، لان كل المحققين من علمائهم ، او جلهم لا يعملــون بالحديث اي حديث الا اذا اشتهر العمل به بين الفقهاء القدامى ، فعملهم بالضعيف يجعله صحيحا ، واهمالهم للصحيح يجعله ضعيفا ، وليس هذا عن المنطق ببعيد ، لان الاوائل قد بحثوا ونقبوا عن كــل مــا يمت الى الدين والفقه بصلة ، ومحصوه وغربلوه ، حتى تميز السليم مــن السقيم فاذا اهملــوا حديث الثقة ، مــع علمنا بورعهم ومعرفتهم وقرب عهدهم مــن صاحب الشرع ، يكشف اهمالهم عن وجود قرينة في الواقع توجب ذلك ، اطلعوا عليها هم ، وخفيف علينا نحن ، واذا عملوا بحديث الضعيف يكشف عملهم عن وجود قرينة تدل على صدق الحديث في نفسه ، مــع صرف النظر عــن الراوي ، ويؤكد ما قلناه من ان البحث عن سند الخبر الواحد ليس له موضوع عند الشيعة الآن : ما قالــه الشيخ جعفر الكبير « المتوفي سنة ١٢٢٨ هـ » في كتابه « كاشف الغطاء » في البحث السادس والاربعين : « ينبغي للفقيه اذا حاول الاستدلال على مطلب من مطالب الفقه ان يتخذ الادلة الظنية مــن الاخبار وغيرها من الطرق الشرعية الظنية ذخــيرة لوقت الاضطرار وفقد المندوحة ، لانــه غالبا غني عنهــا بالآيات القرآنية ، والاخبــار المتواترة المعنوية ، والسيرة القطعية المتلقاة خلفا بعد سلف من زمان الحضرة النبوية والامامية الى يومنا هذا ، وليس مذهبنا اقل وضوحا مــن مذهب الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية فان لكل طائفة طريقــة مستمرة يتوارثونها صاغرا بعد كابر ، حتى اهل الملل من غير المسلمين علــى بعد عهدهم عن انبيائهم الماضين لهم طرائــق وسير يمشون فيها علــى الاثر » وهذا عين ما ذهب اليه المتأخرون ، فانهم يعتمدون اولا وقبل كــل شيء على القرآن الكريــم والحديث المتواتر والسير القطعية[1] ويرون بها غنى عــن الخبر

---

(١) الفرق بين السيرة وبين طريقة العقلاء : أن السيرة هي عمل المسلمين فقط بما أنهم مسلمون ، أي يعملونه بدافع العقيدة الدينية وعلى أنه من الدين ، أما طريقة العقلاء فهي عملهم بما هم عقلاء سواء أكان لهم ملة ودين أم لم يكن .

الواحد ، ولا يلجأون اليه الا عند الضرورة .

وبالاجمال ان اصول الفقه الجعفري الذي يدرس اليـوم في النجف وايران ، والذي عليه العمدة في تفهم الاحكام من مصادرها غيره بالامس ، وقبل عهد الشيخ مرتضى الانصاري المجدد « المتوفي سنة ١٢٨١ هـ » انه جديد بكل ما في هذا اللفظ من معنى ، انه ثمرة طيبـة يانعة لمئات جهود العقول الجبارة ، اما الاصول القديمة ، اما اصول التهذيب والعدة والمعالم فهي نقطة المبدأ ، والعلامة التـي نصبها الاقدمون في طريـق الانصاري والاخوند والنائيني صاحب التقريرات . وارجو فضيلة الشيخ المؤلف ان يراجـع هـذه التقريرات الجزء الاول في الاصول اللفظيـة ، والثاني في الاصول العقلية ، فان فيها جميـع المباحث والنظريات الحديثة والتحقيق والتدقيق ، وكل ما في كتب التدريس وزيادة . وصاحبها مـن علماء هذا القرن ، وموضع الثقة والتقديس لدى الجميع ، وكان مرجعا اعلى للامامية.

اكتفي بهذه اللمحات ، لاني اكتب مقالا ، ولست اصنع كتابا ، وان كان الموضوع يتسع لمجلد ضخم ، اذا اردت ان اتعرض الى المطالب التي حواها كتـاب اصول الفقه الجعفري . واقارن بـين الاصول الجديـدة والقديمة عند الامامية ، واود لو ان مقالي هذا يكـون باعثا للراغبين في معرفة اصول الفقه الجعفري ان يرجعوا الى ما الفه علماؤهم في هذا القرن ، لا الى كتب بدائية وضعت في القرون الماضية .

نحن نعلم ان الاستاذ الجليـل « الشيخ ابو زهرة » قد تكلف عناء كبيرا ، وبذل جهودا لا تحد ، حتى كتب ما كتب في اصول الفقه الجعفري ، ونعلم انه يحتاج الى عناء اكبر ، وجهد اكثر اذا رجع الى كتاب التقريرات للنائيني ، والكتب المقررة للتدريس كالكفاية والرسائل ، بالنظر الى تعقيد عباراتها ، ورداءة طباعتها ، وسوء اخراجهـا ، ولكننا نعلم ايضا ان مـن صفات العـالم ، وبخاصة اذا كـان في منزلة الشيخ « ابو زهرة » الصبر والجلد ، وقـد رأينا المستشرقـين ، والاجانب المستعربين كيف يثابرون

ويواصلون البحث سنين عديدة ، ويقطعون الآفاق ، ليطلعوا على اشياء من عقيدتنا وتراثنا ، فبالاولى ان نبذل نحن الجهود لمعرفة ما في بيتنا وداخلنا ، واذا كان للستقدم من عذر فان همة الشيخ الجليل « ابو زهرة » العالية ، ومكانته العلمية تجعله في طليعة المسئولين .

واخيرا ، فاني اتقدم بالشكر الجزيل الى فضيلة الشيخ الكبير على كتابه هذا . وعلى سائر مؤلفاته القيمة ، فقد اضاف الى التراث الاسلامي كنوزا جديدة . وزاد الثقافة الاسلامية قوة وخصوبة ، ويسرها لكل طالب وراغب .

الاستحسان واثاره في الفقه الجعفري*

القضايا الدينية

تنقسم القضايا الدينية الى اصول وفروع ، والاولى قلبية اعتقادية ، كالايمان بالله والرسول واليوم الآخر والثانية جسدية عمليـة . كالصوم والصلاة ، والقاسم المشترك بينهما الايمان والتدين بما جاء بـه الرسول الاعظم (ص) .

وان قال قائل : واي جامع بين ايمان الجوانح وعمل الجوارح ؟

قلنا في جوابه : ان العمل بـدون ايمان ليس مـن الدين في شيء ، فالامساك والركوع والسجود والطواف بدون الايمان لا يسمى عبـادة ، وهذا الايمان كاف لتصوير القدر المشترك ، ويعززه ان الترك تهـاونا لا يضر في اصل الدين والعقيدة .

المصـــــدر

وقد وضع علم الكلام لمعرفة العقـائد ، وعلم الفقه واصولـه لمعرفة الفروع والاحكام العملية ، وفي كل منهما نستخدم طريقة الاستنباط التي تنتقل بنا من قضايا معلومة الى حقائق مجهولة ، والفرق بينهما ان العقائد تستند الى العقل مباشرة ، كحكمه بوجـود مدبر حكيم وراء المادة ، او بالواسطة ، كالاستناد الى القرآن والسنة اللذيـن حكم العقل بصدقهما وتنزيههما عن الشبهات والاخطاء ، امـا مصدر الفقه فهو الكتاب والسنة لا غير .

ان قلت : واين الاجماع والعقل ، وقد اتفقوا كلمة واحدة على انهما من مصادر التشريع ؟ !

---

* نشرت في مجلة النجف ٦١/١٢/٢٠ .

قلت : اولا : لا يستدل على الاجماع بالاجماع ، وثانيا ٠ اقرأ اقوال الشيخ الانصاري في الرسائل ، لتعلم مكان الاجماع ، حتى مـا كنا نألفه ونردده : « الاجماع المنقول ليس بحجة ٠ والمحصل غير حاصل » ذهب مع الريح بعد هذا الشيخ العظيم ، حيث اسقط الاجماع المحصل اذا علم او ظن او احتمل انه استند الى هذه القاعدة او ذاك الحديث ، لان الاحتمال لا يجتمع مع العلم بالكشف عن رأي المعصوم ، حتى مع عدم العلم وعدم الاحتمال لا يكون الاجماع قسيما للسنة ، بل قسما منها لثبوتها به تماما كالخبر الواحد والمتواتر ٠

اما العقـل فلا شأن له الا الحكم بالطاعة[1] ، وامتثـال ما ثبت في الشرع عن طريقه الصحيح ولسنا بحاجة الى احكامه فيما عدا ذلك ، حتى حكمه بحسن الصدق النافع ، وقبح الكذب الضار ، وحتى البراءة العقلية ، وما اليها ، لان الكتاب والسنة كافيان وافيان ولو من باب الارشاد ٠

ومن هذا التمهيـد ندرك لماذا : رفض علماء الامامية الاستحسانات والتعليلات « العندية » ولم يعتمدوا عليها لاثبات حكم من احكام الشرع ، ولكن بعد ان قرروا هذا بالاتفاق واثبتـوه « علميا » تنكر له بعضهـم « عمليا » ، وشرعوا في مرحلة الاستنباط والتطبيق يستحسنون ، ويعللون بامور لا تمت الى الكتاب والسنة بسبب ٠ واليك الامثلة :

السفيـــه :

١ ــ قال البعض : ان الحجر على السفيه يبتدىء مـن تاريخ حكم الحاكم بالسفه لا مـن وقت ظهوره ومـن ادلته : « ان السفه امر خفي والانظار تختلف ، فناسب كونه منوطا بنظر الحاكم » (المسالك باب الحجر)

---

(١) النجف وله شأن الحكم في الامور الضرورية وفيما تطابقت عليه آراء العقلاء التي تعد من الآراء المحمودة فيستكشف منه الحكم الشرعي ٠

وهذا اثبات للحكم الشرعي من غير مصدره[1] .

الغـــــاصب

٢ ــ اذا تلفت العـــين المغصوبة ، فعلى الغاصب ضمانها بالمثــل او القيمة ، وقال بعضهم : يضمن باعلى القيم من يوم الغصب ويوم التلف ، واستدل بادلة منها « انه يناسب التغليظ على الغاصب الذي يؤخذ باشق الاحوال » (الجواهر باب الغصب) وهذا هو الاستحسان بالذات[2] .

نفقة الحامل

٣ ــ اختلف الفقهاء في نفقة الحامل المعتدة من طلاق خلعي . هل هي للحمل او للحامل ؟ . وقال جماعة : انها للحمل مستدلين بادلة منها : « ان الزوجية قد انتفت بالطــلاق ، فلم يبق الا القرابــة .. واذا وجبت النفقة للقريب المنفصل عن بطن امه فكذا تجب له متصلا بهــا » (الجواهر باب الزواج فصل النفقات) وعقب شيخ الجواهر رحمه الله على هــذا بقوله : « وهو كما ترى من المضحكات » .. على ان النزاع في ان النفقة للحمل او للحامل لا مجال له بعدقوله تعالى : « وان كن اولات حمل فانفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » الشامل للبائنـــات والرجعيات . والغريب ان يذهب اكثر الفقهاء الى ان النفقة للحمل ، كما عن الحدائق[3] .

النيابة عن الميت

٤ ــ اتفقوا علـــى انه لا نص خاص ولا عـــام على جواز الاستئجار للصلاة عن الميت ، ومع ذلك اجازه المتأخرون ، وعلله بعضهم بدفع الضرر

---

(١) النجف هذا من باب عدم جواز اثبات الحكم من دون مستند شرعي . لان اثبات الحجر على السفيه لا مستند له حسب الفرض الا حكم الحاكم فلا بد أن يناط بحكمه .

(٢) النجف هذا من باب تطبيق القاعدة المستفادة في الدليل من أن الغاصب يؤخذ باشق الاحوال .

(٣) النجف لا غرابة عن ذلك اذا كانوا فهموا من الآية ذلك من جهة اناطة النفقة بالحمل . ولو شك أن دخل الوصف في الموضوع مشعر بعليته للحكم .

المحتمل وتفريغ ذمة الميت ، وهـذا مجرد استحسان لا يثبت به تشريع العبادة[1] ، ومثله التمسك بعمومات صحة العقد لا يثبت التشريع ، تماما كما لا تثبت قابلية العين للنقل والانتقال وانتفاء الوقف . اما العرف فلا شأن له في العبادات كي يرجع اليه في احراز القابلية ، كما اعتمد عليه في المستمسك ج ٥ ص ٦٤ طبعة اولى .

ولا حاجة بنا الى المزيد من الامثلة والشواهد للتدليل على ما قصدنا اليه من ان علينا ، ونحن القائلون بفتح باب الاجتهاد ، ان نحاكم اقوال القدامى والجدد على نفس الاصول المسلم بها عندهم وعندنا ، ولا نأخذ شيئا من اقوالهم اخذ المسلمات ما دمنا نعتقد ان كتاب الله وسنة الرسول هما الحكم والفصل ، والينبوع الاول الذي ينهل منه من يستطيع الوصول اليه ، وان اختلف الواردون ، فمنهم من يشرب حتى يرتوي ، ولا يحمل الماء معه لغيره ، وآخرون كالمراجع يحملونه الى العطاشى الذين يعجزون عن بلوغه .

والذي يهون الخطب ان هذا الاستحسان لم يكن مقصودا كدليل مستقل ، وانما هو اما تعزيز للدليل ، واما سبق لسان يترك ويهمل بعد التنبيه واعادة النظر ، ومهما يكن فلا بد ــ على اصول الجعفرية ــ من الحذر ومحاكمة كل قول لا تجب العصمة لصاحبه ، وان كان مرجع المراجع واستاذ الاساتذة ، والا كنا ومن يقول بسد باب الاجتهاد سواء .

ومرة ثانية نكرر ما قاله ابن رشد في كتاب « فصل المقال » .

علينا ان ننظر فيما قاله القدماء ، وما اثبتوه في كتبهم ، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم .

---

(١) تشريع اصل النيابة في العبادة ثابت في الشريعة الاسلامية .

الكتاب والسنة وكفى*

في العدد الثامن عشر من مجلة « النجف » الغراء تحدثت الى قرائها بعنوان « الاستحسان وآثاره في الفقه الجعفري » •

والقصد الذي هدفت اليه ان ابين ان العقل لا شأن له في الاحكام الشرعية الفرعية الا السمع والطاعة وقلت ما نصه بالحرف الواحد : « اما مصدر الفقه فهــو الكتاب والسنة لا غير » • ثــم قلت : « لان الكتاب والسنة كافيان وافيان » • واوردت امثلة من كتب الفقه عللها بعض الفقهاء باستحسانات عقلية ، مع اعترافهم بأن هذه الاستحسانات لا يعول عليها في ميدان التشريع •

وعلقت مجلة « النجف » على الامثلة محاولة اخراجها مــن هــذا الميدان ، وبالرغم من تقديري للتعليق ، واحترامي لكاتبه فقد تمنيت لو ناقش اصل الفكرة التي قصدت اليها ، وهــي ان (العقل لا شأن له في الاحكام الشرعية) لان ذلك اولى واجدى من النقاش في الامثلة ، بخاصة ان فئة كبيرة ــ اليوم ــ تحاول ارجاع كل شي ءالى العقل ، حتى رمي الجمار ، وعدد الركعات •• ومهما يكن فقد اتاح لي التعليق ان اعود الى الموضوع مرة ثانية ، فألف شكر لمن اعادني الى حديث العلم الذي لا يعاد له شيء في هذه الحياة بخاصة فقه آل البيت (ع) •

الاحكام الشرعية

ان معنى اتصاف الاحكام بالشرعية انه لا مصدر لها الا الشارع ، ولا يعول فيها على غيره ، سواء اكان ذلك الغير بناء العقلاء ، او سيرة الفقهاء ،

* نشرت في مجلة النجف ٦٢/٤/٢٤ •

حتى ولو كانت السيرة من الملتزمين بالشريعة والمتدينين بها ، اللهم الا اذا اذن الشارع ورخص صراحة بالرجوع اليها ، وحينئذ تكون مصدرا شرعيا •

اما القول (من المستبعد جدا ، بل من المحال عادة استمرار سيرة المسلمين ، وعملهم على الشيء من عند انفسهم دون ان يكون ذلك بأمر الشارع ودستوره) اما هذا القول فمجرد حدس ، والحدس لا يعول عليه في الاحكام الشرعية بالاتفاق •

وان قال قائل : نستكشف رضى الشارع من عدم ردعه عن السيرة ، (والا كان عليه الردع ، واظهار الحق ، وازاحة الباطل) •

قلنا في جوابه : اذا استمرت السيرة الى زمنه ، وكانت بمرأى منه ومسمع ، ولم يردع عنها مع عدم المانع له من الردع يكون ذلك ، ولا ريب ، سنة للشارع ، لان السنة قول المعصوم وفعله وتقريره ، واذا رجع الى السنة تم ما قلناه من انه لا شيء وراء الكتاب والسنة ، وان لم يرجع اليها فليس بشيء •

اما بناء العقلاء وعملهم بما هم عقلاء لا بما هم اهل ملة ودين فينظر فان كان في تشخيص الموضوع وصدق العنوان يعمل به ، كما لو رأى العرف ا نهذه المعاملة الخاصة يصدق عليها عنوان البيع حقيقة ، فنتمسك حينئذ باطلاق (احل الله البيع) • ولكن هذا شيء ، واخذ الاحكام الشرعية من بناء العقلاء شيء آخر •

وان لم يرجع بناؤهم الى التشخيص وصدق العنوان ، كما لو فعلوا شيئا ، ولم نعلم حكمه في الشرع لعدم النص ، فيجوز لنا فعله لا اعتمادا على بناء العقلاء وطريقهم ، بل لحديث الرفع ، وحديث الناس في سعة ما لا يعلمون • اذن فأين الاعتماد على العقلاء في الاحكام الشرعية ؟ ! •

اقول هذا ، وادين به تلقائيا ، لانه يسير مع فطرة الله التي فطر الناس عليها بكل بساطة • اما ان العقل يكتشف بنفسه الحكم الشرعي او ان حكم الشرع ملازم لما حكم به العقل وما الى ذلك مما قاله الاصوليون في

هذا الباب فان لساني ينطق به مذاكرة مع الاخوان والاصحاب ، اما قلبي فلا يطمئن لشيء منه ما دمت على يقين بأنه لا مصدر لمعرفة الحكم الشرعي الا الشارع وحده ، وانه ليس للعقل الا الشهادة للشارع بالحق ، ووجوب الانقياد .

ودفعا لكل شبهة اصرح بوضوح انـي لا انكر ان للعقل احكاما مستقلة ، كيف ؟ ! وقد ذكرت في كلمتي المنشورة في مجلة « النجف » . (ان العقائد تستند الى العقل) وانما انكر كل الانكار ان يكون له اي دخل في تشريع الاحكام الشرعية وانشائها ، وبعد هذه الاشارة الموجزة اعود الى تعليق المجلة على الامثلة :

الامثلة والتعليق

١ ـ قلت في كلمتي الاولى : (اما العقل فلا شأن لـه في الاحكام الشرعية الا الطاعة) .

وقالت المجلة : وله شأن الحكم في الامور الضرورية ، وفيما تطابقت عليه آراء العقلاء ، فيستكشف منه الحكم الشرعي .

ولا ادري ماذا اراد المعلق من الامور الضرورية ؟ هل اراد ما كان من نوع الاكل والشرب والنوم وشم النسيم ، او ما كان من نوع تحريم الظلم والاعانة على الاثم ، والاول لا يحتاج الى بيان من الشرع ولا من غيره ، والثاني بينه الشارع ، واهتم به اكثر من جميع الاحكام الشرعية ، اما تطابق آراء العقلاء فان كانت لتشخيص الموضوعات فنعم ، وان كانت لمعرفة الاحكام فلا .

٢ ـ قلت : ان ضمان الغاصب بأعلى القيم ، لانـه يؤخذ بأشق الاحوال مجرد استحسان .

وقالت المجلة : ان هذا تطبيق للقاعدة المستفادة من الدليل ، وهي ان الغاصب يؤخذ بأشق الاحوال .

واعترف بأني لم اسمع بقاعدة (الغاصب يؤخذ بأشق الاحوال) .

٣ ــ قلت ان قول القائل : الحجر على السفيه يبتدىء من تاريخ حكم الحاكم معللا بأن السفه امر خفي استحسان محض .

وقالت المجلة : هذا من باب عدم جواز اثبات الحكم من دون مستند شرعي .

يجوز الحكم بعدم نفوذ تصرفات السفيه من تاريخ الحكم ، ويجوز ايضا من تاريخ تحقق السفه واقعا ودليل الحجر في الحالين واحد ، وهو الحكم به من تاريخ سابق او لاحق ، ولذا ذهب جماعة من الكبار ومنهم آية الله الحكيم الى الحجر من تاريخ الثبوت ، لا من تاريخ الاثبات .

٤ ــ قلت : لا نص خاص ولا عام على جواز الاستئجار للصلاة عن الميت .

وقالت المجلة : تشريع اصل النيابة في العبادة ثابت في الشريعة الاسلامية .

اجل ، انه ثبت التشريع في الحج ، وفي قضاء ولي الميت عن الميت ، وهذا اجنبي عن الاستئجار للصلاة . والقياس معلوم البطلان .

اما تعليق المجلة على نفقة الحامل المعتدة من طلاق خلعي فلم يكن بلسان الجزم ، بل جاء تعليقا معلقا .

وختاما الف شكر لمجلة النجف وصاحبها صديقي الكريم العلامة السيد هادي فياض الذي احترمه واكبره ، ومهما اختلفت معه فلا يتجاوز الاختلاف فيما بيننا وجهات النظر ، ولا يمكن ان يمتد الى الجوهر .

منهاج مدرسة النجف الاشرف

قرأت كلمة لاستاذنا الجليل حجة الاسلام الشيخ مرتضى آل ياسين نشرتها مجلة النجف الغراء في العدد السابع من السنة الاولى بعنوان التوسع بمنهاج مدرسة النجف الاشرف ، جاء فيها (ان الطالب في هذه المدرسة ـ اي مدرسة النجف ـ .. بحاجة ماسة الى اثارة شعوره بحاجة الدين الى كفاحه) وقد اوحت لي هذه الجملة بالكلمة التالية :

منذ ٢١ سنة تخرجت من مدرسة النجف وعدت الى بلادي جبل عامل ، وانا احمل معي احلاما ورؤى وايسانا بأن لي رسالتين او مهنتين الاولى الارشاد والتعليم ، وفصل الخصومات ، وما اليهما مما تستتبعه واجبات رجل الدين من اجراء عقود الزواج والشهادة على الطلاق والصلاة على الجنائز اما الثانية فتعود الى تقرير المصير ، مصيري انا خاصة : وهي ان ابتعد عن الحزبيات ، واسلك كل سبيل ـ الا سبيل الرياء ـ يبعث على الثقة بي علما وفضلا ، والاطمئنان الى دينا وخلقا .

ولكن لم يمض على مكوثي في عاملة بين المساكين سوى ايام حتى شبت في نفسي نار الثورة على الاوضاع الفاسدة : ونسيت كل شيء حتى مصيري الا شيئا واحدا ، وهو ان ابصر الناس بحقوقهم وواجباتهم ، وابث فيهم روح الشجاعة والاقدام على تحطيم القيود والاغلال التي تقف في طريق حياتهم الدينية والدنيوية لا يصرفني عن ذلك خوف على عيش او منصب لقد ادركت انه لا فائدة من التعليم والارشاد . ولا جدوى من الدين والفلسفة الا في مجتمع صالح يسوده العدل والسلم والرخاء ادركت ان الاصلاح يجب ان يبدأ من الجذور لا من الفروع والاصدق قول من قال :

القاه في اليم مكتوفا وقال له   اياك اياك ان تبتل بالماء

ادركت ان علينا نحن رجال الدين ان نوجه همنا واهتمامنا لمحاربة الغش والخداع والتضليل ، وان نكون صريحين مع انفسنا ومع الناس ، ونتعاون مع جميع الفئات والافراد على كل ما يحقق جهة من جهات الخير ، ونعلن للملأ ان الدين شرع لصالح المجتمع وانه خاضع لمقاييس العقل ، وانه يعبر عن آلام الناس وآمالهم وبهذا يكون الدين قريبا من العقول ومحببا الى القلوب .

ومحال ان يحقق احدنا غاية ترضي الله والناس ما دام يرى ان الهدف من طلب العلم هو اظهار العلم والمقدرة والصخب والجدال في المجالس ، وعدم التسليم للخصم ولو كا نعلى الف حق وحق .. ان الله لا ينظر الى الاقوال والاشكال ، والناس لايهتمون بأن تفحم خصمك او يفحمك هو ، انهم لا يعتنون الا بما يتصل بحياتهم ، ويحقق حاجاتهم . والاسلام بحمد الله يؤدي وظيفة ارضية ، كما يؤدي وظيفة سماوية ، فلنسر مع المجتمع ، مع الركب ، وندعم مصالحه بقوةالدين ، ونصبها بقوالبه ، ونجعل الناس يرون الاسلام مجسما بالعمل النافع مع العقيدة السليمة .

ان الناس تثق باقوال الاطباء والمهندسين وارباب المهن لا لشيء الا لانهم ينتفعون بهم وبآرائهم ، فعلينا نحن ان نعمل ونجاهد لصالح الناس ومنفعتهم ليثقوا بنا وباقوالنا . ان الله ارسل الانبياء ومع كل نبي معجزة تلائم عصره ، وتثبت نبوته والمعجزة التي تصلح لهـذا العصر ، ويتقبلها الناس كافة هي التي تعبر عن اهدافهم ، وتكفل صلاحهم دنيا وآخرة . اذن فلنثبت لهم ان المعجزة معنا .

ان الحضارة الحديثة صرفت الناس عن الزهد والتقشف وابعدتهم عن كل ما هو اخروي ، واتجهت بهم الى المادة والدين يبارك المادة ، بل يسميها زينة الله ، ويحرم على اي انسان ان يمنع غيره من ممارستها والتمتع بها ما دامت غير متنافية مع العدالة والمساواة . ان الدين يبارك الطعام الجيد والكساء الجيد ، والمسكن الجيد ، والمركب الجيد ، اذا كان من حل ، بل

يبارك الملعب ، وشتى انواع الرياضة المفيدة جسمية كانت او روحية ، ان كل واحد من هذه فضيلة في نظر الدين كالصوم والصلاة على ان لا يتمتع بها الانسان على حساب غيره ويحرم من يشاركه في الانسانية من قسطه ونصيبه منها ، وبهذا الاسلوب نستطيع ان نفحم مصطفى محمود صاحب كتاب الله والانسان حيث قال : (لقد جربنا الصلاة على المذاهب الاربعة ولم يبق الا ان نجرب الطعام الجيد) .

نحن لا نستطيع ان نفرض الايمان على الناس فرضا وانما نقربهم منه بالحكمة والموعظة الحسنة .

الازهر وفقه الشيعة

نشرت « رسالة الاسلام » في العدد الرابع من السنة الحادية عشر لفضيلة الاخ العلامة الشيخ محمد محمد المدني عميد كلية الشريعة في الازهر ، ورئيس تحرير المجلة ، كلمة بعنوان « رجة البعث في كلية الشريعة » .

تكلم فيها عن اتجاه الازهر الى الاصلاح باستكمال ما كان ينقصه من تدريس الفقه المقارن بين المذاهب الاسلامية ، ورد على الذين يعارضون ، او لا يرحبون بادخال فقه الشيعة في كلية الشريعة ، فذكر مزاعمهم ، وفندها بالعلم والمنطق ، وهو اذ يناصر تدريس الفقه الشيعي بالازهر لا يفعل ذلك من اجل الشيعة ، ولا يروج لمذهب التشيع ، وانما يعمل من اجل الازهر نفسه ، ويخدم الاسلام قبل كل شيء .

ان الذي يعارض تدريس الفقه المقارن بالازهر لا يسيء الى الشيعة ، ولا الى النجف ، وانما يسيء الى الازهر بالذات ، وكيف يؤدي الازهر رسالة الاسلام اذا تعصب لمذهب ضد آخر ؟! وهل يقدر الازهر على توجيه الجماعة الاسلامية اذا جهل تراثها واعظم مقدساتها ؟ !

واذا وجد في الازهر او غير الازهر من لا يرحب بتدريس الفقه الشيعي في جامعته فنحن الشيعة نتمنى ان يكون الازهر موطن الثقافة العالمية ، لا تدريس الفقه المقارن فقط ، لانه يحمل شعار الاسلام ، ديننا وعقيدتنا ، وهذا لوحده كاف لان يحملنا على تقديسه وتعظيمه ، حتى ولو لم يدرس الفقه الجعفري ... بل ولو وجد فيه الف معارض والف معاند .

ومهما يكن فقد استوقفتني جملة في مقال الاخ المدني ، وهي « ان

الفقه المقارن هو الفقه على الحقيقة ، وهو صناعة الفقيه على الحقيقة ، اما الحافظ للفروع الذي لا يعرف الا سرد الاحكام ، فما ذاك بالفقيه » .

كلا ، انه « شريط » مسجل نطق بما سجل به من الفاظ ، فاذا سألته لماذا ؟ او ماذا تعني ؟ فكأنك تخاطب جمادا . اما الذي لا يكون لنفسه رأيا بمجرد السماع ، بل يتتبع جميع الآراء والاقوال ، وينظر الى ادلتها من غير تحيز ، ثم يؤمن بما تستدعيه المقاييس الصحيحة ، فذاك هو الحاكم العادل ، والفقيه المجتهد الذي يؤجر ان أصاب ، ويعذر ان اخطأ .

هذا الى ان دراسة الفقه المقارن تخلق في الطالب ملكة الاجتهاد والابداع ، وتوسع من مداركه ، وتعطيه قوة يدعم بها آراءه ، ويدافع عنها بالحجة الدامغة والبرهان القاطع . اجل ، ان الكسالى الذين يؤثرون النوم والقيل والقال على سهر الليالي والاشتغال يتذرعون بحجج او هي من عقولهم ، ويقولون : ما لنا وللاقوال وادلتها ؟! انها مضيعة للعمر ... وينسون او يتناسون ان ما من دليل ، وان ضعف الا ويفتح بابا من ابواب المعرفة ، او يذكرك بحقيقةحرفه عنها مرور الزمن ، او يمرنك على التفكير ، ويرشدك الى منهج التدليل . واستمع معي الآن الى الفقه المقارن واقوال الفقهاء في استخراج الاحكام من هذه الآية :

« وان كنتم مرضى او على سفر او جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فيتمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وايديكم ـ ٥ المائدة » .

ولست اعرف آية من آيات الاحكام كثرت فيها اقوال المذاهب ، بل اقوال المذهب الواحد كهذه الآية الكريمة . فقد اختلفوا فيمن يجب عليه التيمم مع فقد الماء : هل هو المريض والمسافر فقط ، او كل من فقد الماء ، حتى الحاضر الصحيح ؟ وهل المراد بالملامسة الجماع او ما يعم اللمس باليد ؟ وهل المراد بالماء خصوص المطلق او كل ماء حتى المضاف ؟ وهل المراد بالصعيد التراب فقط او وجه الارض ترابا كان او رملا او صخرا ؟

وهل المراد بالوجه كله او بعضه ؟ وهل المراد باليد الكف فقط ، او هي مع الذراع ؟ .

١ ــ قال ابو حنيفة : ان المسافر والمريض اللذين لم يجدا ماء يجب عليهما التيمم اما الحاضر الصحيح فلا يسوغ له التيمم مع فقد الماء ، وليس عليه صلاة (كتاب المغني لابن قدامة ج ١ ص ٢٤٣ الطبعة الثالثة . وكتاب بداية المجتهد لابن رشد ج ١ ص ٦٣ طبعة سنة ١٩٣٥) . اما الدليل الذي اعتمده الامام ابو حنيفةفظاهر الآية حيث دلت على ان مجرد فقد الماء لا يكفي لجواز التيمم ، بل اشترطت مع ذلك ان يكون في حالة السفر او المرض « فان كنتم مرضى او على سفر » .

وقال سائر المذاهب : على فاقد الماء ان يتيمم ويصلي مسافرا كان او حاضرا سليما ، او سقيما ، حيث تواتر الحديث عن الرسول بذلك ، والحديث مفسر ومبين للكتاب ، وخرجوا ذكر السفر في الآية مخرج الغالب، واذا حمل الوصف على الغالب انتفت دلالته عما عدا الموصوف . هذا ولو تم ما نقل عن الامام ابي حنيفة لكان المسافر والمريض أسوأ حالا من الحاضر الصحيح ، حيث يجب التيمم والصلاة عليهما . ولا يجب عليه .

٢ ــ فهم الشافعية من لامستم النساء المعنى العام حتى اللمس باليد ، ولكن خصصوه بالمرأة الاجنبية من غير حائل ، وقال الامامية : المراد باللمس في الآية الجماع ؛ لان العرب تطلق اللمس على المواقعة ، لان به يتوصل اليها ، كما يطلقون المطر على السماء .

٣ ــ قال الحنفية : يجوز الوضوء بالماء المضاف . لان معنى « فلم تجدوا ماء » اي ماء مضافا كان او مطلقا وعليه فمن كان عنده ماء مضاف لا يعد فاقدا للماء . وقالت بقية المذاهب : ان لفظ الماء ينصرف الى المطلق. فاذا قلت لصاحب المقهى آتني ماء ، فلا يأتيك بالعصير او « الكازوز » .

٤ ــ قال الحنفية وجماعة من الامامية : المراد من الصعيد في الآية التراب والرمل والصخر دون المعادن . وقالت الشافعية : المراد به الرمل

والتراب فقط ، ولا يعم الصخر • وقال الحنابلة وبعض الامامية : بل التراب فقط • وقال المالكية : الصعيد يشمل التراب والرمل والصخر والثلج والمعادن اذا لم تنقل من مقرها الا الذهب والفضة والجواهر •

٥ ــ قال الاربعة : المراد بالوجه جميع الوجه تماما كما في الوضوء • وقال الامامية : المراد بعض الوجه لاكله ، لان الباء في آية التيمم دخلت على الوجوه ، ولم تدخل عليها في الوضوء ، فآية الوضوء قالت فاغسلوا وجوهكم ، وآية التيمم قالت فامسحوا بوجهكم ، والباء تفيد التبعيض •

٦ ــ قال الاربعة : المراد باليدين الكفان والزندان مع المرفقين ، وعليه يكون الحد في التيمم هو الحد بعينه في الوضوء • وقال الامامية : المراد باليدين الكفان فقط ، لان اليد اذااطلقت لا يفهم منها الا الكف ، فاذا قلت : هذان يدان وفعلته بيدي انصرفت الى الكف وحدها • قال ابن رشد في « بداية المجتهد » ج ١ ص ٦٦ « ان اليد في كلام العرب تقال على ثلاثة معان : على الكف فقط : وهو اظهرها استعمالا ، وتقال على الكف والذراع ، وتقال على الكف والساعد والعضد » •

وكما تدلنا هذه الاقوال على ان الخلافات بين المذاهب انما هي لفظية لا معنوية ، وفي الفروع لا في الاصول ، تدلنا ايضا على مرونة الشريعة الاسلامية ، ومجالها الواسع للاجتهاد والتيسير ، بالاضافة الى ما في هذه الخلافات من الفوائد اللغوية والاصولية ، وما الى ذلك مما اشرنا الى بعضه فيما تقدم •

من تاريخ الانسان
ديوجين

ديوجين احد فلاسفة اليونان ، وصاحب المصباح الشهير الذي كان يحمله في وضح النهار يفتش عن رجل . وكان معاصرا لافلاطون واسكندر الكبير ، ولم يهتم بدراسة ما وراء الطبيعة ، ولا بما فيها من افلاك ونجوم ، كان اذا سمع رجلايتكلمعن الافلاك يقول له : متى كان نزولك من السماء ، ثم يلتفت الى من حوله ، ويقول : ان هؤلاء يتكلسون عن الكواكب ، وهم لا يعرفون حقيقة ما تحت ارجلهم ، ولا ينتبهون الى ما هم فيه من الفقر وضيق الحال .

بهذا تتلخص فلسفة ديوجين ، بان الرجل هو الذي يعمل ويجد ليحقق الحرية . ويحسن مستوى الحياة ، وان من اهمل هذا الواجب فلا ينبغي ان يعد مع الرجال ، ولذا كان يحمل مصباحه في النهار يفتش عن رجل ، وكان يقول : اسوأ الاشياء الهرم مع الفقر ، واحسنها الحرية ، وكان يسخر من الآثنيين لانهم يبنون الهياكل الضخمة للآلهة ، وبينهم آلاف الفقراء بلا مأوى ، وكان يقصد الهياكل ليأكل فيها ، ويصيح آه ما احسن الآثنيين اسسوا لي هذا الهيكل لآكل فيه ، يريد بقوله هذا ان السبيل الى الله ان تنفق هذه الاموال لسد عوز المعوزين ، وحاجة المحتاجين ، لا لتشييد البنيان ، وزخرفة الجدران .

كان ينعى على تقاليد قومه ، وينكر عاداتهم ، وينسب سقراط الى الجنون ، وافلاطون الى التبذير ومهادنة الظالمين ، ويسخر من الذين يقدمون القربان للآلهة ، ويتطيرون من الاحلام ، وينسون ما يعانونه من آلام اليقظة .

خرج ديوجين على تقاليد عصره ، ولكنه لم يحمل سيفا ولا قلما ، بل كان يسير في الاسواق والشوارع ، ويدخل المعابد والمجتمعات يوجه الناس الى الطريق الافضل ، الى تغيير الاساليب التـي اعتادوها والفوها ، مبينا ان التغيير سهل يسير ، ويأتـي بافعال تدل علـى السخرية والاستخفاف بعرفهـم وطريقتهم ، فاذا وضعـوا العطر في رؤوسهم وضعه ديوجين في قدميه ، وسئل عن السبب فقال : اذا وضع العطر في الرأس ذهبت رائحته في السماء ، واذا وضع في القدم صعدت الرائحة الى الانف ، يريـد بهذه السخرية ان يرشد الناس الى ان المهم ان ينظر الانسان الى الارض التـي يعيش فيها ، كما ينظر الى السماء ، ورأى رجلا يلبسه عبده النعـل فقال له : لم يبق الا ان يمخطك ، فما منفعة يديك ! ورأى قضاة يحكمون على سارق ، فقال : لصوص كبار يحكمون على لص صغير ، ورأى رجلا يرمي غرضا ، ولا يحسن الرمي ، فاسرع ديوجين ووضع رأسه مكان الغرض ، وقال : خفت ان يصيبني ما دمت بعيـدا عـن الغرض الذي يرميه ، وهو يهدف بهذا الى ان السلامة والرشد في مخالفة مـن يخطئون . ويقولون ما لا يعلمـون • وذهب به رجـل ليريه قصرا عظيما بني بالمرمر . ونقش بالذهب ، فسعل ديوجين سعالا قويا ، وجذب نخامة غليظـة ، والقاها في وجه الرجل ، وقال له معتذرا : لم اجد هنا محلا يصلح للقذارة غير وجهك ، اراد ان يفهم هـذا الرجل بانه قذر حقـير ، لانـه يرى الفضل والعظمة بالاسراف والتبذير • والح عليه احد الملوك ليعيش معـه في قصره ، فقال ديوجين : الخبز اليابس خير من العيش في ظل قصورك • واحب الاسكندر ان يرى ديوجين ، فذهب اليـه ، وهو جالس في الشمس ، فلـم يتحرك ديوجين من مكانه ، ولـم يلتفت اليه ، فقـال له الاسكندر : انـا الملك اسكندر الاكبر ، فقـال له ديوجين : وانـا الكلب ديوجين ، فقـال لـه الاسكندر : اراك بحاجة لاشياء كثيرة . فسلني ما تريد . فقال له : حاجتي اليك ان تتحول من هنا فقد منعت عني ضوء الشمس ، وقطعت لذتي بها ،

فعجب رجال الاسكندر من جرأة ديوجين على مليكهم ، فالتفت الاسكندر اليهم ، وقال : لو لم اكن الملك الاسكندر لاحببت ان اكون ديوجين .

كان ديوجين لا يملك سوى عصا وخرج وقدح من خشب وبرميل ينام فيه ، وكان يمشي حافيا في الصيف والشتاء ، ومع فقره هذا كان في نفسه اكبر من الملوك الذين يثيرون الحروب ، ويريقون الدماء ، وينشرون الرعب في القلوب يتنافسون على السلطان وابتزاز الاموال ، وكان يهزأ بكل انسان يهتم باشياء تذهله عن نفسه ومتاعبه ، ولا تجديه فتيلا .

بحث ارسطو وافلاطون عن اسباب الكون وحقيقته ، وهل هو حادث او قديم ؟ وانصرف ديوجين الى النظر في حياة الانسان وشؤونه ، واكتفى باليسير من العيش ليحيا مناضلا في سبيل الحرية ، مجاهدا ضد الظلم والاستبداد .

لقد مضى على وفاة ديوجين اكثر من الفي سنه . وما زالت فلسفته حية نامية تؤمن وتعمل بها الشعوب في كل زمان ومكان . وان لم تسمع باسم ديوجين ، وتعرف عنه شيئا ، لان فلسفته هذه هي فلسفة الحياة التي تقوم على الايمان العميق الراسخ في نفس كل من يشعر بحقه وكرامته .

ومن اقواله :

* تيجان الملوك كالزجاج سريعة العطب .

* حب الظهور من الجنون .

* اذا رأيت الفلاسفة قلت : ان الانسان يفوق الحيوان ، واذا رأيت المنجمين ومفسري الاحلام ، ومن اذا حصلوا على مال او جاه تكبروا قلت : ان الحيوان يفوق الانسان .

* اذا احتاج المضطر الى شيء واخذه فلا شيء عليه .

* كلما اخفى الانسان عيوبه كلما تمكنت فيه .

* انفع الاشياء اقلها ثمنا ، فالصورة تباع بثلاثة آلاف دينار ، ومد الدقيق بدرهم .

* كان يطلب من الاصنام اللطف ، ويقول : اريد ان اعود نفسي على ان لا اجيبها الى طلبها .

* صلحاء الناس مظهر الآلهة .

* قال له بعض السفسطائيين : انت لست انا ، وانا رجل فانت لست برجل . فقال له ديجون : لو قلت : انت لست انا ، وسكت كانت النتيجة طبيعية ، وهي انك لست برجل .

العالم ليس عقلا *

تاليف الاستاذ عبدالله القصيمي

تمنيت لو ان صاحب كتاب « العالم ليس عقلا » تكلم على اساس العقل والمنطق ، حتى ادرس كتابه على هذا الاساس ، اما وقد ابى الا ان يجافي العقل ويعاديه فلم اجد بدا من ان اردد التساؤلات التالية :

لست ادري — وليتني بخبير — ما الذي حمله وبعثه على العداء والكراهية للعقل ، حتى بلغ الحقد على العقل ان ينكر وجوده من الاساس، او يعترف له بادنى تأثير في هذا العالم ، رافعا عقيرته معلنا ومرددا من غير شعور : « العالم ليس عقلا » ..

هل يريد ان يشبع نزعة في نفسه لا تلتئم في شيء مع العقل ، حتى ثار عليه ثورته ؟!.. وهل للعقل من ذنب الا انه ينهي عن الكفر والزندقة والالحاد ، وعن الاجرام والفوضى والفساد ؟!.. او انه يحاول ان يثأر للحيوان من الانسان الذي اختص بالعقل دونه ، وتميز به عنه ، وهو من المصلحين الدعاة الى المساواة بين جميع الاشياء ، حتى بين الحيوان والانسان ، وعلى هذا : اما ان يعطي للحيوان عقل ، تماما كالانسان ، واما ان يسلب العقل عن الانسان ، وعن العالم وعما وراء العالم كما سلب عن الحيوان والترجيح ظلم وتحكم ..

ثم اليس هذا القائل جزءا من العالم .. واذا كان الكل جنونا لا عقل له ، فما يقال في العالم يقال فيه ؟!..

وايضا قال : ان افعال الانسان واقواله لا تعبر عن الواقع ، ولا تمت الى الحقيقة بسبب ، وانما هي تعبير عن اشياء يتوهمها ، ويتصورها في

---

* نشرت في مجلة الآداب اللبنانية عدد كانون الثاني سنة ١٩٦٤ .

مخيلته ــ اذن ــ قوله « العالم ليس عقلا » لا يعبر عن شيء من الحقيقة والواقع ، وانما يعبر عن اوهامه وتخيلاته •• وغفر الله لمن قال : « من انكر الفلسفة فقد تفلسف » •

ومعنى قوله « العالم ليس عقلا » انه لا اثر للوعي والادراك فيه ، واذا انتفى الوعي والادراك انتفى الخير والشر ، والحق والباطل ، والقبح والجمال ، وتساوى موت الناس جميعا ، وحياتهم جميعا •• ولا ادري هل يصبو صاحب الكتاب الى هذا ، حتى لا يؤاخذه مؤاخذ ، ويحاسبه محاسب ، او انه كما قال الفيلسوف المعاصر « برتراند راسل » : « اظن ان دعاة « اللاعقل » يرون ان الفرصة في الكسب من وراء خداع الناس تكون افضل اذا جعلوهم في حالة هياج مستمر »، اي في الفوضى التي يدعو اليها « العالم ليس عقلا » •

وايضا قال فيما قال : «ان معنى الخرافة ان نعتقد بشرعية هذا العالم» اي ان حد الخرافة ان نقول بان هـذا العالم ليس بخرافة ، وليس من شك ان هذا القول من وحي التخريف ، لا من وحي العقل . لان « العالم ليس عقلا » ••

وقال العلماء بعد الاختبار والتجارب : ان للطيور والحيوانات ، بخاصة الكلاب والقرود ذكاء او غريزة تدلها على عوامل النجاح ، وان نوعا من الحشرات كالنمل يتصرف دائما بما تمليه مصلحة الجماعة • وقال هذا القائل : ان العالم بارضه وسمائه . ونظامه وانسجامه . وعلومه وفنونه ، وحضارته وتشريعاته ، كل هؤلاء « ليس عقلا » •

واذا عطفنا قوله على قول العلماء تكون النتيجة الحتمية ان بعض الحشرات اذكى وافضل من بعض افراد الانسان •

وبالتالي ، اذا كانت وظيفة العقل هي اختيار الوسيلة الى تحقق الغاية فان دعاة الفوضى لم يهتدوا بعد ، ولن يهتدوا الى شيء يحقق اهدافهم وغاياتهم •• اما دعاة الخير والفضيلة فقد تم لهم ، او للكثير منهم

ما ارادوا ، وربما اكثر مما كانوا يأملون .. ذلك انهم ــ وان نقموا على اوضاع مجتمعاتهم ، وعادات بيئاتهم ــ الا انهـم لم يلعنوا الناس كـل الناس .. وينفوا عنهم وعن الوجود التعقل والوعي .. بل وضعوا الخطط السليمة الحكيمة ، وارشدوا اليهـا برفق وتواضع .. ان الدعوة الـى الفوضى والهـدم ، والسب والشتم ، سهل يسير ، حتى علـى الاطفـال والمجانين .. اما الكمال والبناء فصعب عسير الا على العقلاء والعظماء .

مناقشات المجلس في الحقوق الطائفية *

قرأت في جريدة « الحياة » عدد امس ٥ ايار سنة ٦٢ المناقشات الحامية حول حقوق الطائفة الشيعية في المجلس .

سأل بعض نواب الشيعة الحكومة عن السبب لحرمان « طائفتهم » من التعيينات القضائية الاخيرة ، وانبرى للجواب والدفاع الوزيران الشيعيان « فكان سوس الخشب منه وفيه » وفي نظرة واحدة الى جوابهما نجد التفسير الصحيح لحرمان الشيعة من حقهم الكامل في جميع الوظائف ...

ونحن لا نريد بكلمتنا هذه ان ننظر الى الدوافع التي حملت بعض النواب على السؤال ، ولا الى الاهداف التي يرمون اليها ، وانما ننظر الى السؤال لا الى السائل ، والى الجواب لا الى المجيب ...

لقد جاء السؤال مركزا ومدعما بالمنطق ، بنص الدستور ، وتعهد رئيس البلاد ، والبيان الوزاري الذي نالت الحكومة الثقة على اساسه ، ولا شيء وراء هذه الحجة التي يحق بها القول على كل مخاتل ومراوغ .

والوزيران اللذان يمثلان الطائفة الشيعية ، وجاءا باسمها الى النيابة والوزارة يعترفان بان « طائفتهم » دون جميع الطوائف في توزيع المنافع ، ويعترفان بنص الدستور على المساواة ، ويعترفان ايضا بان رئيس البلاد ورئيس الحكومة ووزراءه تعهدوا جميعا بالقيام بالقسط والعدل ، يعترفان بهذا كله ... وعذرهم الوحيد انهما يختلفان مع واضع الدستور في وجهة النظر ... لانه اخطأ في اقحام الطائفية .

* نشر في جريدة الحياة ٦/٥/٦٢ .

ونسأل الوزيرين : هل حرمان الشيعة الذي يقرانه ويدافعان عنه يصحح خطأ المشرع ؟ وهل يحق للقاضي ان يرفض طلبا نص عليه القانون ، لا لشيء الا لان وجهة نظره تخالف وجهة نظر المشرع ؟ ولماذا لا يعلن عن هذا الخطأ الا اذا طالبت الشيعة بالعدل والمساواة ؟ واذا كان الوزيران الشيعيان لا يؤمنان بالطائفية ولا بالدستور الذي نص عليها ، فلماذا لم يعملا يدا واحدة على تعديله ؟ وكيف ترشحا للنيابة ، وتوليا الوزارة على اساسه ؟

واجاب الوزير الاسعد بان « الطائفة الشيعية لا تؤمن بالطائفية ، وان للشيعة دورا في بناء هذه الدولة فيجب ان ينصرفوا الى لعب هذا الدور » ، ولكن هذه الدولة يا حضرة الوزير قائمة على الطائفية ، فكيف تريد من طائفتك التي توليت النيابة والوزارة باسمها ان تعمل لبناء الدولة ، وفي الوقت نفسه تريدها ان لا تؤمن بالطائفية التي قامت عليها الدولة ؟

وهل قولك هذا الا كقول القائل : ابن الدار واهدمها في آن واحد .

اجل ، ان الشيعة لا يؤمنون بالطائفية ، كغاية في نفسها ، ولكنهم يؤمنون بلبنان ودستوره ، فاذا تكلموا عن الطائفية ، وطالبوا باسمها فانما يطالبون بها كوسيلة لتطبيق الدستور الذي نص عليها . فهم يقولون : اما ان يعدل الدستور واما ان يطبق بالعدل . والجمع بين وجود الدستور وبين اهماله وعدم العمل به اهانة للبنان وحكامه ، ونوابه ولجميع اللبنانيين ، لا للشيعة فحسب .

حول كتاب
« لكي لا تحزنوا في البحر » . .

في سنة ١٩٥٠ عرفت المطبعة رجلا مصريا ، اسمه خالد محمد خالد . وفي هذه السنة نفسها عرف العالم العربي بكامله ، وغير العالم العربي ايضا الكاتب القدير والعلامة الكبير الشيخ خالد محمد خالد .

الف البعض كتبا عدة ، ولكن لم يعرفه احد ، او عرف بعد امد طويل ، واشتهر هذا الكاتب ، وتردد اسمه على كل لسان من اول يوم اخرج فيه كتابه من هنا نبدأ ، او من اول كتاب اخرجه للناس .

ورب قائل يقول : ان الفضل في شهرة خالد يعود الى معارضة الازهر كتاب من هنا نبدأ ، ومحاكمة صاحبه لا الى قيمة الكتاب . ونقول في جواب هذا القائل : اولا لماذا قامت الضجة حول هذا الكتاب ، اليس لانه يمثل طلائع المستقبل والغد ، وينعى على الرجعية ! ثانيا لقد راج قبل من هنا نبدأ عشرات الكتب ، ووزع منها مئات الالوف من النسخ ، واعيد طبعها مرات عدة ، ولم يعارضها الازهر ولا غير الازهر ، ولم يدع صاحبها الى المحاكمة ، ولا اذهب بالقارىء بعيدا . فبالامس القريب راج كتاب « ايام لها تاريخ » للاستاذ احمد بهاء الدين ، وكتاب الثورات لنهرو دون ان تقوم الضجة حول الكتاب والكاتب .

ان اول ما يطالعك في مؤلفات الاستاذ خالد ثورته على التقاليد والاوهام التي يظن الناس انها حقائق ، ودين مقدس ، قد يثور ثائر على عادة متبعة ، وخلق مألوف يثور لانه لا يدين بدين ، ولا يؤمن بشيء حقا كان او باطلا ، اما ثورة الاستاذ الخالد فثمرة ايمانه الصادق ، واخلاصه القوي ، ورغبته في احقاق الحق ، ثار على الباطل لانه باطل ، وتتمثل هذه

الثورة في كتبه الستة ، ولكنها في كتابه الاخير « لكي لا تحرثوا في البحر » اشد عنفا ، واكثر حماسا .

واكثر ما يلاحظه القاريء الفرق الكبير بين النهج الذي سلكه المؤلف في كتابه الجديد وكتبه السابقة ، فهو في كتاب من هنا نبدأ ، او مواطنون بلا رعايا ، والديموقراطية يعالج كثيرا من القضايا على اساس اقتصادي ، اما في كتابه الجديد ، فلا نكاد نجد للاقتصاد من ذكر ، ولا نسأله لماذا لم يتعرض في هذا الكتاب للاستعمار لان بين دفتي « الديموقراطية » ما لا يقبل المزيد ، الا ان هذا لا يمنع ان يذكر الاستعمار والاقطاع ، بقدر ما تتصل بهما بحوث الكتاب ، وهي تتناول اخلاق مجتمعنا الذي يقتات ، كما يقول الكاتب ، بالغش والكذب والنفاق والذل والعجز وهتك الاعراض ، ومن اين جاءت هذه الرذائل ، وهل لها مصدر غير الفقر ؟ وهل للفقر مصدر غير الاستعمار والاقطاع ؟ ان مداواة هذه الاوباء بغير القضاء على الفقر كمداواتها بقول العاجزين « لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » . ان هذه الحقيقة لم تكن لتخفي على استاذنا الخالد ، ولكن الضرورة تسقط التكليف ، كما يقول الفقهاء .

وعلى الرغم من اني لاحظت هذا ، وانا اقرأ الكتاب ، فقد تابعت قراءته بلهفة وشوق ، لانه كشف عن المساويء التي تعوقنا عن السير في موكب الحياة ، فالقوانين في بلادنا توضع للتشفي والعقاب ، لا للعلاج او الوقاية ، والتعصب عندنا فضيلة ، والخطيئة تعالج بالمواعظ . . « يا عباد الله اتقوا الله » والجاحد الخائن المتحايل على الحق قديس في عرفنا اذا صلى وصام ، وتجنب الخمر والميسر ، والفتاة التي تختار خطيبها بنفسها تسيء الى العفة وكرامة الاسرة ، وما الى ذلك من الانطباعات التي تركها فينا الحاكم المستبد ، والاستعمار الدخيل ، والتقليد البغيض ، هذا ، ونحكم هذه الاحكام باسم الواجب وباسم الفضيلة ، وباسم الدين .

لقد وفق الكاتب الى وصف الامراض الاجتماعية كل التوفيق ،

وشرحها بدقة وامانة ، وهاجمها بجرأة واخلاص ، ولكنه تحفظ واجمل في وصف الدواء ، ولم يسهب في تفصيله كما اسهب في وصف الداء .

وعلى اية حال فقد دعا الى الاعتماد على العقل والتجربة ووضع كل شيء تحت مجهر العلم ، وحث على الاخذ بما يتلاءم مع طبيعتنا ويعبر عنها . ان الذين تحرروا من التقاليد وتجرأوا على التصريح بما يعتقدون قليلون جدا ، قليلون في هذا العصر ، وقليلون في العصور السالفة ، ويأتي الاستاذ خالد في طليعة هؤلاء الصفوة ، ولا شك ان جرأة الاستاذ الخالد هي ثمرة استقلاله في التفكير ، واخلاصه للحق ، ورغبته في افهامه للناس كافة .

وبالتالي فان مجتمعنا في امس الحاجة الى امثال هذا الكاتب العظيم الذي « تحدى مواضعات العرف المنحل ، وتفوق على وصولية البيئة ، ونفعيتها ، وجهلها ، وعجزها .. ان عظيما واحدا من هذا الطراز يفعل في امة ما تفعله عشر جامعات » .

مارون عبود ابو محمد

مارون عبود من كبار الادباء في البلاد العربية ، وابو الادباء وسيدهم في لبنان ، وكانت له شهرة واسعة ، ومكان مرموق في جميع الاوساط ، لادبه وعلمه وجهده واخلاصه .. وقد ترك للمكتبة العربية عشرات الكتب ، اعيد طبعها اكثر من مرة ، وسيعاد مرات ومرات لتستنير بها الاجيال ، وكان مسيحيا ومن بلد لا مسلم فيه الا انه كان مغرما بحب الرسول الاعظم محمد بن عبد الله (ص) ، مكبرا لرسالته وآثارها ونتائجها ، لذا اسمى ولده الاكبر محمدا ، وبه يكنى ، وقد ثقل ذلك على عشيرته واهل بيته من روحانيين وزمنيين ، ولكنه لم يعبأ ويكترث .. وتوفي سنة ١٩٦٢ ، فنشرت في جريدة الشعب البيروتية عدد ٣ تموز ٦٢ الكلمة التالية :

تكلم الادباء والكتاب عن مارون عبود ، واشادوا بآثاره ومآثره ، وذكروا الكثير من محاسنه ومفاخره ، واولوها ما تستحقه من العناية والرعاية ، ولكن البعض منهم اهمل جانباها من حياته ، وآخر اشار اليه اشارة عابرة ، مع انه الناطق الصادق عن شخصيته وحقيقته ، والسبب الاول لنجاحه واتساع آفاقه .

وهذا الجانب هو قلبه العامر بالدين والايمان ، ايمانا لا يشبه شيء الا ايمان العجائز .. واليك هذا الشاهد الواحد :

منذ سنوات دخل مارون عبود المستشفى لمرض الم به ، فذهبت لعيادته ، ولما عرفني ظهرت دلائل الغبطة والابتهاج على وجهه ، واخذ

يحدثني عن القرآن وبلاغته ، وعلومه ومبادئه ، ويتلو من آياته عن ظهر قلب ، ويستخرج منها اسمى المعاني ، وابلغ العظات .

وقال لي فيما قال : منذ سنوات مضت مرض ولدي محمد بمرض اعجز الاطباء ، حتى يئست ويئسوا من شفائه ، فقال لي بعض اهل القرية : ما بلغ الداء بولدك هذا المبلغ الا لانك اسميته محمدا .. والان سل نبي المسلمين محمدا ان يشفيه لك ان كان كما تعتقد ..

قال مارون : ولم املك في تلك الساعة اي جواب يقنع الناقمين على الاسماء . فناديت محمدا من اعماق قلبي قائلا : اتسمع يا ابن عبد الله ما يقول هؤلاء ؟.. اتعجز عن شفاء هذا الولد الضعيف ، وانت الذي شفى الانسانية من ادوائها ، واخرجها من ظلمائها !..

فكانت استغاثتي هذه الدواء الناجع ، وذهب ما به من اسقام واوجاع ، ولله الحمد ، فقلت للناقمين : كيف رأيتم صنع محمد بن عبدالله بمحمد بن مارون ؟..

هذا هو مارون عبود ، ايمان عميق ، وعقيدة راسخة بالخير ايا كان مصدره . فهو يؤمن بمحمد ، ويستلهم منه الحق والرحمة ، ويؤمن بانه يصنع المعجزات ، تماما كما يؤمن بعيسى ، رغم انه يعيش في بلد مسيحي وتولد من ابوين مسيحيين ..

وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان شخصية مارون اقوى من ان توجهها الغايات والبيئات ، وان عبقريته اعظم من ان تتكيف بالظروف والملابسات ، وان روحه لا تحيا وتنسجم وتتفاهم الا مع العظماء الذين غيروا وجه التاريخ ، ودفعوا بالانسانية نحو غاياتها واهدافها . انه يؤمن بالعظماء جميعا ، لا يفرق بين احد منهم . اما الذين يفرقون . ويؤمنون ببعض ، ويكفرون ببعض فهم عبيد العادات والتقاليد .

لقــد استقل مارون عبود في شخصيته وعقيدته ، ودعا الى هــذا الاستقلال مدة حيــاته ، وبشتى الاساليب ، دعا الى العقل والايمــان بالعظمة التي لا يحدها دين ولا لغة ولا لون ، ولا زمان ومكان .

بهذا الاستقلال ، وهذا الايمان صار مارون عبود مــن الخالدين ، واضاف الى تاريخ لبنان صفحات في المجد والكرامة ، فهل يتعظ به الذين يرون الايمــان بالغيب جهلا وخرافة ، والذيــن يتعصبون لدينهم ولدين آبائهم ضد الاديان الاخرى ؟..

حول استقالة نواب الشيعة*

قيل للامام محمد الباقــر والد الامام الصادق : من اعظم النــاس قدرا ؟

قال : من لم يبال بالدنيا في يد من كانت .

ولا اعرف قولا في تحديد عظة الرجال خيرا من هذا القول .. فليس العظيم من تولى النيابة والوزارة ، ولا من ملك المال والعقــار ، ولا من وقف على بابه بنو الحاجات والغايات ، وانما العظيم من شعر انه في غنى عما يتنافس اهل الدنيا عليه ، فما طلب احــد منصبا اي منصب الا لانه يحس نقصا وفراغا في نفسه ، وان هذا المنصب يسد النقص والفراغ ، ولو احس بالكمال لما ذهبت نفسه عليه حسرات .

وايماني بهذه الحقيقة هو الذي اوقفني موقف الشاك المتردد مــن استقالة نواب الشيعة .. كيف ؟! وبالامس القريب حرصوا على النيابة ، وبذلوا الاموال من اجلها وحشدوا كل ما لديهم من الامكانات . واليوم يلفظونها لفظ النواة .. اما هضم حقوق الطائفة فليس بالشيء الحادث .. اذن هناك سر غير الطائفة وحقوقها ..

اجل ، ويكمن هذا السر في اطماعهم الخاصة التي لم تلبها الحكومة كما كانت تفعل الحكومات السابقة ، اما لمكــان مجلس الخدمة ، واما لاعتبارات اخرى .. ولماذا هم نواب .. واي جدوى في نيابتهم اذا لم تحقق منافعهم ؟!.. فليلوحوا ــ اذن ــ بالاستقالة ، ويهددوا بها ، عسى ان تضطر الحكومة لتلبية ما يطمعون .. هذه هي الحقيقة ، اما الطائفة

---

* نشرت هذه الكلمة في جريدة الشعب عدد ١٨ تموز سنه ١٩٦٢ .

وحقوق الطائفة فكلام فارغ في منطقهم .

وطرب طيب لهذه الاستقالة ، وصفق لها ، وقال من اعمـاق قلبه : انها فسحة من امل هبت بعد اليأس .. فابتسمت ..

فصاح بنبرة الغاضب : ما لك .. لقد ابيت الا ان تكـون هكذا متشائما ؟!..

قلت : مهلا . ان الماضي يدل علـى الحاضر ، فاذا اشتبهت ظاهرة فعل من انسان قسناها علـى ما مضى مـن سيرته ، ولا شيء في الماضي يبشر بخير ، حتى نستبشر بالحاضر ، ونتفاءل بالمستقبل .

قال : ما الحيلة ، وقد طفح الكيل ؟..

قلت : ان نطالب ونحاسب كل نائب ، ولا نتسامح معـه اذا اهمل واجبا من واجباته .. ومتى تأكد هو ذلـك احتاط لنفسه ، وخاف على مصيره . وقديما قيل : « لو علم الظالم ان بين جوانح المظلوم نفسا حية لتحاماه » ..

وفي النهاية نحن المسؤولـين عما فينا من مذلة وهـوان ، ما دمنا سكوتا ، بل نكرر انتخابهم اولا وثانيا وثالثا الخ .. ولا يحق لاحدنا ان يلوم نائبا او وزيرا اتخذ من اضطهادنا غنيمة له ولاتباعه .

المرأة في تراثنا

حفظ المسلمون قصصا وروايات كثيرة دونوها في كتبهم ، واتخذوا لها في العهد الاول للاسلام حلقات في المساجد كحلقات الدروس • وروي ان اول مـن عرف من ملـوك الاسلام بالرغبة في السمر والتعلق باهل الاخبار معاوية بن ابي سفيان وانه كان اذا انفتل مـن صلاة الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ولما نضجت العلوم في القرن الثالث الهجري ذهب القصاص ، وخلفهم الوعاظ من المتصوفة والزهاد •

واكثر هـذه القصص اخذها المسلمون العرب عمن خالطوهم من الامم والاديان وبخاصة اهل الكتاب • وقد حفظ التاريخ هذه القصص بكاملها ، وهي تعد بالمئات لا بالعشرات ، وتتعلق باحـوال الامم البائدة وسيرة الانبياء والاولياء وابليس والشياطين ، وخلق السموات والارض ، والملائكة وآدم وحواء ، وما يحصل في آخر الزمان من الاحداث والمظالم على يد الجبابرة وقادة الجور وللمرأة منها نصيب وافر ، وقد رفعت من شأنها ومركزها الاجتماعـي وتأثيرها في الاسرة وغـير الاسرة ، وبعض القصص يصور المرأة بانها اوفى مـن الرجل واملك لعاطفتها وشهواتها بعكس ما يقوله الكثيرون • جاء في كتاب الكافي عن الامام الصادق :

انه كان فيما مضى امرأة اجمل اهـل زمانها ، تزوجت رجلا صالحا وكان له اخ مقرب مـن الملك يدعى عبد الحاكم ، واراد الملك ان يبعث رجلا في حاجة • فقال له عبد الحاكم : ارسل اخي فانه نشيط امين ، فدعاه الملك وارسله ، وكان عبد الحاكم يأتي امرأة اخيه في غيابـه ويسألها عن حوائجها • وذات يـوم دعاها الـى نفسه ، فامتنعت عليـه ، وابت اشد الاباء ••• فحلف ان اصرت على الامتناع ليكيدن لها ، فقالت له : افعل ما شئت فان شرفي اعز علي من حياتي ، فاشاع عنها الفاحشة ، واغرى بها

الملك حتى امر برجمها ، فحفر لهـا حفرة ، ورجمها النـاس بالحجارة ، وتركوها وبها رمق ، فلما دخل الليل خرجت مـن الحفرة ، ومشت على وجهها فانتهى بها السير الى دير فنامت علـى بابه ، وفي الصبـاح رآها الديراني وسألها عـن حالها ، ولما عرف امرها رحمها وادخلها الديـر ، واوكل اليها حضانـة ولده الصغير . وكـان للديراني خادم يقوم بامره فاعجبته المرأة ودعاها الى نفسه ، ولما امتنعت عليه خنق الطفل ، ونسب الجريمة للمرأة ولكن الديراني عرف الحقيقة فقال للمرأة لا تطيب نفسي ان اراك بعد اليوم ، لاني كلما رأيتك تذكرت ولدي ، ودفع لها عشرين درهما ، وقال : اخرجي الى حيث تشائين وبينما هي سائـرة واذا بجمع غفير ومشنقة نصبت لشنق رجل ، فسألت عن خبره ، قالـوا : عليه دين عشرون درهما ، ولصاحب الدين في هـذه البلد الحق ان يصلب المديون اذا عجز عـن الوفاء ، فدفعت الدراهم بكاملها لصاحب الدين ، واطلق سراح المديون ، فقال لها :

ما احد اعظم منة علي منك ، وانا في خدمتك حتى الموت ، ومضى معها طلبا للرزق حتى اتيا ساحل البحر . واذا بتجار ذاهبين في سفر لهم ، فعرض الرجل المديون على التجار ان يبيعهم المرأة ، فاشتروها منه ودفعوا له الثمن . وصحبوها معهم . وما ان وصلوا الى وسط البحر حتى عصفت بهم الريح فاغرقتهم جميعا الا المرأة فانها نجت من الغرق على خشبة قذفتها الارياح سالمة الى الشاطىء . وقد اشتهرت حال هذه المرأة ، وعرف الناس فضلها وصلاحها ، وجميع ما حدث لها ، فكانوا يأتونها افواجا للتبرك ، وكان لها عندهم من الاحترام والتقديس ما للانبياء والصديقين .

وفي التراث العربي والاسلامي الكثير من امثال هذه الحكاية وكلها تكرم المرأة ، وتصفها بكل فضيلة يمكـن ان يتصف بها انسان وجدير بالذين يرمون الاسلام والعرب بانهما يحطان مـن شأن المرأة ان يتعرفوا هذا التراث الخالد ليلمحوا فيه على مر العصور والاجيال صورا ترفع من شأنها ومكانتها .

انطباعات
عن رسالة حي بن يقظان

يهتم الفلاسفة بمعرفة العالم بوجه عام ، من اين ؟ وفي اين ؟ والى اين ؟ وبمعرفة الانسان ، وماينبغي ان يعمل له ، ويتجه في سلوكه اليه بوجه خاص ؟ وايضا يهتمون بالوسيلة التي تؤدي الى هذه المعرفة ، وبالاختصار ان اهتمام الفيلسوف ينحصر في تحديد المفهوم الفلسفي للعالم بعامة ، والانسان بخاصة ، وفي نظرية المعرفة ، وان كان البعض يجعل الانسان محورا تدور حوله جميع البحوث الفلسفية ، ويدرس الوجود كوسيلة لدراسة الحياة الانسانية ، والكشف عن مقوماتها ومصيرها ، والاهتمام بهذين لا يختص بالفلاسفة القدامى دون الجدد ، ولا بفئة منهم دون فئة : فالموضوع واحد ، وان اختلفت المذاهب والمناهج . وعلى هذا الاساس وضع الفيلسوف الشهير ابن طفيل قصة حي بن يقظان التي ترجمت الى لغات عديدة ، وشاعت وذاعت بين العرب وغير العرب ، ووصفت بأنها « ابدع واغرب ثمرات الادب العربي » .

واقدم في هذه الكلمة موجزا للآراء والخطوط العامة الرئيسية التي تحتوي الرسالة عليها ، او كما فهمتها من كلمات الرسالة على الاصح ، وبعد ان اشار ابن طفيل في رسالته الى خلاف الفلاسفة حول خلق الانسان، وانه هل من الجائز في عالم الامكان ان يوجد على ظهر هذا الكوكب انسان عن طريق التولد الذاتي ، او ان هذا التولد ممتنع بالذات ومستحيل الوقوع ؟ اشار الى القولين دون ان يحاكمهما ، ودون ان ينتصر لاحدهما ، وبعد هذه الاشارة قرر النظريات التالية :

دور الطفولة

يرى ابن طفيل ان الانسان ، وهو في دور الطفولة ، وقبل ان يبلغ سن التمييز يكتسب معلوماته عن العالم الخارجي بالحواس الظاهرة ، ينظر بعينه حركات غيره فيقلده بها ، ويلمس الحار فيبتعد عنه ، ويشم الكريه فيأنف منه ، ويتذوق اللذيذ فيقبل عليه ، ويسمع باذنه الاصوات فيحكيها ، تماما كما حكى حي بن يقظان نغمة الظباء ، واصوات الطيور والحيوانات ولا وسيلة للطفل في هذه المرحلة الى اكتساب اي شيء الا عن طريق هذه الحواس ، ولولاها لكان اشبه بالجمادات •

ومتى قارب السابعة من عمره يصبح من ذوي الادراك والتمييز في الجملة ، ويستطيع القيام بعمليات عقلية ، ولكن على نطاق ضيق . حيث ينصب تفكيره على تجنب الاذى والالم . واشباع رغباته ودوافعه ، فلقد رأينا حيا حين قارب هذه السن يتخذ لنفسه كسوة من اوراق الشجر . وعصيا من غصونها ، يخوف بها الحيوانات •

وتفيدنا هذه النظرية ان الطفل في هذه المرحلة يستطيع النظر والاكتشاف ــ الى حد ــ لو اتيحت له الفرص الكافية لممارسة مواهبه ونشاطه ، وليس ادل على ذلك من شغف الطفل بالاسئلة التي تنبؤ عن غريزة الرغبة في الكشف وحب الاطلاع •

الروح الحيواني

ويرى ابن طفيل ان الروح الحيواني جسم بخاري ينبعث من التجويف الايسر في القلب ، ويسري في جميع الاعضاء عن طريق الاعصاب ، وهذا البخار هو الصورة النوعية لماهية الحيوان التي تميزه عن سائر الاجسام ، وبه يستعين على افعال الحياة ، كالاحساس والحركة الارادية ، واذا خرج من الجسم تعطل ، وصار الى حالة الموت ، وقد اكتشف هذا البخار حي بن يقظان حين عمد الى حيوان حي ، وشقه ، كما فعل بامه

الظبية ، وانتزع قلبه بسرعة ، فرأى ذلك الفراغ مملوءا بهواء بخاري حار ، ومات الحيوان على الفور ، « فصح عنده ان ذلك البخار الحار هو الذي كان يحرك هذا الحيوان » .

ويلاحظ ان هذا الكلام من ابن طفيل يدل بظاهره على ان مبدأ الحياة في الحيوان من نوع المادة ، لانه بخار ، والبخار جسم لطيف ، بخاصة انه قد ساوى بين الروح الحيواني والروح النباتي ، ولم يفرق بينهما الا انه في الاول اتم واكمل ، فهما عنده بمنزلة الماء الواحد ، قسم بقسمين ، احدهما جامد ، والاخر سيال .

وهذا يتنافى مع ظاهر قوله فيما بعد : « ان الروح الحيواني الذي مسكنه القلب لا بد له من معنىزائد على جسميته » .

ولست ادري : هل هذا من نوع التناقض الذي عابه ابن طفيل على الغزالي ، او ان هناك معنى وراء الظاهر خفي علينا ، ومهما يكن ، فنحن مكلفون بالظاهر ، لانه هو الذي يكشف عن المقاصد ، اما الباطن فغير مسئولين عنه ، قال الرسول الاعظم (ص) : « انا احكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر » .

وان اعتذر معتذر بان مراد ابن طفيل ان الروح تتصل اتصالا وثيقا بالبخار ، وليس هو الروح بالذات ، فاذا ذهب البخار تبعه الروح .

قلنا في جوابه بان الروح ايضا يتصل اتصالا وثيقا بالدم ، ويذهب بذهابه ، فلماذا خص البخار بالذكر دون الدم ؟!..

اجل ، من الجائز القريب ان حي بن يقظان في بدء الامر ، وقبل ان تتقدم به السن ، وتتسع منه المدارك ظن ان البخار الذي في القلب هو الروح الحيواني ، ولما تمت واكتملت مداركه ، وشاهد ما شاهد ظهر له ان الروح معنى زائد على الجسمية . على ان الروح يطلق على القلب بضرب من التجوز . اما الروح الانساني فقد صرح ابن طفيل انه من امر الله ، وانه باق ببقاء الله ، لا يمكن ان يبيد او يفسد او يضمحل ، لان هذه من صفات

الاجسام ، وهو منزه عن الجسمانية . ولذا ادرك وجود الله سبحانه ، بل واتصل به مباشرة ، ولو كان جسما لاستحال عليه ذلك .

قانون السببية

ويرى ابن طفيل ان العقل يكتشف ان وراء كل حادث سببا ، ذلك ان العالم يشتمل على الجماد والنبات والحيوان ، وكلها تشترك في الجسمية ، ولوازمها الذاتية من الطول والعرض والعمق ، وتختلف في اشياء آخر ، كالثقل والخفة ، والحرارة والبرودة ، والنمو والتغذية ، والاحساس والادراك ، وما الى ذلك . وهذه ليست بذاتية للاجسام ، كما هي الحال في الابعاد الثلاثة ، والا كانت بكاملها لكل جسم ، وكان الشيء الواحد محلا للمتناقضات ، للحركة واللاحركة ، والحرارة واللاحرارة ، والاحساس واللااحساس . اذن لا بد ان يكون هناك معنى زائد على الجسمية اوجب هذا التفاوت ، وهذا المعنى الزائد هو الروح الذي يحصل به التمييز بين الاشياء المختلفة ومن وجود الروح نهتدي الى قانون السببية ، ومن هذا القانون نهتدي الى وجود الله سبحانه .

اما ان وجود الحوادث وتنوعها يدل على وجود الروح فيعلم مما قدمنا من ان وجود صورة معينة لجسم معين دون سواه يكشف عن وجود علة خارجة عن الجسم ، واما ان الروح يدل على قانون السببية فلانه بعد ان اثبتنا ان الروح سبب لما يحدث للاجسام يثبت التعميم من ان لكل حادث سببا بالضرورة ، والفصل بين حادث وحادث محال ، ما دامت جميع الحوادث تشترك في نفس الحدوث ، وعليه يثبت قانون السببية الذي لا يقبل الاستثناء ومن هنا جزم علماء الطبيعة من ان ما يصح على فرد من نوع خاص يصح على جميع افراده . اما ان قانون السببية يدل على وجود الله فلان معنى لكل حادث سبب ان هناك سببا واحدا يختلف في حقيقته وجميع صفاته عن الحوادث ، وهو في نفس الوقت لا يحتاج الى سبب ، والا

تسلل، وابطل ابن طفيل التسلسل بدليل التطبيق الذي استدل به الفلاسفة.

واترك الحديث عن رأي ابن طفيل في الافلاك الى من شاء من المحاضرين ، لاني منذ اطلاعي على الفلسفة شعرت ، وما زلت اشعر من نفسي العزوف عما قاله الفلاسفة القدماء في هذا الباب ، فاخشى ان تكلمت عن آرائهم فيها ان اكون كحاطب ليل ، بخاصة التعقيب على قول ابن طفيل : « ان حيا شاهد الفلك الاعلى الذي ليس بجسم ولا مادة ، ولا ذات الواحد الحق ، ولا نفس الفلك ولا غيرهما ... وان لهذا الذات سبعين الف وجه ، في كل وجه سبعون الف فم ، في كل فم سبعون الف لسان » :

ومهما يكن ، فان دل هذا على شيء فانما يدل على ايمان ابن طفيل بجلال الله وعظمته ، فهو الفيلسوف المؤمن بالله والنبوة واليوم الآخر ، وفلسفته اسلامية لم يتفرد برأي عن فلاسفة المسلمين ، ولكنه لم يجزم بحدوث العالم او قدمه ، من جهة الزمن ، واكتفى بالقول بان له على جميع الاحوال والتقادير مدبرا حكيما عليما .

المعرفــــــة

ويرى ابن طفيل ان للمعرفة اسبابا ، وهي الحس والعقل والحدس ، كلا في نطاقه ودائرة اختصاص فبالحس ندرك الجسم وما هو في جسم ، وبالعقل ندرك ان العالم المادي كله متناه ، وان معنى تناهيه ان تتبدل صورته الى صورة اخرى ، فتصبح الارض غير الارض ، والسماء غير السماء ، اما الارواح فلا يمكن فسادها بحال ، لانها منزهة عن الجسمية ، وايضا ندرك بالعقل افتقار الصنعة الى الصانع ، والمادة الى الصورة ، والصورة الى الفاعل الذي ليس كمثله شيء ، ويفتقر اليه كل شيء .

ولكن كيف السبيل الى الاتصال بهذا الصانع الذي عظم الشوق الى رؤيته ؟ وهل نصل اليه عن طريق الحواس ، وهي لا تدرك الا جسما او ما هو في جسم ؟ ! وعن طريق العقل ، وهو لا يعرف شيئا عما وراء الطبيعة

الا عن طريق مبدأ العلية وقانون السببية ، وهـذه المعرفة المجملة لاتقنع اهـل الشوق والوجد الذين لا يرتضـون الا بالوصـال والاتصال والا بالمكاشفة التامة والاطلاع على الاسرار ، اذن لم يبق من سبيل الا الحدس •

وقال بعض من حقق وعلق على رسالة حي بن يقظان : ان ابن طفيل عزل العقل كلية عما وراء الطبيعة ، وانه لا يدرك شيئا عنه جملة وتفصيلا ، وهذا يتنافى مع قول ابن‌طفيل : « بحيث لا يقـع بصره ــ اي بصرحي ــ على شيء من الاشياء الا ويرى فيه اثر الصنعة مـن حينه ، فينتقل بفكره على الفور الى الصانع » فهو ينتقل من المحسوس الى المعقول ، ومنه الى الكشف ولكن الفكر يدرك اصل وجود الواجب ، وكفى ويدع التفصيل الى غيره ، ويؤكد هذا لفظة من حينه « لان ادراك القلب لا يكون الا بعد امد طويل من ممارسة الرياضة » •

اجل ، ان الفكر عند ابن طفيل يدرك ان وراء الطبيعة صانعا . اما ان يصـول ويجول في هذا الميدان ، واما ان يبلغ بالانسان الى خالقه مباشرة ، ويعرف احكامه وشريعته وحقيقـة الخير والشر فهذا ليس في شيء مـن شئونه ، وانما هو من شأن الحس الباطنـي ، فهو وحده الذي يبلغ باهل الشوق الى الغاية ، ويحقق لهم الامنية • والوصول اليها لا يكون الا بنوع خاص مـن مجاهدة النفس وترويضها علـى التحرر مـن رغبات الجسد وشهواته ، ومتى تحررت وصلت وادركت الحـق ادراكا كاملا ، وعرفت النتائج على حقيقتها ، دون ان تحتاج الى كبرى وصغرى وحد اوسط ، ولا الى مكرسكوب ، او سفينة فضاء ، وعندها تتم لها السعادة المنشودة ، وبالاختصار ان رأي ابن طفيل في هذا البـاب هو رأي المتصوفة ، دون زيادة او نقصان •

التوفيق بين الوحي والحدس

من استقرأ كلمات الفلاسفة وعلماء الكلام والمتصوفة ، وتفهمها على

حقيقتها يرى انهم مختلفون فيما بينهم في شأن التوفيق بين ظاهر الوحي وغيره ، وجاء هذا الاختلاف نتيجة لاختلافهم في طريق المعرفة ، فمنهم من يعتمد النظر والاستدلال ، ومنهم من يعتمد الحدس والكشف ، والفئة الاولى نوعان : علماء الكلام والمشاءون ، اما علماء الكلام فيلتزمون الوحي اولا ، ثم يستدلون على صحته بالعقل ، ويدافعون عنه بالجدل ، وقد شبههم البعض بالمحامي الذي يتبنى قضية خاصة ، ويدافع عنها .

اما المشاءون فيعتمدون العقل اولا ، فمن كان منهم يلتزم الدين كابن رشد اضطر الى التأويل والتوفيق بين ظاهره وبين العقل ، اي انه يكيف الدين بحسب العقل على عكس المتكلمين الذين يكيفون العقل بحسب الدين ، فأولئك « يعقلون » الدين ، وهؤلاء « يدينون » العقل ، ان صح التعبير ، ومن لم يلتزم بدين فهو في حل من التأويل والتوفيق .

اما الفئة الثانية الذين يعتمدون الحدس والكشف فعلى نوعين ايضا : نوع لا يلتزم الوحي ، وهؤلاء يسيرون وراء شطحاتهم لا يلوون على شيء ، ونوع يلتزم الدين ، كابن طفيل ، فيضطر ، والحال هذه الى التأويل والتوفيق ، ولكن بين الوحي والحدس ، لا بين الوحي والعقل ، فتبليغ الوحي موكول الى الانبياء ، وتأويله الى العارفين ، ومن هنا يظهر الفرق بين ابن طفيل وصديقه ابن رشد ، فكل منهما من انصار التوفيق ، ولكن الاول يوفق بين الحدس وظاهر الوحي ، والثاني يوفق بينه وبين العقل . ونتيجة القولين واحدة ، وهي عدم الاخذ بالوحي كشيء مستقل في ذاته ، بل هو تابع اما للعقل كما يقول ابن رشد واما للحدس كما يقول ابن طفيل .

ومهما يكن ، فان اهم ما تمتاز به فلسفة ابن طفيل انها تبتعد كل البعد عن النقاش الديني والمجادلات الالهية التي نجدها في كتب علماء الكلام ، وفلاسفة المسلمين ، والتي هي اشبه بالجدل البيزنطي ، ولذا لم يناقش حي اهل الظاهر الذين اجتمع معهم ، هو وآسال في جزيرة سلامان ، ورآهم على غير طريقته ، بل اكتفى بان اوصاهم بالتزام حدود الشرع ،

وقلة الخوض فيما لا يعنيهم ، والاعراض عن البدع والاهواء ، وقد حث في الوقت نفسه على التفكير والاستقلال في الرأي ، والاعتماد على النفس ، وضرب الامثال على ان مقدرة الانسان على المعرفة لا تقف عند حد ، كما اتخذ من فطرته الصافية مقياسا للخير والهداية ، وميزانا توزن به الاديان والشرائع ، ويميز بين صحيحها وسقيمها ، وحجة على الذين يتسمون بسمة الدين ، ويتكلسون باسمه ، ثم يظلمون او يسيرون في ركاب الظالمين ، فالدوافع النفسية هي مقياس العدل والحق ، لا القوانين والقرارات ، وقلبه النقي هو منبع الخير ، لا المواعظ والارشادات ، وهذا رد صريح على القائلين بان الانسان مجموعة من الاغراض والشهوات ، وان طبيعته لا تعدو الاهواء الا بالزواجر الخارجية ، ويتفق رأي ابن طفيل مع الرآي القائل بان مبدأ العدالة طبيعي لا وضعي وما احوجنا اليوم الى اعتناق هذه الفلسفة ، بخاصة ترك الجدل في الدين ، فان العمر اقصر من ان يتسع له ، ولانه لا يحل مشكلة من مشكلات التخلف والتأخر ، هذا الى انه يدعم النفوذ الاجنبي ، ويحمي مصالح المستعمرين والمستشرين .

اما موقف ابن طفيل من الدنيا ومتاعها ، وحثه على الاعراض عنها ، لانها ستار يحجب عن الحق ، اما موقفه هذا فمن الجائز ان يكون كموقف غيره من المتصوفة رد فعل لما كان عليه اهل الجور والضلال الذين اقبلوا على الملذات والشهوات ، وتستروا بالصوم والصلاة ، والحج والصدقات ، ويؤيد هذا قول ابن طفيل مستنكرا على هؤلاء : « لم اقتصر الرسول على هذه الفرائض والعبادات واباح اقتناء الاموال والتوسع في المآكل ؟! »

وليس من شك ان اقتناء الاموال والتوسع في المآكل من صفات الملوك واتباعهم الطغاة . لا من صفات المعذبين الذين يؤلفون الاكثرية ، ولا من شأن الانبياء الذين عاشوا عيش الزهد والتقشف ، فابن طفيل يرد بهذا القول على الذين يجمعون بين عبادة الله والافراط في الملذات ، والاندفاع وراء الشهوات ، ويزعمون انهم من المتقين لا لشيء الا لانهم

يصومون ويصلون ، فقال ابن طفيل محتجا عليهم : لو كنتم كذلــك كما تزعمون لبادرتم الى الله ، ورغبتم فيما عنــده ، ولم تتنافسوا وتتناحروا على التكاثر في الاموال والتوسع في الشهوات .

وبكلمة واحدة واخيرة ان الجملة التي ختم فيها ابن طفيل رسالته ، وهي : « كان من رأي حي ان لا يتناول أحد شيئا الا ما يقيم ، الرمق ، واما الاموال فلم تكن لها عنده معنى » تدل هــذه الجملــة دلالة صريحة واضحة ان غاية ابن طفيل من رسالته ان يهدم معــاقل الانتهازيين الذين يعيشون على حساب الناس من اقطاعيين ومحتكرين ، ومن الذين يتاجرون بالطائفية والدين ، وكل من يعمل علــى اساس الربح للربح ، لا لان يقيم الرمق على حد تعبيره .

الكميت*

الكميت بن زيد بن خنيس الاسدي ، ولد سنة ستين هجرية ، واتخذت قبيلته الكوفة موطنا ، وبنوا سد من فصحاء العرب الذين هم مادة اللغة ، قيل للكسائي حين خرج الى البصرة : تركت اسدا وتميما ، وعندهما الفصاحة ، فالشاعر عريق في العروبة ، وبيته بيت سؤدد ومجد .

واول مهنة مارسها الكميت تعليم الصبيان ، قال خلف الاحمر : رأيت الكميت في مسجد بالكوفة يعلم الصبيان .

نشأ الشاعر في عهد الامويين ، عصر المحن والمظالم ، والحروب الاهلية ، والثورات الداخلية التي اذكى نارها الضغط والاضطهاد .

ولد الكميت في السنة التي قتل فيها الحسين بن علي (ع) ، ثم اعقبتها ثورة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي ، ثم خروج المختار بن ابي عبيدة ، فحروب عبد الملك مع بني الزبير ، فثورة الخوارج ، وولاية الحجاج بن يوسف على العراق ، وثورة ابن الجارود ، ومطرف بن المغيرة ، ثم عبد الرحمن بن الاشعث ، فثورة يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك ، نشأ الشاعر ، والدماء من حوله تجري انهرا ، والاشلاء كالروابي في كل بقعة من ارض العراق ، نشأ وترعرع في عصر الهول الاكبر ، والبيئة الدامية ، فما فتح عينيه الا على سفك الدماء ، وما سمعت اذناه الا اخبار الخراب والدمار ، واحاديث الوباء والبؤس .

فمن الطبيعي ان تلتهب عاطفته حقدا وحنقا على الحكام الامويين وعمالهم ، وان يرقب الساعة التي ينهار فيها ملكهم ، ويزول سلطانهم ، ومن

---

* تلخيص من كتاب الكميت ودعبل ألفته سنة ١٩٤٦ ، ولم ينشر منه شيء .

الطبيعي ان يبتغي الفرج عند اهل الحق والعدالة ، عند آل النبي المختار اعداء الامويين ، وان يكون شعره صدى لما في نفوس الجماهير من النقمة والاستياء ، فلا عجب ان يكثر الكميت من هجاء الامويين ومدح العلويين ، وان نلمس صدق العاطفة في هذا النوع من شعره اكثر مما نلمسه في غيره . واني لاسمع من قوله :

فيا رب هل الابك النصر يرتجي

ويا رب هل الاعليك المعول

صرخة من اعماق القلب المصدوع ، وآهة من نفس تتأجج كاللهيب .

ثار الكميت على بني امية ، ودعا الى نبذ طاعتهم ، وحث على اتباع اهل البيت ، لانهم يأمرون بالحق ، وبه يعدلون ، ونعى على الرعية حبها للسلامة ، واتكالها على الاقدار ، واغضائها عن الذل ، فمن قوله :

الا هل عم في رأيه متأمل ... وهل مدبر بعد الاساءة مقبل
وهل امة مستيقضون لرشدهم ... فيكشف عنها النعسة المتزمل

• • •

فيا ساسة هاتوا لنا من جوابكم ... ففيكم لعمري ذو افانين مقول
فكيف ومن انى واذ نحن خلفة ... فريقان شتى تسمنون ونهزل

اذا اتضعونا كارهين لبيعة ... اناخوا لاخرى والازمة تجذب
ردافا علينا لم يسيموا رعية ... وهمهم ان يتروها فيحلبوا

• • •

فيا موقدا نارا لغيرك ضوءها ... ويا حاطبا في غير حبلك تحطب

فقل لبني امية حيث حلوا ... وان خفت المهند والقطيعا
اجاع الله من اشبعتموه ... واشبع من بجوركم اجيعا

وهذا قليل من كثير ، وكان اهل البيت يشجعونه على المضي في هذه السبيل . دخل يوما على الامام زين العابدين (ع) فانشده قصيدة « من

لقلب متيم مستهام » ، ولما اتى على آخرها قـال له الامام : ان عجزنا عن ثوابك فان الله لا يعجز عن مكافأتك ، واراد ان يعطيه مالا فأبى ، وقال : ان اردت ان تحسن الي ، فاعطني بعض ثيابك التـي تلي جسدك . اتبرك بها ، فنزع ثيابه ودفعها اليه ، وقال : اللهم ان الكميت جاد في آل الرسول وذرية نبيك بنفسه حين جبن الناس ، واظهر ما كتمه غيره من الحق ، فاحيه سعيدا ، وأمته شهيدا ، واره الجزاء عاجلا ، فانا قد عجزنا عن مكافأته • قال الكميت ما زلت اعرف بركة دعائه •

ودخل على الامام محمد الباقر (ع) وانشده مديحا فيـه . فقـال الامام : اللهم اغفر للكميت ، ودخل عليه يوما فاعطاه الف دينار وكسوة ، فقال الكميت : والله ما احببتكم للدنيا ، ولو اردتها لاتيت من هي في يده ، ولكنني احببتكم للآخرة ، اما الثياب فاقبلها للبركة ، لانها مست اجسامكم، فرد المال ، واخذ الثياب •

ودخل على فاطمة بنت الحسين ، فقالت : اهلا بشاعرنا اهل البيت ، وجاءت بقدح فيه سويق ، وحركته بيدها ، فشربه ، ثـم امرت لـه بمال ومركب ، فهملت عيناه ، وقال : لا والله لا اقبلها ، اني ما احببتكم للدنيا •

وبلغ هشام بـن عبد الملك قصائد الكميت وتأثيرها في الجماهير ، فكانت على قلبه اشد من وقع السهام ، فارسل الى عامله على العراق خالد ابن عبدالله القسري ان يقطع لسان الكميت ويديه . ويهدم داره ، ويصلبه على ترابها ، فلم يشعر الكميت الا والخيل محدقة بداره ، فاخذ وحبس ، واجل خالد تنفيذ الهدم والاعدام خوفا من قبيلة الشاعر ، وتهيأ للكميت اسباب الفرار من السجن ، فهرب ، وارسل الى الامام محمد الباقر (ع) يستأذنه بمدح الامويين لينجو من القتل ، فاذن له الامام ، وقال : فليقل ما شاء ، فخرج ليلا ، ومعه جماعة من بني اسد يريدون الشام ، ولما بلغوها اشاروا على الكميت ان يستجير بقبر معاوية بن هشام ، فاستجار به ، وشفع له ابو شاكر عند ابيه هشام ، فقبل الشفاعة ، وقال : هو آمن ، ودخل عليه

الكميت ، وانشده قصيدة مطلعها :

فالآن صرت الى اميـة والامور الى مصائر

واول ما قال الكميت الشعر ذهب الى الفرزدق ، وقال له : اني قلت شعرا ، فاسمعه مني ، فان كان حسنا اذعته ، وان كان قبيحا سترته ، فقال الفرزدق : اما عقلك فحسن ، وارجو ان يكـون شعرك على قدر عقلك . هات فانشده القصيدة التي يقول فيها :

بني هاشم رهط النبي فانني — بهم ولهم ارضى مرارا واغضب

فقال له الفرزدق : اذع يا ابن اخي ، ثم اذع ، انت والله اشعر مـن مضى ، واشعر من بقي ، وسئل معاذ الهراء عن الكميت فقال : ذاك اشعر الاولين والآخرين . وقـال ذو الرمة للكميت لما انشده : احسنت يـا ابا المستهل في ترقيصك هذه القوافي . وقال ابو عكرمة الضبي : لولا الكميت لم يكن للغة ترجمان ، ولا للبيان لسان . وقال الجاحظ : ما فتح للشيعة باب الجدل والاحتجاج الا الكميت .

والكميت اول شاعر اسلامي نعـى على الشعراء بكاءهم الاطلال ، ومخاطبة الاثافي والاحجار .

ولا تقـف بديار الحي تسألها — تبـك معارفها ضـلا بتضليل
ما انت والدار اذ صارت معارفها — للريح ملعبـة ذات الغرابيـل

مالـي وللدار بعـد ساكنهـا — ولـو تذكـرت اهلهـا ارب
لا الدار ردت جـواب سائلها — ولا بكـت اهلهـا اذ اغتربوا

واستشهد الكميت سنة ١٢٦ هجرية ، قتلـه جنود يوسف بن عمر ، فقضى شهيد الحق والفضيلة .

مضى على استشهاد الحسين (ع) اكثر من الف وثلاثمئة سنة ، ولكن الناس من كل الفئات والاديان ما زالــوا يرددون اسمه الذي اصبح رمزا للتضحية والبطولة من اجل الانسان وكرامته وتحرره من الظلم والاضطهاد، وعنوانا للبذل والفداء بالنفس والاولاد والعيال ، لاحقاق الحق ، وانتشار العدل ، ومن اجل هذا وحده ينادي الخطباء بمبادئه علــى المنابر ، ويضع المفكرون المخلصون فيها وفيــه المؤلفات الطوال والقصار ، ويكتبــون المقالات ، وتنظم الشعراء القصائد ، وحسب البشرية املا في الحياة الكريمة ان تقتدي بسيد الشهداء الحسين بن علي بن ابي طالب (ع) .

ومن الصدف ، وكم للصدف علي من فضل ، اقول الصدف جريا على المعتاد ، والا فاني على يقين قاطع ان من ورائها يد سماوية ، وعناية الهية ، واية تكون فانه بعد ان انجزت المطبعة القسم الاكثر من هذا الكتاب « من هنا وهناك » قرأت كلمة للاستاذ سامي محمود في الحسين نشرتها جريدة اخبار اليوم المصرية تاريخ ٢٧ / ٧ / ٦٨ ، والذي يسحر ويبهر في هذه الكلمة مقدرة كاتبها على التلخيص والايجاز الذي يشبه الاعجاز . مــع اتساق العبارات وجمالها وانسجاه الحوادث وتتابعها .. وايضا سرعتها ، اما من حيث الاحاطة والشمول فلا اغالي اذا قلت : انها تغني عن كثير مما كتب في الحسين قديما وحديثا ..

لهذا ، وخشية ان تنطوي هذه الكلمة الجامعة المانعة مع الجريدة التي نشرتها اسجلها كاملة فيما يلي :

عارض « الحسين » اخاه « الحسن » في صلحه مع معاوية وتسليمه امر المسلمين ... الا انه ذكره بقول جده « ان ابني هذا سيد وعسى الله ان يصلح به بين طائفتين من المسلمين .. » .. ويقرر حقن الدماء ويكتب في كتاب صلحه لمعاوية .. ان اعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة

الخلفاء الراشدين •• وان ليس لمعاوية بن ابي سفيان ان يعهد لاحد من بعده عهدا بل يكون الامر من بعده شورى بين المسلمين ••• الا ان معاوية ورث الحكم ليزيد ـ ابنه مـن بعده ••• ومن هنا خرج الحسين مؤيدا ثورة المسلمين الذيـن ارسلوا اليـه يبايعونه ويستنكرون مخالفـة سنة الدين ••• ومن هنا استشهد •• وهو يضع قـول جده نصب عينيه •• والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذ االامر ما تركته حتى يقضيه الله او اهلك دونه •

توقف الجيش الكبير وهو في طريقه الى « صفين » •• ونظر قائده الى الفضاء السحيق وقد اخذت دموعه تنساب على خديه •• ثم رفع يده واشار الى بقعة من هـذا الفراغ البعيد وسأل اصحابه : مـا اسم هذا المكان •• قالوا كربلاء ••• قال « هنا محط رحالهم ومهراق دمائهم » ••

ولم يمض وقت طويل على هذا المشهد •• فبعده بعشرين عاما فقط وعلى التحديد في العاشر من محرم سنة ٦١ هجرية شهد نفس المكان مجزرة لم يسبق لها مثيل بين اثنين وثلاثين فارسا واربعين من المشاة •• امام اربعة آلاف فارس وجندي من المشاة •• ووقف في نفس المكان رجل آخر يسأل اصحابه : مـا اسم هذا المكان •• قالوا كربلاء عندئذ وضح كـل شيء امامه •• وتذكر وقفة ابيه منذ عشرين عاما في هذا المكان •• وعرف انها نهاية المطاف امام الباطل ! لكنه تمالك نفسه •• واعد جنده لمعركة من اغرب المعارك في التاريخ •• واخذ الجميع يرددون قول الله « ان وليى الله الذي نزل الكتاب •• وهو يتولى الصالحين » •• ولم يكن هذا الرجل غير الحسين بن علي بن ابي طالب •• ابي الشهداء •• الذي نحتفل بمولده في هذه الايام •

ومن الغريب انه في الوقت الذي يحتفل فيه المسلمون في كافة بقاع الارض بمولده •• يحتفل العراق بوفاته •• ويلبس اهل الكوفة على وجه التحديد •• ثياب الحداد •• وتقيم طوائف التوابين حلقات ذكـر كبيرة

مستمرة يستغفرون مناصرة آل البيت•• ويسمون كربلاء التي كانت معروفة باسم «كوربابل» •• الى «كرب» •• و «بلاء» نسبة الى ما حدث فيها •

والحقيقة ان كربلاء لم تكن النهاية كما انها لم تكن البداية •• فالبداية كانت بين علي ومعاوية •• كانت بين الصراع على المبادىء والحق وبين شهوة السلطان وجبروت الحكم ••• بدأت بخدعة التحكيم وانتهت بمجزرة كربلاء •• بدأت اكذوبة عرفها التاريخ العباسي للاسلام •• والتي زعم معاوية واتباعه ان عليا وابناءه مسئولون عن مقتل عثمان وانهم يثأرون لعثمان •• والحقيقة التي يذكرها التاريخ جيدا ان عليا امر ابناءه بحماية امير المؤمنين •• وانه حمل اليه الماء وفك حصار الثوار من حوله • واقوى دليل على ذلك ان « عمار بن ياسر » صحابى رسول الله صاح في الناس قائلا : « سيروا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يزعمون انهم يثأرون لعثمان والله ما قصدهم الاخذ بثأره ولكنهم ذاقوا الدنيا واستمرأوها •• الا انهم ليخادعون الناس بزعمهم انهم يثأرون لدم عثمان •• وما يريدون • الا ان يكونوا جبابرة وملوكا •• والذي نفسي بيده لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر ، ما وهن يقيني باننا على الحق وانهم على الباطل » •• لقد تعلل معاوية بمقتل عثمان والحقيقة انه كان يريد الملك له ولابنائه من بعده وحق عليه قوله تعالى « كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » ••

ونجح معاوية في سعيه للخلافة فجمع المال والرجال اثناء خلافته على الشام •• ونجح مرة اخرى في تقليب المسلمين على امير المؤمنين على بن ابي طالب •• ونجح اخيرا في خدعة التحكيم بعد ان كاد يهزم بأن رفع المصاحف فوق السيوف طالبا التحكيم •• وتفرق فريق من انصار علي وخرج فريق آخر عن طوعه •• استطاع ان ينتصر عليهم في « موقعة النهروان » •• الا ان الحظ بعد ذلك ساعد معاوية مرة اخرى بموت علي كرم الله وجهه عندما ضربه ابن ملجم بسيف مسموم في جبينه وهو قائم لصلاة الفجر وقد اوصى الا يمثل بقاتله والا تسفك دماء المسلمين لذلك••

يا بني عبد المطلب لا الفينكم تخوضون دماء المسلمين ، تقولون قتل امير المؤمنين الا لا يقتلن احد الا قاتلي .. انظر يا حسن اذا انا مت من ضربته هذه .. فاضربه ضربة بضربة ولا تمثل بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » .. ثم اوصاهما بتقوى الله .. وان يكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصرا .. وان يعملا بما في كتاب الله « ولا تأخذكما في الله لومة لائم » .. ثم قيل له تبايع الحسن من بعدك فقال : لا آمركم ولا انهاكم اتركم كما ترككم رسول الله ..

الا ان المسلمين قد اجتمعوا ووقف فيهم الحسن قائلا .. ايها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد صلى الله عليه وآله وسلم .. انا ابن البشير انا ابن النذير انا ابن الداعي الى الله عز وجل باذنه ، وانا ابن السراج المنير وانا من اهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ..

وقام ابن عباس فدعا الناس الى بيعته فاستجابوا له وبايعوه .. غير ان معاوية لم يعجبه ذلك واستنكره .. فارسل اليه الرسائل قائلا ... اليوم فليتعجب المتعجب من توبتك يا معاوية على امر لست من اهله لا بفضل في الدين معروف ولا اثر في الاسلام محمود وانت ابن حزب من الاحزاب وابن اعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. واتق الله ودع البغي واحقن دماء المسلمين فوالله مالك خير ان تلقى الله من دمائهم باكثر مما انت لاقيه به وادخل في السلم والطاعة ولا تنازع الامر اهله ومن هو احق به منك ..

غير ان معاوية ارسل كتبه ورسله الى الامصار فجمع العساكر وسار بهم قاصدا العراق .. واستعد الحسن للخروج .. لولا انه يحرص على حقن دماء المسلمين .. ولولا انه يذكر ان جده النبي عندما صعد به المنبر قال «ان ابني هذا سيد وعسى الله ان يصلح به بين طائفتين من المسلمين» ..

هو يذكر ذلك ويذكر ان معاوية ارسل عبد الرحمن بن سمرة وعبدالله بن عامر يسعيان للصلح •• ويدعو الجميع الى مؤتمر عام للمسلمين ويشترط الحسن لتنازله على ان تعود الخلافة بعـد معاوية للمسلمين وان يكف المعاويون عن سبيل علي وآل بيته وان يؤمن الذين ناصروه واباه واخاه •• ويوافق معاوية ويقف الحسن في الناس قائلا : ان الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا الا ان اكيس الكيس التقي وان اعجز العجز الفجور •• وان هذا الامر الذي اختلفت فيه ومعاوية اما ان يكون احق مني به منه فقد تركته لله عـز وجل ولخير امـة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحقن دمائها •• وجاء في كتاب الصلح •• « ان ليس لمعاوية بن ابي سفيان ان يعهد لاحد من بعده عهدا بل يكون الامر من بعده شورى بين المسلمين»•• وسافر الحسن الى المدينة مجاورا جده العظيم •• واستمر الناس يحجون اليه زائرين حتى تعلقت الانظار بالمدينة ونسوا الشام وحاكمها •• وعاد الورع الى القلوب التي افقدتها شهوة الحياة ورعها •• وصعب ذلك على اعدائه •• فدسوا له السم •• ومرض •• حتى مات ودفن في البقيع •

وبموت الحسن استراح معاوية •• واصبح يجد نفسه فوق اقوى دولة في هذا العصر •• فعز عليه الملك وقرر بقاءه في بيت معاوية •• وهنا بدأت مأساة ابي الشهداء •• وهنا بدأت المعركة بين الحق والباطل بين المبادىء والنفعية •• فاختار ابنه يزيد الملك وسعى الى الامصار يدعو له ••

الا ان اخشى ما كان يخشاه الحسين بن علي وعبدالله بـن الزبير وعبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن ابي بكر •• هؤلاء الاربعة اوصى عليهم معاوية قبل وفاته في العام الستين للهجرة •• اني اخاف عليك منهم •• فأما الحسين بن علي فان اهل العراق لن يتركوه حتى يخرجوه اليهم فان فعل فظفرت به فاصفح عنه •• واما عبدالله بن عمر فرجل وتته العبادة ولا يريد الخلافة الا ان تأتيه عفوا •• واما عبد الرحمن ابن ابي بكر ، فليس له عند الناس ما يجعله يطمح الى طلبها او يحاول التماسها الا ان تأتيه عفوا ••

واما الذي سيجثم لك جثوم الاسد ويراوغك روغان الثعبان حتى اذا امكنته فرصة وثب عليك فذلك هو عبدالله بن الزبير فاذا فعل وظفرت به فقطعه اربا اربا .

ورحل الحسين الى مكة بعد ان سبقه اليها عبدالله بن الزبير ... وما كان الحسين ليسمح ليزيد ان يعبث بدين المسلمين فانه عارض اخاه قبل ذلك في صلح معاوية .. قائلا ان آل ابي سفيان لا عهد لهم ولا امان .. وما كان له ان يخرج على اجماع المسلمين .. الا انه لم يكن ليسمح ان يصبح امر المسلمين بالوراثة .. فان عقد الصلح اساسه الشورى .. وهنا يرسل اليه اهل الكوفة ليبايعوه .. ويدفعوا عار استخلاص يزيد بن ابيه .. وما كانت دعوة اهل الكوفة وحدها سببا في خروجه .. بل كان الخروج على الدين واحكام الاسلام بلاء يحيق بالامة جميعها .. فهو مسلم وهو من آل البيت ... وهو من ناحية اخرى لا يستطيع مناصرة ملك ينكر دعواه .. ويأمر الخطباء فيسبونه ويسبون اباه من فوق المنابر .. وهو في خروجه من مكة يؤثر الموت على الاذعان والمبايعة .. ويدرك ان دمه لن يضيع هباء وهو يردد : الآن اقتل في اي مكان من الارض احب الي من ان اقتل هنا فيستباح البلد الحرام بسببي ...

ثم يرسل الى اهل الكوفة قائلا . واني باعث باخي وابن عمي وثقتي من اهلي .. « مسلم بن عقيل » . فان يك امركم على ما جاءتني به كتبكم واخبرتني رسلكم اسرعت القدوم اليكم ان شاء الله تعالى .. ثم يرسل الى زعماء البصرة قائلا .. اما بعد فاني ادعوكم الى احياء معالم الحق واماتة البدعة والباطل فان تجيبوا تهتدوا سبل الرشاد .

وتتحرك الاحداث مسرعة نحو المذبحة .. فيعزل والي الكوفة النعمان بن بشير .. ويعين ابن زياد او ابن ــ مرجانة ــ وهي جارية مجوسية .. وتصل رسالة البصرة الى ابن زياد .. ويصل اليه ايضا امر تكليفه بتولي امارة الكوفة الى جانب البصرة .. وعلى الفور يأمر بصلب

وقتل رسول الحسين الى اهل البصرة ثم يسرع في السفر الى الكوفة باحثا عن « مسلم بن عقيل » رسول الحسين .. ومن الغريب ان تتاح لمسلم فرصتان لقتل ابن زياد .. ويمنعه دينه في الاولى من اغتياله عندما ذهب زياد سرا لعيادة احد المرضى بعلم مسلم وقال مسلم ان حديث الرسول يقول ... « لا يفتك مؤمن » والاخرى عندما حاصر قصر زياد ومنعته اوامره من الاجهاز عليه .

الا ان زياد استطاع ان يتغلب عليه ويأمر جلاديه فيضربوا عنقه ويرموه في الطريق .. ولكن زياد يكتب وصيته قبل ذلك ويوصي ان ترسل الى الحسين ويقول « واني قد ارسلت الى الحسين اخبره ان الناس ينتظرونه وادعوه للقدوم ولا اراه الا مقبلا فابعث اليه من يرده ويخبره ان اهل الكوفة لا عهد لهم » .

وتقدمت قافلة الحسين في طريقها واستقبلت مبعوث « مسلم » .. وقرأ الحسين وصيته .. ونادى ان القبائل التي انضمت اليه معقدة .. لانه لا امل في النصر .. وانما في الاستشهاد ! !

ويأمر زياد « الحر بن يزيد التميمي » فيخرج بالف فارس ليتربص بقافلة الحسين .. وما يلبث ان يرسل اليه طالبا « شدد على الحسين في المكان الذي يوافيك عنده كتابي ولا تنزله الا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء » .. ويحاول الحسين الوصول الى الماء فيمنعه « الحر » ويحاول الرجوع فلا يسمحون له ويقول لهم .. « اني لم آتكم حتى اتتني كتبكم وقدمت على رسلكم فان اعطيتموني ما اطمئن اليه من عهد وميثاق دخلت معكم مصركم وان تكن الاخرى انصرفت عنكم .. » .. وما زال الحر يدفع في الركب ناحية الكوفة ولا يسمح له بأي طريق آخر ..

ونزل الركب .. وترجل الحسين .. وجال نظره في المكان بحنين غريب .. وسأل اصحابه .. ما اسم هذا المكان .. قالوا كربلاء .. عندها عرف انه قد ازفت الآزفة .. فيجمع القوم ويقول « لقد برزتم دعاوتكم

والقوم لا يريدون غيري ولو قتلوني لم يبتغوا غيري احدا •• فاذا جنكم الليل فتفرقوا في سواده وانجوا بأنفسكم » •• ويقبل عليه ابنه الصغير ويسأل والده •• السنا على الحق ؟ •• قال : بلى والذي يرجع اليه العباد •• فقال الفتى يا أبة اذن فلا نبالي لو يتجسهر الجميع حوله قائلين •• ماذا تقول للناس اذا رجعنا اليهم ؟ أتقول لهم انا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا تركناه غرضا للنبل وريثة للرماح وجزرا للسباع ، وقررنا عنه رغبة في الحياة ؟ معاذ الله •• بل نحيا بحياتك ونموت معك •• ويستمر الجمع في عرض ارواحهم •• فيقول زهير بن القين « والله لوددت اني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى اقتل هكذا الف مرة ، ويدفع الله بذلك القتل عن نفسك وعن انفس هؤلاء الفتيان من اهل بيتك •• » ويقول مسلم بن عوسجة •• انحن نخلى عنك •• وبم نعتذر الى الله من اداء حقك ؟ ••

وفي الجانب المقابل للعدو •• يرسل زياد جيشا آخر لمحاربة «السبعين رجلا » جيشا كان معدا لمجابهة « ثورة الديلم » قوامه ٤ آلاف فارس بقيادة عمر بن سعد •• وجاء اليوم المشهود واذن للصلاة وصلى الشهداء السبعون صلاة الفجر ••• واخذ الحسين ينظم صفوفه •• ووضع آل البيت في مقدمة الصفوف •• وهجم الانصار الى الصف الاول قائلين معاذ الله ان تموتوا ونحن احياء نشهد مصارعكم •

وبينما هو يعد الصفوف ويضع الميمنة والميسرة في اماكنها •• اذ اندفع اليه ولده عبدالله يتلوى من العطش فحمله •• واتجه ناحية العدو •• محاولا اسلوبا آخر •• وقال « اتقوا الله في الطفل ان لم تتقوا الله فينا »•• فاذا برجل يلقى بسهامه الى احشائه ويقول •• « خذ اسقه هذا » •• « الا ترى الى الفرات كأنه بطون الحيات •• وانت لا تذوقه حتى تموت ومن معك عطشا » •• ولما دنا الحسين ليشرب من الفرات •• رماه حصين ابن نمير بسهم وقع في فمه •• فانتزعه الحسين وجعل يتلقى الدم بيديه •• ثم رفع رأسه الى السماء وقال « اللهم ان تكن حبست عنا النصر من

السماء فاجعل ذلك لما هو خير منه وانتقم لنا من القوم الظالمين » .. ودعا عليهم قائلا .. « ارجو ان يكرمني الله بهوانكم » .. واستمر الحسين رغم ذلك يدعو الناس قائلا « انسبوني من انا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي ؟ الست ابن بنت نبيكم .. او لم يبلغكم ما قاله رسول الله لي ولاخي : هذان سيدا شباب اهل الجنة ؟ « ويحكم اتطلبونني بقتيل لكم قتلته او مال لكم استهلكته » .. ثم اخذ ينادي بأسماء انصاره الذين استدعوه .. يا شبث بن الربعي ! يا حجار بن ابحر يا قيس بن الاشعث ! يا يزيد بن الحارث ! يا عمر بن الحجاج .. ألم تكتبوا الي ان قد اينعت الثمار واخضرت الجنبات وانما تقدم على جند مجند ... وهنا نجح او كاد في ان يزلزل افواههم وان يسقط في ايديهم .. وهنا يخرج « الحر بن يزيد التميمي » الذي حاصر الحسين في كربلاء مسرعا فوق حصانه نحو معسكر الحسين ويعانقه ويستغفره .. قال افترى في ذلك توبة لي مما صنعت وخرج « يزيد الكندي » ايضا نحو معسكر الحسين ..

وخشي عمر بن سعد قائد جيش ابن زياد .. ان يخرج الامر من يده .. فقذف بسهمه معلنا بدء القتال .. ويخرج الصف الاول للقتال .. فاذا جنود الحسين يصرعون الموجة الاولى ويعودون ليصرعوا الموجة الثانية ويتكالب جند ابن زياد على « عبدالله بن عمر الكلبي » ويقتلونه .. ويخرجون على قواعد القتال في ذلك الوقت .. وتراه زوجته فتسرع اليه .. وتقول لن ادعك تذهب الى الفردوس وحدك !! .. وتتابع هجمات جنود ابن زياد .. وقرر قائدهم « عروة بن قيس » ان يستعين بالرماة .. وتكالبت اقواس ثلاثة آلاف فارس او يزيد ترمى خيول الفرسان الثلاثين .. وقرر جنود الحسين القتال على الارض .. واشتدت حومة الوغى ..

وصرخ الحسين مكبرا من كل قلبه .. الله اكبر .. الله اكبر .. واندفع في ثلة من رجاله نحو العدو .. فاذا هم يهربون .. فما من احد يجرؤ على قتل حفيد رسول الله .. وما من احد يستطيع ان ينازل

الحسين •• سيد السيف ووليد المعارك •• ولا احد يفوق تركيبه القوى البنيان •• الا ان ما بدا كان ينبغي ان يتم •• واذا بحريق يشمله العدو في خيامهم ليحولوا انتباههم ••ويصيح الحسين •• اجعلوا الحريق وراء ظهوركم فلا يستطيعوا اجتياز النار اليكم ••

•• وينتصف النهار •• وما زال رجال الحسين يقاتلون •• ويؤذن للصلاة •• ويستريح الجميع لفترة الصلاة وما تكاد تنتهي حتى تبدأ اشد وانكى مما كانت •• ويفنى الانصار عن آخرهم ويتقدم ابنه الشاب ذو التسعة عشر ربيعا •• ينشد قائلا •• انا علي بن الحسين بن علي •• نحن ورب البيت اولى بالنبي •• وما يزال يضرب حتى ياتيه رمح يخترق قلبه الشاب •• ويحمله ابوه ويسجيه على الارض •• ولا يكاد يرفع رأسه حتى يسمع من ينادي •• عماه •• فيشد على قاتل ابن اخيه ويسجيه هو الآخر فوق التراب قائلا •• عزيز والله على عمك ان تدعوه فلا يجيبك او يجيبك فلا ينفعك في يوم كثر دانوه وقل ناصره ••

ووقف وحيدا •• وخيم سكون هائل فوق ارض المعركة •• من ذا الذي يستطيع ان يقتل حفيد الرسول •• وعندما يذكر اخاه •• ويذكر المنصب •• والمال •• فان المبادىء تتلاشى والمثل تزول •• ويتقدم من يحاول •• ويهرع صبي صغير يصيح بالقاتل « تقتل عمي » ! ••

ويأتي فوج من الجبناء •• فاذا هــو يهجم على اولهم وثانيهم •• ويخشى قائدهم النتيجة فيأمر باحاطته من كل مكان •• وتبدأ النبال •• تصوب سهامها الى جسده الطاهر •• وهو لا يزال يقاتل بسيفه •• واذا بمن يهجم عليه ويقطع يديه بسيفها •• واذا هــو يحاول ان يقف مــن جديد •• وفي هذه المرة يتركونه ليقف •• واذا « بشمر بن ذي الجوشن » يأتي من بعيد ويضرب رأسه الطاهر ضربة واحدة •• فينفصل •• ويحمل فوق الحراب ثم يأمر الخيل فتدوس جسده الطاهر بحوافرها •• ثم تقطع الرؤوس السبعة جميعها •• وتحمل جميعا الى يزيد في الشام !! •• ويجيء

الليل وتتسلل جماعة من بني اسد فيصلون على الجثث الطاهرة ويدفنونها.

اما الرأس فقد امر ان يطاف به في شوارع الكوفة .. ووراءهم سارت نساء آل البيت مكبلين بالاغلال ثم سار الموكب بعد ذلك الى يزيد .. وقيل ان الرأس اعيد لكربلاء مرة اخرى حيث دفن مع الجسد .. وقيل انه دفن بالبقيع في المدينة عند قبر امه الزهراء .. وقيل انه دفن في عسقلان حيث استولى عليه الاوروبيون في الحرب الصليبية وان الصالح طلائع وزير الفاطميين بمصر بذل لهم ٣٠ الف درهم واسترده .. وانه خرج وجنده .. حفاة الى الصالحية فتلقى الرأس الشريف .. ودفنه بالمشهد الحسيني المعروف الآن .. والذي كان جزءا من قصر الدولة الفاطمية المكون من ٥ آلاف حجرة في نفس هذا المكان .. الموجود الآن ..

ولم يمض على يوم كربلاء اربع سنوات حتى مات يزيد .. وخرج من الكوفة « المختار بن ابي عبيد الثقفي » زعيم التوابين الذي تولى مطاردة وقتل جميع قتلة الحسين .. ولم تمض سنوات معدودات حتى تسقط دولة الامويين وتقوم الدولة العباسية .. والفاطمية .. ولعل مأساة آل البيت جميعها وعدالة قضيتهم تأتي من افواه اعدائهم وقتلتهم . وتلخص القصة كلها فبعد ان مات يزيد تولى « معاوية الثاني » الحكم ووقف يخطب الناس قائلا .. « يا ايها الناس ان جدي معاوية نازع الامر اهله ومن هو احق به منه لقرابته من رسول الله وسابقته في الاسلام وهو علي بن ابي طالب ولقد ركب بكم ما تعلمون حتى اتته منيته فصار في قبره رهينة اعماله .. ثم تقلد ابي يزيد ـ الامر من بعده فكان غير اهل له .. وكب هواه .. واخلفه الامل .. ومضى به الاجل .. ثم صار في قبره رهين ذنبه واسير جرمه .. ان من اعظم الامور علينا ، علمنا بسوء منقلبه وقد قتل عترة رسول الله وما انا بالمتقلد آمركم ولا بالمتحمل تبعاتكم فاختاروا لانفسكم .. والله لئن كانت الدنيا خيرا فلقد نلنا منها حظا ولئن كانت شرا فكفى ذرية ابي سفيان ما اصابوا .. الا فليصل بالناس حسان ابن مالك .. وشاوروا في خلافتكم يرحمكم الله » ..

الفهرس

للمؤلف

١ ــ الوضع الحاضر في جبل عامل
٢ ــ الفصول الشرعية
٣ ــ مع الشيعة الامامية
٤ ــ اهل البيت
٥ ــ الاسلام مع الحياة
٦ ــ الله والعقل
٧ ــ النبوة والعقل
٨ ــ الآخرة والعقل
٩ ــ المهدي المنتظر والعقل
طبعت هذه الكتب الاربعة الاخيرة في مجلد واحد باسم « الاسلام والعقل »
١٠ ــ الفقه على المذاهب الخمسة
١١ ــ الحج على المذاهب الخمسة
طبع هذان الكتابان في مجلد واحد باسم « الفقه على المذاهب الخمسة » في الطبعة الثالثة
١٢ ــ الزواج والطلاق على المذاهب الخمسة
١٣ ــ الوصايا والمواريث على المذاهب الخمسة
١٤ ــ الوقف والحجر على المذاهب الخمسة
طبعت هذه الكتب الثلاثة الاخيرة في مجلد واحد باسم « الاحوال الشخصية على المذاهب الخمسة »

١٥ ــ مفاهيم انسانية في كلمات الامام الصادق
١٦ ــ علي والقرآن
١٧ ــ فضائل الامام علي
١٨ ــ علي والفلسفة
١٩ ــ امامة علي والعقل
٢٠ ــ دول الشيعة
٢١ ــ الشيعة والحاكمون
٢٢ ــ الشيعة والتشيع
٢٣ ــ نظرات في التصوف
٢٤ ــ معالم الفلسفة الاسلامية
٢٥ ــ المجالس الحسينية
٢٦ ــ فلسفة المبدا والمعاد
٧٢ ــ مع علماء النجف
٢٨ ــ مع بطلة كربلاء
٢٩ ــ هذي هي الوهابية
٣٠ ــ اصول الاثبات في الفقه الجعفري
٣١ ــ فقه الامام جعفر الصادق ٦اجزاء
٣٢ ــ الاثنا عشرية واهل البيت
٣٣ ــ التفسير الكاشف صدر المجلد الاول والثاني
٣٤ ــ من هنا وهناك
٣٥ ــ تجارب محمد جواد مغنية جاهز للطبع

هذا الكتاب

يحتوي على حوالي ٧٠ كلمة في موضوعات شتى :

* تحديد الدين واهدافه ، وبيان اسراره ودقائقه ، ومن هو المتدين حقا ؟
* علي والحسين عليهما السلام ، والنجف وزيارة القبور •
* صور عن شخصيات لا تنسى •
* نكبة ـ ٥ ـ حزيران وذيولها ، والعرب واسرائيل بين روسيا والولايات المتحدة الامريكية •
* ابحاث في المتعة والقياس والاستحسان ، وهل الانسان مسير او مخير ؟ ، ونظرات حول بعض المؤلفات •
* رحلات المؤلف الى ايران ، ومصر ، والبحرين ، الى غير ذلك مما يجده القارىء فيه فائدة ومتعة •



الثمن ٤٠٠ ق.ل او ما يعا